رواية تاريخية

حراس الذاكرة

مجلدات لا تموت... وأمانة لا تنتهي

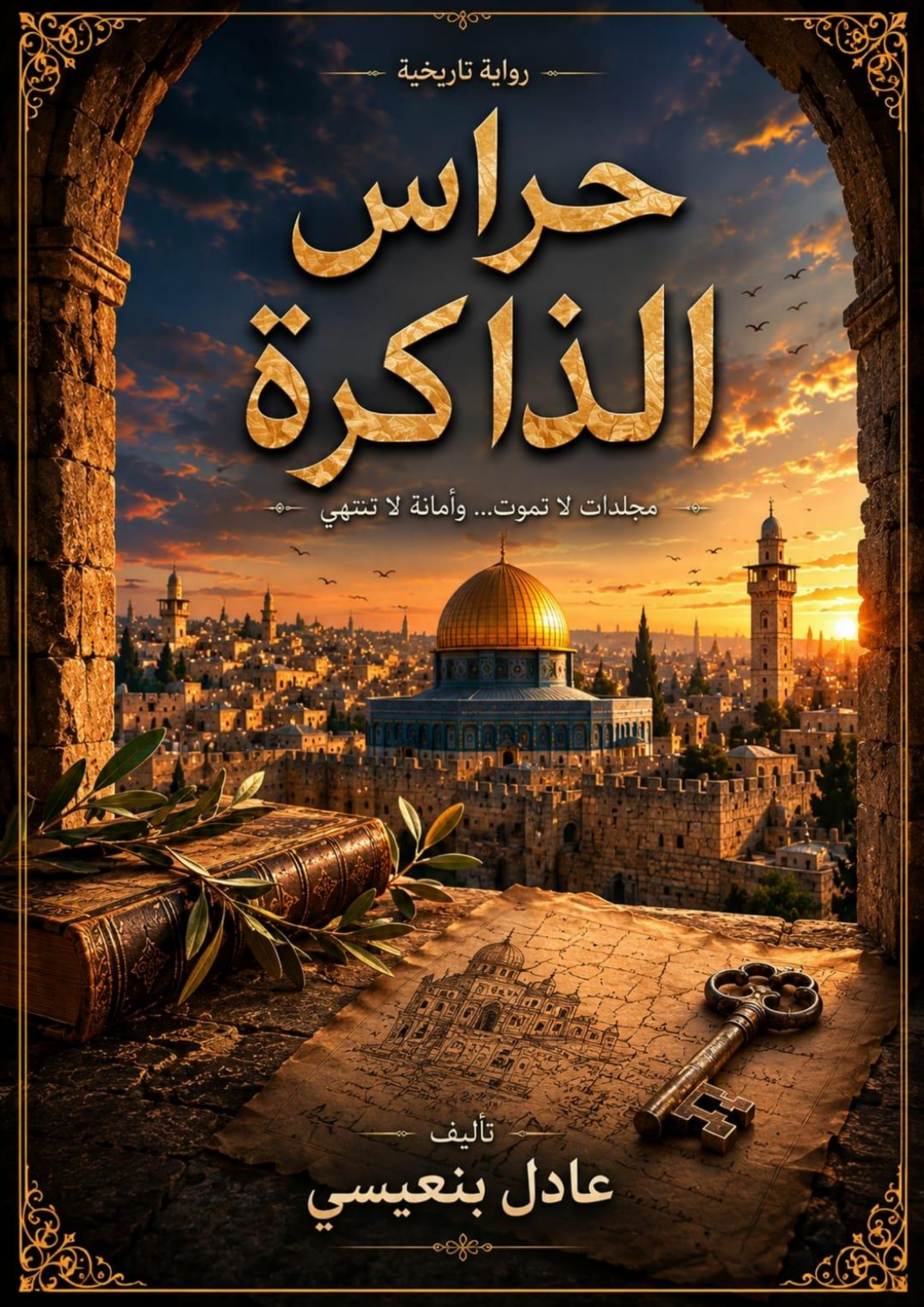

تأليف

عادل بنعيسي

إهداء

إلى القدس...

المدينة التي لم تكن يومًا مجرد حجارة وأسوار، بل كانت ذاكرةً حيّةً للإنسان، وشاهدًا على تعاقب الحضارات، وصمود الحقيقة أمام تقلبات الزمن.

إلى كل من حمل قلمًا ليكتب بصدق، ووثيقةً ليحفظ حقًا، وشهادةً ليمنع النسيان.

إلى الباحثين والمؤرخين وأمناء الأرشيف والمخطوطات، وكل من يؤمن بأن الحقيقة لا تُصنع، بل تُكتشف، ولا تُحفظ بالقوة، بل بالأمانة.

وإلى كل قارئ يفتح هذه الصفحات، راجيًا أن يجد فيها أكثر من رواية؛ أن يجد رسالةً تذكّره بأن التاريخ ليس ملكًا للمنتصرين وحدهم، بل هو ميراث الإنسانية كلها.

هذه الرواية...

إهداءٌ إلى كل حارسٍ للذاكرة، عُرف اسمه أو بقي مجهولًا.

عادل بنعيسي

المقدمة

لم تُولد الأوطان يوم رُسمت حدودها على الخرائط، ولم تبدأ حكاياتها حين خط المؤرخون أسماء الملوك والقادة في بطون الكتب. فقبل أن تُشيَّد القلاع، وتُرفع الرايات، وتُخاض الحروب، كانت هناك أرض اختارها الله لتكون مباركة، أرضٌ تعاقبت عليها الأمم، وسارت فوق ترابها أقدام الأنبياء، وارتفعت منها دعوات الصالحين، وسُفكت على ثراها دماء لا تزال شاهدة على أن التاريخ لا يُكتب بالحبر وحده، بل يُكتب أيضًا بالصبر والدموع والوفاء.

كانت فلسطين، عبر العصور، أكثر من بقعة جغرافية تتنازعها الإمبراطوريات. كانت ذاكرةً حيّة لأمة كاملة، تحفظ في حجارتها صدى الخطوات الأولى، وفي أشجار زيتونها حكايات من غرسها وسقاها وانتظر مواسمها، وفي أزقتها القديمة أسرارًا لم تجد طريقها إلى كتب المؤرخين. وكلما مر بها غازٍ ظن أنه امتلكها، اكتشف متأخرًا أن الأرض قد تُحتل، أما ذاكرتها فلا تُستعبد.

ولأن الذاكرة كانت دائمًا هدفًا لكل من أراد السيطرة على الأرض، فقد كان لا بد أن يوجد من يحرسها. لم يكونوا ملوكًا تُضرب لهم الطبول، ولا قادة تُخلَّد أسماؤهم في النقوش، بل رجالًا ونساءً عاشوا بين الناس في صمت، يحملون أمانة أثقل من السلاح، ويؤمنون بأن الحقيقة إذا ضاعت مرة، فقد تضيع معها هوية شعب بأكمله. كانوا يشهدون الأحداث كما وقعت، ويكتبونها كما رأوها، ثم يخفونها عن أعين الطامعين، ويسلمونها إلى من يأتي بعدهم، حتى يبقى خيط الذاكرة ممتدًا مهما تعاقبت القرون.

لم يكن الحارس يملك أن يمنع مدينة من السقوط، ولا أن يغيّر نتيجة معركة، ولا أن يؤخر موت قائد أو يعجل نصر جيش. كان يدرك أن سنن التاريخ تمضي بأمر الله، وأن لكل أمة أيامها، لكنه كان يعلم أيضًا أن أخطر الهزائم ليست سقوط الأسوار، بل سقوط الحقيقة من ذاكرة الناس. لذلك ظل الحراس، جيلاً بعد جيل، يحمون الشهادة الصادقة من الضياع، ويقاومون النسيان كما يقاوم الجنود عدوهم في ساحات القتال.

وفي كل عصر كان الغزاة يتبدلون، وتختلف الرايات واللغات والوجوه، لكن شيئًا واحدًا ظل ثابتًا؛ فكل قوة احتلت هذه الأرض حاولت، بدرجات متفاوتة، أن تفرض روايتها، وأن تترك بصمتها، وأن تجعل الأجيال تنسى ما كان قبلها. غير أن فلسطين كانت تنجب في كل زمن من يعيد وصل ما انقطع، ويجمع ما تفرق، ويحفظ أسماء المدن والقرى، ووجوه الشهداء، وحكايات الأمهات، ورسائل الآباء، حتى لا تتحول الحقيقة إلى مجرد رواية يختلف عليها الناس.

هذه ليست قصة مدينة واحدة، ولا قصة أسرة بعينها، ولا حكاية بطل لا يُهزم. إنها رحلة تمتد عبر آلاف السنين، تبدأ من الأرض التي باركها الله، وتعبر عصور الأنبياء والملوك، والفتوحات، والحروب، والاحتلالات، والمقاومة، حتى تبلغ الزمن الذي ما زالت صفحاته تُكتب أمام أعيننا. وفي هذه الرحلة ستبقى الأحداث الكبرى وفيةً لما حفظته المصادر التاريخية، بينما ينسج الخيال خيوطه حول أولئك الذين عاشوا في الظل، ولم تذكر أسماءهم كتب التاريخ، مع أنهم كانوا الأمناء الحقيقيين على ذاكرة الأرض.

وربما لن يعرف العالم أسماء هؤلاء الحراس أبدًا، لكن يكفي أنهم أدوا الأمانة. فلو ضاعت الذاكرة، لضاعت معها الحقيقة، ولو ضاعت الحقيقة، لما بقي للوطن سوى اسمٍ على خريطة. أما ما دامت الذاكرة محفوظة في صدور الأمناء، فإن فلسطين ستظل تروي قصتها بنفسها، جيلاً بعد جيل، حتى يشهد التاريخ أن الحق قد يُحارب، وقد يُؤخر، لكنه لا يموت ما دام هناك من يحرس ذاكرته.

التمهيد

الأرض التي لا تنام

قبل أن تُولد الممالك، وقبل أن تتزاحم الرايات فوق أسوار المدن، كانت هناك أرضٌ تستقبل الشمس كل صباح كما لو أنها تحفظ سرَّ الخليقة منذ بدايتها. تمتد بين البحر والصحراء، تعانقها الجبال من الشرق، ويغسلها نسيم البحر من الغرب، وتتشابك في قلبها الوديان والسهول والينابيع، حتى تبدو لمن يراها لأول مرة وكأنها قطعة من السماء أُودعت في الأرض.

لم تكن فلسطين يومًا مجرد أرضٍ تُزرع أو مدينةٍ تُسكن، بل كانت ملتقى الطرق بين الشرق والغرب، وبوابة القارات، وممر القوافل، ومحط أنظار الملوك والطامعين. كل من مر بها ترك أثرًا، وكل من حاول امتلاكها أدرك أن امتلاك الأرض شيء، وامتلاك روحها شيء آخر.

في الربيع، كانت سهولها تكتسي بألوان الزهور البرية، فتفوح رائحة الزعتر والميرمية مع أولى نسمات الصباح. وفي الصيف، كانت أشجار الزيتون تمد أغصانها نحو السماء، كأنها ترفع دعاءً لا ينقطع، بينما تتدفق المياه من العيون القديمة التي شرب منها الرعاة والمسافرون منذ آلاف السنين. وحين يحل الشتاء، تغسل الأمطار حجارة القدس والخليل ونابلس وغزة وأريحا، فتزداد المدن وقارًا، كأن الزمن يعيد إليها في كل عام شيئًا من شبابها.

لكن جمال الأرض لم يكن يومًا سببًا في سلامها، بل كان أحد أسباب صراع الأمم عليها. فمنذ أقدم العصور، كانت الجيوش تأتي من جهات الأرض الأربع، تعبر الصحارى والبحار، تحمل معها أحلام الفاتحين، وأطماع الملوك، ووهم الخلود. كانوا يظنون أن القوة تكفي لامتلاك كل شيء، غير أن الأرض كانت تعلمهم، مع مرور الزمن، أن من يملك السيف لا يملك بالضرورة الذاكرة.

كانت الحجارة ترى ما لا يراه البشر. ترى طفلًا يولد في بيت متواضع ثم يصبح عالمًا يضيء بعلمه زمانه، وترى فلاحًا يغرس شجرة زيتون وهو يعلم أنه قد لا يأكل من ثمرها، لكنها ستبقى لأحفاده،

وترى أمًّا تودع ابنها إلى ساحة القتال وهي تخفي دموعها حتى لا تضعف عزيمته. كانت الأرض تحفظ أسماءهم جميعًا، حتى أولئك الذين لم يكتبهم المؤرخون في كتبهم.

وفي قلب هذه الأرض، قامت مدينة لم تشبه سواها. مدينة جمعت بين قداسة السماء وصخب التاريخ، فكانت كل أمة تنظر إليها بعين مختلفة، وكل جيش يراها غايةً لرحلته، وكل مؤمن يرفع إليها قلبه قبل أن يرفع بصره. كانت القدس، منذ فجر التاريخ، أكثر من مدينة؛ كانت مرآةً يرى فيها الإنسان إيمانه، وطموحه، وضعفه، وعظمته في آنٍ واحد.

ومع مرور القرون، أدرك الحكماء أن أخطر ما يمكن أن يصيب الأرض ليس أن يحتلها الغزاة، بل أن تُنسى قصص أهلها، وأن تضيع أسماء الذين عاشوا فوق ترابها، وأن تتحول الحقيقة إلى روايات متناقضة يرويها المنتصرون وحدهم. عندها بدأت تتشكل، في صمت بعيد عن ضجيج الملوك، فكرة ستبقى حيةً عبر العصور؛ فكرة أن الذاكرة نفسها تحتاج إلى من يحرسها.

لم يولد حراس الذاكرة في يوم واحد، ولم يجتمعوا تحت راية واحدة، بل خرجوا من بين الناس، يحمل كل واحد منهم قلبًا صادقًا، وعقلًا أمينًا، وإيمانًا بأن الكلمة الصادقة قد تعيش أطول من السيف، وأن المخطوطة التي تُنقذ من النار قد تكون أثمن من كنزٍ من الذهب.

وهكذا، بينما كانت الأمم تستعد لكتابة تاريخها بالسيوف، كانت يدٌ خفية تتهيأ لكتابته بالحقيقة، لأن الأوطان قد تفقد أبناءها، وقد تهدم مدنها، لكن الذاكرة، إذا وجدت من يصونها، تبقى قادرة على أن تعيد للأجيال صورة الماضي كما كان، لا كما أراد له المنتصرون أن يكون.

ومن هنا... تبدأ الحكاية.

الكتاب الأول: الأرض المباركة

الفصل الأول: العهد الأول

لم تكن الأرض تعرف أسماء الذين سيمرون فوقها بعد مئات السنين، لكنها كانت تعرف أن خطاهم ستترك أثرًا لا يزول. فمنذ أن بارك الله هذه البقعة من العالم، وهي تستقبل القوافل كما تستقبل الغيث، وتودع الراحلين كما تودع الأم أبناءها، ثم تعود فتنتظر جيلًا جديدًا يحمل إليها أحلامًا أخرى، وحروبًا أخرى، ودموعًا أخرى.

كانت التلال التي تحيط بالقدس تستيقظ كل صباح على أصوات الرعاة وهم يقودون أغنامهم نحو المراعي، وعلى وقع أقدام الفلاحين الذين يخرجون قبل طلوع الشمس ليحرثوا الأرض، غير عابئين بما يدور في الممالك البعيدة. كانت الحياة تسير بإيقاعها الهادئ، حتى ليظن الغريب أن الزمن نسي هذه البلاد، وأنها خُلقت لتبقى بعيدة عن صخب الدنيا، إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك تمامًا. فكل طريق يمر من هذه الأرض كان يحمل معه أخبارًا عن ملك يوسّع سلطانه، أو جيش يستعد للزحف، أو مدينة سقطت تحت راية جديدة، وكأن القدر أراد لهذه البلاد أن تكون شاهدة على تحولات التاريخ كلها.

في قرية صغيرة لا تبعد كثيرًا عن القدس، عاش آصف، الناسخ الذي لم يعرف من الدنيا سوى الحبر والرقوق ورائحة الخشب المعتق. كان يبدأ نهاره مع أول خيط من النور، فيجلس إلى منضدته الخشبية، يهيئ أقلام القصب، ويخلط الحبر بعناية، ثم ينسخ ما يؤتمن عليه من وثائق ورسائل. وكان يردد دائمًا أن الكلمة إذا خرجت من يد الكاتب لم تعد ملكًا له، بل أصبحت أمانة في أعناق من سيقرؤونها بعد عشرات السنين.

ورث آصف هذه المهنة عن معلمه، لا عن أبيه. أما والده فكان فلاحًا يرى أن أعظم ما يملكه الإنسان هو قطعة الأرض التي يزرعها بيديه، وكان يقول لابنه كلما رآه منكبًا على الرقوق: "أنا أزرع

القمح في التراب، وأنت تزرع الكلمات في الزمن. فإن ضاع زرعي جاع الناس عامًا، وإن ضاع زرعك جاعت العقول أجيالًا."

لم يكن آصف يدرك آنذاك عمق تلك الكلمات، لكنه كان يشعر أن للكتابة شأنًا يتجاوز نقل الأخبار وحفظ الحسابات. وكثيرًا ما كان ينسخ وثيقة قديمة، فيتساءل بينه وبين نفسه: أين ذهب أصحاب هذه الأسماء؟ هل ما زال أحد يذكرهم؟ وهل يكفي أن يموت الإنسان حتى تموت حكايته معه؟

كانت هذه الأسئلة ترافقه كل يوم، دون أن يجد لها جوابًا، إلى أن جاء ذلك المساء الذي وقف فيه الشيخ الغريب أمام باب داره. لم يكن الشيخ يختلف في هيئته عن بقية المسافرين الذين تعود أهل القرية على استقبالهم، لكن في عينيه كان شيء يصعب وصفه؛ هدوء رجل رأى من تقلّب الأيام ما جعله لا يندهش من شيء، وحزن من حمل في قلبه قصصًا لا يستطيع أن يرويها لكل من يقابله.

اقترب الشيخ منه، وبعد التحية، لم يسأله عن اسمه ولا عن أهله، بل سأله سؤالًا واحدًا:

"أخبرني يا بني... لو علمت أن آخر نسخة من كتاب يحمل حقيقة لا يعرفها غيرك ستُحرق مع غروب الشمس، فهل تنقذ الكتاب أم تنقذ نفسك؟"

بقي آصف صامتًا. لم يكن السؤال سهلًا كما بدا، فقد وضعه بين الحياة والواجب، بين الإنسان وما يؤمن به. وبعد لحظات من التفكير، رفع رأسه وقال بصوت هادئ: "إذا ضاعت الحقيقة، فلن يبقى لنجاتي معنى."

لم يتغير وجه الشيخ، لكنه شعر في تلك اللحظة أنه وجد ما جاء يبحث عنه. أخرج من داخل عباءته لفافة جلدية صغيرة، ناولها إلى آصف، ثم قال: "لا تفتحها الآن. اقرأها حين يخلو بيتك من الناس، وحين تتأكد أن الليل قد ألقى ستاره على القرية."

أخذ آصف اللفافة وهو يشعر بثقلها، مع أنها لم تكن تزن أكثر من بضع ورقات. كان إحساسًا غريبًا، كأن ما يحمله بين يديه ليس جلدًا وحبرًا، بل سنوات طويلة من الانتظار انتهت عند بابه. حاول أن يسأل الشيخ عن اسمه، لكنه فوجئ بأن الرجل قد استدار وغادر في هدوء، وسار بين أشجار الزيتون حتى ابتلعه الغروب، فلم يبق منه سوى أثر خطوات سرعان ما محته الريح.

عاد آصف إلى داره، لكن قلبه لم يعد كما كان قبل ساعات. جلس قرب المصباح الزيتي، ينتظر أن ينام أهل البيت، بينما كانت عيناه لا تفارقان اللفافة الموضوعة أمامه على المنضدة. وكلما امتدت يده ليفتحها، تراجع كأن خوفًا خفيًا يمنعه من ذلك. كان يشعر أن اللحظة التي ستنكشف فيها كلمات تلك اللفافة ستقسم حياته إلى نصفين؛ نصف عاشه حتى هذه الليلة، ونصف آخر لا يعرف عنه شيئًا، لكنه كان واثقًا أنه لن يكون طريقًا يعود منه الإنسان كما كان.

ظل آصف جالسًا أمام المنضدة حتى عمّ السكون أرجاء الدار. انطفأت الأصوات واحدًا تلو الآخر، وسكنت حركة الناس في الأزقة، ولم يبق سوى خشخشة أغصان الزيتون وهي تتمايل مع نسيم الليل، وصوت مصباح الزيت الذي كان لهيبُه يرتجف كلما تسللت إليه نفحة هواء من النافذة الصغيرة. عندئذٍ مد يده إلى اللفافة الجلدية، وأخذ يتأملها طويلًا. كانت قديمة إلى حد يصعب معه تقدير عمرها، لكن الجلد الذي صنعت منه بدا محفوظًا بعناية، كأن صاحبه ظل يحميه من الرطوبة والنار والسنين.

حل العقدة ببطء، وانفرجت اللفافة عن رقعة من الرق الأصفر، كُتبت عليها كلمات قليلة بحبر أسود لم تبهت حروفه رغم مرور الزمن. لم يكن في الصفحة عنوان، ولا اسم كاتب، ولا تاريخ، بل عبارة واحدة، خُطت بخط ثابت، كأن صاحبها كان يعلم أن هذه الكلمات ستعيش بعده طويلًا:

"ليست الأرض لمن يملكها، بل لمن يحفظ حقيقتها."

قرأها آصف مرة، ثم أعاد قراءتها مرات متتالية، لكنه كلما أعادها شعر أنها تحمل معنى أوسع مما يظهر في ظاهرها. قلب الرقعة باحثًا عن بقية النص، فلم يجد شيئًا. لم تكن هناك إلا تلك العبارة، وفي أسفل الصفحة ختم صغير على هيئة شجرة زيتون تتوسطها دائرة، لم يرَ مثله من قبل.

وضع الرقعة فوق المنضدة، وأخذ يحدق في الختم. كان ناسخًا محترفًا، وقد رأى خلال حياته عشرات الأختام الخاصة بالتجار والقضاة والعلماء، لكن هذا الختم لم يشبه أيًّا منها. لم يكن يدل على أسرة معروفة، ولا على ديوان حكم، ولا على دار علم. كان رمزًا بسيطًا، ومع ذلك أحس أن وراءه قصة طويلة.

لم يكد يغرق في أفكاره حتى سمع طرقًا خفيفًا على الباب الخارجي. انتفض واقفًا، فقد كان الوقت متأخرًا، ولم يكن من عادة أهل القرية أن يزور أحدهم جاره بعد انتصاف الليل. تقدم بحذر، وسأل من خلف الباب:

"من الطارق؟"

جاءه الصوت نفسه الذي سمعه عند الغروب:

"افتح يا آصف... فما زال أمامنا طريق طويل."

فتح الباب، فوجد الشيخ واقفًا كما رآه أول مرة، إلا أن وجهه بدا أكثر وقارًا تحت ضوء القمر. دخل الشيخ دون أن يتلفت حوله، ثم أغلق الباب بنفسه، وألقى نظرة سريعة على أرجاء الغرفة، كأنه يتأكد أن أحدًا غيرهما لا يسمع الحديث.

قال وهو يشير إلى الرقعة الموضوعة على المنضدة: "إذن... قرأتها."

أومأ آصف برأسه وقال: "قرأتها، لكنها لم تجب عن شيء، بل زادت أسئلتي."

جلس الشيخ على مقعد خشبي قريب، ثم قال بصوت هادئ: "وهذا ما كان ينبغي لها أن تفعله. فالحقيقة التي تُمنح دفعة واحدة لا تُقدَّر قيمتها، أما الحقيقة التي يصل إليها الإنسان خطوة بعد خطوة، فإنها تصبح جزءًا منه."

اقترب آصف وجلس قبالته، وقال: "أريد أن أعرف من أنتم."

ابتسم الشيخ ابتسامة خافتة، ثم أجاب: "لو أخبرتك الآن بكل شيء، لما صدقتني. ولو أخذتك لترى ما أخفيه دون أن أهيئ قلبك، لظننت أنك تحلم. لذلك سأبدأ من السؤال الذي سبق كل الأسئلة."

صمت لحظة، ثم تابع: "هل تعلم لماذا تضيع الأمم؟" أجاب آصف بعد تفكير: "لأنها تُهزم في الحروب."

هز الشيخ رأسه نافيًا وقال: "الحروب تهزم الجيوش، لكنها لا تهزم الأمم. قد تخسر أمة معركة ثم تنهض بعدها بسنوات. وقد تسقط مدينة ثم تُبنى من جديد. أما حين تُسرق ذاكرة الناس، ويُنسون من كانوا، وكيف عاش آباؤهم، ولماذا مات أجدادهم... عندها تبدأ الهزيمة الحقيقية."

كانت الكلمات تنساب في الغرفة ببطء، لكن وقعها في قلب آصف كان كوقع المطر على أرض عطشى. شعر أن الشيخ لا يحدثه عن الماضي وحده، بل عن مستقبل قد يأتي يومًا إلى هذه البلاد.

نهض الشيخ، واتجه إلى النافذة المطلة على الحقول. كان القمر قد ارتفع عاليًا، يغمر أشجار الزيتون بضوء فضي هادئ. ظل ينظر إلى الخارج، ثم قال من غير أن يلتفت:

"سيأتي زمان يختلف فيه الناس حول ما جرى في هذه الأرض. سيكتب كل فريق روايته، وسيحاول كل منتصر أن يجعلها الحقيقة الوحيدة. وحينها، لن يكون أثمن ما نملكه سيفًا، ولا ذهبًا، ولا قصرًا، بل شهادة صادقة كتبها رجل لم يبع ضميره."

استدار ببطء، وأخرج من داخل عباءته مفتاحًا صغيرًا من البرونز، أسود من أثر الزمن. كان بسيط الشكل، لكنه صُنع بإتقان لافت، وعلى رأسه النقش نفسه الذي رآه آصف على الرقعة: شجرة زيتون تتوسطها دائرة.

وضع الشيخ المفتاح فوق المنضدة وقال: "غدًا، قبل أن تشرق الشمس، سترافقني إلى مكان لم تطأه قدمك من قبل. هناك ستعرف لماذا حملت هذا المفتاح أربعين عامًا، ولماذا آن أوان أن أبحث عمن يحمل الأمانة من بعدي."

لم يمد آصف يده إلى المفتاح، واكتفى بالنظر إليه طويلًا. كان يشعر أن ذلك المعدن الصغير لا يفتح بابًا عاديًا، بل يفتح بابًا إلى حياة أخرى، حياة لن يكون فيها مجرد ناسخ ينسخ كلمات الآخرين، بل شاهدًا على تاريخ لن يجرؤ كثيرون على روايته كما كان.

لم ينم آصف إلا قليلًا تلك الليلة. كلما أغمض عينيه عاد بصره إلى ذلك المفتاح البرونزي الراقد فوق المنضدة، وإلى الختم المنقوش عليه، وإلى كلمات الشيخ التي ظلت تتردد في ذهنه حتى اختلطت بصوت الريح وهي تعبر بين أشجار الزيتون. وحين أذن الفجر، كان قد نهض قبل أن يستيقظ أهل الدار، توضأ، وصلى، ثم خرج بهدوء، تاركًا وراءه البيت الذي عاش فيه أعوامًا طويلة، دون أن يدري أن خروجه هذه المرة لن يكون ككل مرة.

كان الشيخ ينتظره عند أطراف القرية، وقد امتطى دابة رمادية اللون بدت عليها آثار السفر الطويل. لم يتبادلا سوى التحية، ثم سارا في طريق ضيق يلتف بين التلال الصخرية، مبتعدين شيئًا فشيئًا عن البيوت والحقول المأهولة. ومع ارتفاع الشمس، أخذت الأرض تتغير من حولهما؛ اختفت المزارع، وقلّت الأشجار، وحلّت محلها مرتفعات تتخللها كهوف صغيرة وشقوق حفرتها السيول عبر مئات السنين.

ظل الطريق يمتد أمامهما ساعات طويلة، حتى وصلا قبيل الظهيرة إلى وادٍ ضيق لا يكاد يُرى من بعيد. كانت صخوره العالية تحجب عنه الرياح، وتنمو عند أطرافه أشجار سرو عتيقة، حتى بدا المكان معزولًا عن العالم كله. نزل الشيخ عن دابته، وأشار إلى آصف أن يفعل مثله، ثم تقدّم نحو جدار صخري لا يختلف في ظاهره عن بقية الصخور المحيطة به.

توقف أمامه، ومد يده يزيح أغصان شجيرة يابسة كانت تغطي جزءًا من الجدار، فانكشف تجويف صغير يكاد لا يُرى. أخرج المفتاح البرونزي، وأدخله في ثقب دقيق داخل الصخر، ثم أدارَه ببطء. لم يسمع آصف صوت قفل، بل سمع احتكاك حجر بحجر، ثم أخذ جزء من الجدار يتحرك ببطء شديد، حتى ظهر خلفه ممر ضيق يغوص في باطن الأرض.

وقف آصف مشدوهًا، وعجز عن التفوه بكلمة. لم يكن يتوقع أن يرى بابًا مخفيًا في قلب الصخر، ولم يكن يدرك كيف ظل هذا المكان مجهولًا طوال تلك السنين.

قال الشيخ وهو يلتقط مصباحًا زيتيًا كان مخبأً في فجوة قريبة: "كل ما سترى بعد هذه اللحظة يجب أن يبقى أمانة في عنقك، فإن أفشيته هلكت أنت، وضاعت معه ذاكرة لا تقدر بثمن."

أومأ آصف برأسه، ثم تبع الشيخ داخل الممر. كان الهواء في الداخل باردًا، تفوح منه رائحة الحجر والرطوبة، بينما كانت درجات منحوتة في الصخر تقودهما إلى عمق الوادي. وبعد مسافة ليست بالطويلة، انفتح الممر على قاعة واسعة، ارتفع سقفها على أعمدة طبيعية نحتتها المياه عبر القرون.

توقف آصف وقد اتسعت عيناه دهشة. لم تكن القاعة كهفًا مهجورًا كما تصور، بل بدت كأنها مكتبة خفية أعدها قوم يعرفون قيمة ما يحفظونه. امتدت على جانبيها خزائن خشبية صُنعت من أخشاب قوية قاومت الزمن، ورُتبت فوقها عشرات الصناديق المغلقة، وكل صندوق يحمل ختمًا مختلفًا، وتاريخًا كُتب بخط صغير، واسم مدينة.

اقترب آصف من أحدها، فقرأ: "***القدس.***"

وعلى آخر: "***الخليل.***"

وثالث يحمل اسم "***غزة.***"

ورابع كتب عليه: "***أريحا.***"

لم يكن يفهم بعد معنى هذا الترتيب، لكنه أدرك أن هذه الصناديق لم توضع هنا عبثًا.

لاحظ الشيخ نظراته، فقال: "هذه ليست كنوزًا كما يتخيل الناس. لو فتحتها فلن تجد ذهبًا ولا جواهر، بل ستجد ما هو أثمن عند من يعرف قيمة الزمن."

ثم تقدم نحو صندوق صغير، وأزاح غطاءه بحذر. لم يكن بداخله سوى مجلد جلدي سميك، التف حوله شريط من الكتان، وقد كُتب على غلافه بخط واضح: "مجلد الأرض المباركة."

مد الشيخ يده فوق الغلاف دون أن يفتحه، وكأن بينه وبينه عهدًا قديمًا، ثم قال بصوت خافت امتزج فيه الوقار بالحزن:

"ليس هذا أول المجلدات... ولن يكون آخرها. في كل عصر يُكتب مجلد جديد، يشهد على ما عاشه الناس، ويحفظ أسماء الذين حاول الزمن أن يمحوهم. فإذا اضطربت البلاد، وانتقلت الحروب من مدينة إلى مدينة، انتقلت هذه المجلدات معها، لأن الحجر قد يُهدم، أما الذاكرة فلا يجوز أن تقع في يد من يريد تزويرها."

ساد صمت طويل، لم يقطعه إلا صوت قطرات الماء المتساقطة من سقف الكهف. شعر آصف أن قلبه يخفق بعنف، وأن حياته السابقة بدأت تبتعد عنه شيئًا فشيئًا، كأنها تنتمي إلى رجل آخر. عندها التفت الشيخ إليه، ونظر في عينيه نظرة لم ينسها آصف ما بقي من عمره، ثم قال:

"اليوم سترى المجلدات... أما غدًا، فستقابل الرجال الذين أقسموا أن يموتوا قبل أن يسمحوا لهذه الذاكرة أن تضيع. ذلك هو مجلس أمناء الذاكرة... وهناك، سيُحسم إن كنت أهلًا لأن تصبح واحدًا منهم، أم أن طريقك سينتهي عند هذا الباب."

لم يكد الشيخ يتم كلماته حتى أعاد إغلاق المجلد بعناية، ثم لف الشريط الكتاني حوله كما كان، وأعاده إلى موضعه بين بقية المجلدات. لم يكن في حركته تردد أو ارتباك، بل احترام يشبه احترام المؤمن لكتاب مقدس يحمل بين صفحاته أمانة لا يحق لأحد أن يعبث بها. ظل آصف يتابع المشهد في صمت، وقد بدأ يدرك أن قيمة هذه المجلدات لا تكمن في الجلد الذي يحيط بها ولا في الحبر الذي كُتبت به، بل في الأرواح التي حفظت كلماتها جيلاً بعد جيل، ودفع أصحابها أثمانًا باهظة حتى لا تضيع.

أشار الشيخ إلى أحد المقاعد الحجرية المنحوتة في جانب القاعة، وقال: «اجلس، فما نحن مقبلون عليه يحتاج إلى قلب هادئ أكثر مما يحتاج إلى عقل سريع.» جلس آصف وهو يطيل النظر إلى الخزائن الممتدة أمامه، ثم سأل بصوت خافت: «هل كتب هذه المجلدات رجل واحد؟»

ابتسم الشيخ وهز رأسه نافيًا. «لو عاش رجل ألف عام لما استطاع أن يكتب ما فيها. كل مجلد خطته أيدٍ كثيرة، وكل صفحة تحمل شهادة رجل أو امرأة عاشا الأحداث بأعينهما. نحن لا نكتب ما سمعناه، بل ما رأيناه، ولا نضيف إلى الحقيقة شيئًا، ولا ننقص منها شيئًا، لأن الكلمة التي تُزاد اليوم قد تتحول بعد مائة عام إلى حقيقة يصدقها الناس.»

توقف قليلًا، ثم أضاف وهو يمرر يده على غلاف أحد المجلدات: «لقد ضاعت أمم لأن رجالها كذبوا على أبنائهم، ونحن أقسمنا ألا نكذب على أحد، ولو كانت الحقيقة موجعة.»

شعر آصف بقشعريرة تسري في جسده. كانت تلك الكلمات تلامس شيئًا عميقًا في نفسه، شيئًا لم يكن يعرف اسمه، لكنه أحس أنه السبب الذي جعله يترك بيته ويتبع هذا الشيخ إلى أعماق الوادي.

قطع الصمت صوت خطوات قادمة من آخر القاعة. لم تكن سريعة ولا مترددة، بل ثابتة، كأن أصحابها اعتادوا السير في هذا المكان منذ سنوات طويلة. التفت آصف نحو الصوت، فرأى ثلاثة رجال يخرجون من ممر جانبي، يلبسون ثيابًا بسيطة لا تميزهم عن عامة الناس. أحدهم كان في مقتبل العمر، والثاني تجاوز الخمسين، أما الثالث فقد انحنى ظهره من أثر السنين، غير أن عينيه بقيتا حادتين، تشعان بذكاء لم تستطع الشيخوخة أن تطفئه.

وقف الشيخ احترامًا، فوقف آصف إلى جواره على الفور.

قال الشيخ بصوت هادئ: «لقد حضر ثلاثة من الأمناء، أما الأربعة الآخرون فما زالوا في الطريق. لن يكتمل المجلس حتى يجتمع السبعة، فهكذا جرى العهد منذ أجيال.»

نظر الرجال إلى آصف طويلًا دون أن يتحدث أحد منهم، حتى خُيل إليه أنهم يقرؤون ما في قلبه قبل أن ينظروا إلى وجهه. وأخيرًا تقدم أكبرهم سنًا خطوة واحدة وقال: «أخبرنا يا بني، لماذا قبلت أن تأتي مع رجل لا تعرف اسمه إلى مكان لم تره من قبل؟»

ساد الصمت في القاعة، ولم يسمع آصف سوى خفقان قلبه. لم يكن السؤال صعبًا، لكنه شعر أن الجواب سيحدد مصيره كله. أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: «لأنني رأيت في عينيه صدقًا لم أره في غيره، ولأن الكلمات التي سلمني إياها جعلتني أدرك أن الإنسان قد يعيش عمرًا كاملًا دون أن يعرف الغاية التي خُلق لها، حتى تأتي لحظة واحدة تغير كل شيء.»

تبادل الرجال النظرات، لكن أحدًا منهم لم يعلق. تقدم الرجل الأوسط، وكان يحمل بين يديه صندوقًا صغيرًا من خشب الزيتون، وضعه على المنضدة الحجرية، ثم رفع غطاءه ببطء. لم يكن في داخله ذهب ولا جواهر، وإنما سبع خواتم متشابهة، صُنعت من الفضة، ونُقش على كل واحد منها رمز شجرة الزيتون نفسها التي رآها آصف على الرقعة والمفتاح.

قال الرجل: «هذه ليست علامة شرف، ولا وسامًا يتزين به صاحبه. من يلبس هذا الخاتم يختار حياة لا يعرفها الناس، وقد يموت قبل أن يسمع أحد باسمه.»

ثم أغلق الصندوق مرة أخرى، وأضاف بصوت امتزج فيه الحزم بالحزن: «لكن قبل أن نفكر في قبولك، عليك أن تعرف الثمن. فمن يدخل هذا العهد، لا يعود سيد حياته وحده. قد يترك بيته أشهرًا أو سنوات، وقد يفقد أحب الناس إليه، وقد يحمل سرًا لا يستطيع أن يخبر به أقرب الناس إلى قلبه. فهل تظن أنك قادر على حمل مثل هذا العبء؟»

لم يجب آصف على الفور. خفض رأسه، واستعاد في ذهنه وجه أمه، وابتسامة أبيه وهو يعمل في الحقل، والبيت الصغير الذي نشأ فيه، والمنضدة التي قضى فوقها سنوات ينسخ الكتب. لأول مرة شعر أن الطريق الذي يقف عند بدايته قد يطلب منه أن يضحي بكل ما عرفه وأحبه.

رفع رأسه ببطء، وقبل أن ينطق، دوى في أرجاء الوادي صوت يشبه ارتطام صخرة عظيمة. التفت الجميع نحو مدخل الممر، وساد صمت ثقيل. تقدم أحد الأمناء مسرعًا، ثم عاد بعد لحظات، وقد تغير لون وجهه.

قال بصوت خافت، لكنه كان واضحًا بما يكفي ليزرع القلق في القلوب:

«لقد تبع أحدهم آثار الشيخ إلى الوادي... ولسنا وحدنا بعد الآن.»

ساد القاعة صمت ثقيل، حتى إن صوت قطرات الماء المتساقطة من سقف الكهف بدا أشبه بوقع مطرقة على الصخر. لم يتحرك أحد للحظة، وكأن الكلمات التي نطق بها الأمين الأخير كانت كافية لتبدد سكينة المكان التي صمدت أعوامًا طويلة.

تقدم كبير الأمناء نحو مدخل الممر بخطوات ثابتة، ثم رفع المصباح عاليًا، محاولًا أن يخترق بنوره ظلمة الممر الطويل. لم يكن يرى شيئًا، لكن خبرته علمته أن الخطر لا يعلن عن نفسه، وأن أكثر اللحظات هدوءًا قد تكون بداية الكارثة.

التفت إلى الشيخ الذي جاء بآصف، وقال بصوت منخفض: «هل تأكدت أنك لم تُراقب؟»

انعقد حاجبا الشيخ، وأخذ يستعيد في ذاكرته الطريق الذي قطعه منذ خروجه من القرية. تذكر التلال، والوادي، ومواضع الصخور، وحتى آثار أقدام الدواب على التراب الرطب. ظل صامتًا لحظات، ثم قال: «كنت أراقب الطريق كما أفعل دائمًا، ولم أر أحدًا، لكن هذا لا يعني أن أحدًا لم يكن يراقبني من بعيد.»

اقترب الأمين الذي جاء بالخبر، وقال: «وجدت عند المدخل آثار أقدام حديثة، ليست لكما. صاحبها لم يدخل الكهف، لكنه وصل إلى الصخرة الخارجية، ثم اختفى قبل أن أخرج.»

تنفس كبير الأمناء ببطء، ثم قال: «إذن لم يُكشف المكان بعد... لكنه لم يعد بمنأى عن الشك.»

كانت تلك أول مرة يرى فيها آصف الخوف على وجوه الرجال الذين بدا قبل قليل أنهم لا يخشون شيئًا. لم يكن خوفًا على أنفسهم، بل على ما تحمله الخزائن من ذاكرة قرون طويلة. شعر أن كل مجلد في تلك القاعة أثقل من كنوز الملوك، وأن ضياع صفحة واحدة منه قد يعني ضياع قصة إنسان لن يعرفه أحد بعد اليوم.

اقترب الشيخ من آصف، ووضع يده على كتفه، ثم قال بصوت خافت: «أردت أن تدخل هذا العالم في هدوء، لكن يبدو أن الهدوء ليس من نصيب من يحمل هذه الأمانة.»

وقبل أن يجيب، سمع الجميع صوتًا آخر، لكنه لم يكن هذه المرة آتيًا من خارج الكهف، بل من أعماقه. كان صوت جرس معدني خافت، يتردد صداه بين الجدران الصخرية مرة واحدة... ثم ثانية... ثم ثالثة.

لم يتحرك أحد، غير أن وجوه الأمناء تبدلت فجأة.

همس أحدهم: «الجرس الداخلي...»

وقال آخر وقد ازداد توتره: «لا يُقرع هذا الجرس إلا إذا وصل أحد الأمناء السبعة.»

بعد لحظات، خرج من الممر المقابل رجل في منتصف العمر، تعلو ثوبه طبقة من غبار السفر، وعلى كتفه جراب جلدي طويل. كانت ملامحه متعبة، لكن عينيه بقيتا يقظتين. وما إن وقع بصره على الحاضرين حتى انحنى احترامًا، ثم قال بصوت امتزج فيه الإرهاق بالعجلة: «أعتذر عن التأخير... لكنني لم آت وحدي.»

تبادل الأمناء النظرات في صمت.

تابع الرجل حديثه وهو يضع الجراب على المنضدة الحجرية: «وصلتني قبل ثلاثة أيام أخبار من الشمال. بعض القرى تعرضت للنهب، وعدة دور للعلم أُحرقت، واختفت مخطوطات لا تُقدر بثمن. في البداية ظننتها حادثة عابرة، لكنني وجدت من يسأل عن كتاب بعينه، لا عن الذهب، ولا عن الطعام، ولا عن السلاح.»

سأله كبير الأمناء بلهجة حازمة: «أي كتاب؟»

أخرج الرجل من الجراب ورقة صغيرة، كانت أطرافها ممزقة بفعل السفر، ووضعها أمامهم. كانت تحمل عبارة قصيرة، كُتبت بخط غريب: "ابحثوا عن السِّفر الأول... فمن امتلكه، امتلك الرواية." تجمدت ملامح الأمناء جميعًا.

أما آصف، فلم يفهم معنى العبارة، لكنه أدرك من الوجوه المحيطة به أن ما يحدث ليس مجرد حادث عابر، بل بداية صراع ظل مختبئًا سنوات طويلة، وها هو يخرج إلى النور.

عندها رفع كبير الأمناء بصره إلى الرجال الستة المجتمعين حوله، وقال بلهجة لم تترك مجالًا للتردد:

«لقد بدأ الامتحان قبل أن نجتمع. ومن هذه اللحظة، لم يعد أمامنا متسع من الوقت. فإذا كان هناك من يبحث عن مجلدات الذاكرة، فعلينا أن نسبقه بخطوة، وإلا فإن أول ما سيُحرق في هذه الأرض لن يكون بيتًا ولا حقلًا... بل الحقيقة نفسها.»

لم يطل الاجتماع أكثر من ذلك. فقد أدرك الأمناء أن كثرة الكلام لا تنقذ ذاكرة، وأن الزمن الذي يضيع في النقاش قد يضيع معه شاهد أو مخطوطة أو قرية كاملة. طُويت المجلدات بعناية، وأعيد كل واحد منها إلى صندوقه، ثم أُغلقت الخزائن كما كانت، حتى بدت القاعة بعد دقائق وكأن أحدًا لم يدخلها منذ سنوات.

خرج آصف بصحبة الشيخ من الممر الحجري، وكان ضوء العصر قد بدأ يميل إلى الحمرة، فألقى على الصخور ظلالًا طويلة امتدت حتى أسفل الوادي. وما إن أُغلق الباب الحجري خلفهما حتى اختفى كل أثر للمكان، وعادت الصخرة كما كانت جزءًا من الجبل، لا تثير انتباه عابر ولا راعٍ يبحث عن شاة ضلت طريقها.

ظل آصف يسير صامتًا، حتى قال أخيرًا: «كنت أظن أنني سأجد رجالًا يحملون السلاح، فإذا بي أجد رجالًا يحملون الكتب.»

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة، وقال: «وستتعلم مع الأيام أن الكتاب قد يكون أثقل من السيف، وأن الكلمة الصادقة قد تخيف الظالم أكثر مما يخيفه جيش كامل.»

ثم توقف فجأة، وانحنى يلتقط قبضة من تراب الأرض، ووضعها في كف آصف. «أخبرني... ماذا ترى؟»

نظر آصف إلى التراب، وقال مترددًا: «لا أرى إلا ترابًا.»

أغلق الشيخ أصابع آصف على القبضة الصغيرة، ثم قال: «أما أنا فأرى عرق الفلاحين الذين حرثوا هذه الأرض، وأقدام الأطفال الذين لعبوا فوقها، ودموع الأمهات، ودماء الرجال، وبذور الزيتون التي ستصبح بعد عشرات السنين أشجارًا يستظل بها قوم لم يولدوا بعد. هذه الأرض لا تحفظ التراب فقط... إنها تحفظ الناس.»

واصلا السير حتى ظهرت القرية من بعيد، يتصاعد من بيوتها دخان المساء، ويملأ أصوات الأطفال طرقاتها الضيقة. كان كل شيء يبدو عاديًا، لكن الشيخ قال بصوت خفيض: «انظر جيدًا، فهؤلاء هم سبب وجودنا.»

كانت امرأة تجلس أمام باب بيتها تخيط ثوبًا لطفلتها، وعلى مقربة منها كان شيخ طاعن في السن يعلم حفيده كيف يشذب غصن زيتون صغير، بينما انشغل بضعة رجال بإصلاح ساقية ماء انكسرت بعد فيضان الشتاء. لم يكن أحد منهم يعلم أنه سيصبح، بعد عشرات أو مئات السنين، مجرد اسم منسي إن لم يكتب أحد قصته.

قال الشيخ: «المؤرخ سيكتب اسم الملك الذي حكم هذه البلاد، وربما يكتب اسم القائد الذي انتصر في معركة، لكنه لن يكتب عن تلك المرأة التي انتظرت زوجها سنوات، ولا عن ذلك الشيخ الذي غرس هذه الشجرة، ولا عن الطفل الذي سيكبر ليحمل قمح هذه الأرض إلى أولاده. ونحن... من أجل هؤلاء نكتب.»

في تلك اللحظة مر موكب صغير عبر الطريق الرئيسي للقرية. كان يضم تجارًا قادمين من الشمال، وقد بدت على وجوههم علامات التعب والخوف. توقفت الدواب عند البئر، واجتمع حولهم أهل القرية يسألونهم عن أخبار الطريق.

قال أحد التجار وهو يشرب جرعة ماء طويلة: «الأخبار ليست مطمئنة. سمعنا أن قريةً في الشمال أُحرقت بعد نزاع بين جيشين، وأن أهلها تفرقوا في الجبال. لم يبق فيها إلا مسجدها وبعض أشجار الزيتون.»

ساد الصمت بين الواقفين، ثم تنهد رجل مسن وقال: «كلما احترقت قرية، ظن الناس أن الحجارة وحدها هي التي احترقت، ولا يعلمون أن الحكايات تحترق معها.»

التفت الشيخ إلى آصف، ولم يقل شيئًا، فقد وجد أمامه الدليل الذي أراد أن يريه. لم تكن مهمة الحراس أن يمنعوا النار من الوصول إلى القرية، فهم لا يملكون تغيير مجرى الأحداث، لكنهم كانوا يملكون أن ينقذوا أسماء أهلها، وأن يحفظوا قصصهم، حتى إذا مر عليها الزمن، بقي من يروي أنها كانت هنا يومًا، وأن رجالًا ونساءً عاشوا فوق هذه الأرض، وضحكوا، وبكوا، وأحبوا، ثم رحلوا.

وقبل أن يغادر الشيخ ساحة القرية، قال لآصف بصوت لم يسمعه غيره: «غدًا سنسافر إلى تلك القرية المحترقة. لسنا ذاهبين لنعد القتلى، ولا لنبحث عن الغنائم، بل لننقذ ما تبقى من ذاكرتها. وهناك... ستبدأ أول صفحة تكتبها بيدك، لا ناسخًا لكلمات غيرك، بل شاهدًا على حياة أناس كاد العالم أن ينساهم.»

لم يطلع الفجر في اليوم التالي كما اعتاده أهل القرية. كانت السماء ملبدة بغيوم رمادية، والريح تهب من الشمال حاملة معها رائحة دخان خافتة، حتى قبل أن يقطع آصف والشيخ نصف الطريق. لم يكن الدخان كثيفًا، لكنه كان كافيًا ليخبر من يعرف الأرض أن نارًا كبيرة أكلت بيوتًا كثيرة قبل ساعات.

سارا بصمت، ولم يكثر الشيخ من الحديث. كان يدرك أن بعض الدروس لا تُلقَّن بالكلمات، وإنما تُرى بالعين وتُحمل في القلب. وكلما اقتربا من القرية المنكوبة، بدأت الطريق تكشف آثار ما جرى؛ عجلة مكسورة على جانب الطريق، قطعة قماش ممزقة علقت بأغصان شجرة لوز، وإناء فخاري مهشم، وآثار أقدام متشابكة تدل على أن الناس غادروا على عجل، لا يحملون إلا ما استطاعت أيديهم حمله.

وقبل أن يبلغا المدخل، توقف الشيخ فجأة وانحنى يلتقط لعبة صغيرة من الخشب، كانت على هيئة حصان نُحت بيد صانع بسيط. نفض عنها التراب، ثم وضعها في يد آصف، وقال: «احتفظ بها.»

نظر آصف إلى اللعبة متعجبًا، وقال: «ولماذا؟»

أجاب الشيخ وهو يواصل السير: «لأن صاحبها ربما لن يعود ليبحث عنها، لكن من حقه أن يبقى في ذاكرة من يأتي بعده. لا تستهن بأشياء الناس، فبعضها يروي عنهم أكثر مما ترويه الكلمات.»

دخل الاثنان القرية، فاستقبلهما صمت ثقيل. كانت البيوت الطينية قد اسودت جدرانها من أثر الحريق، وسقطت أسقف بعضها، بينما بقي بعضها الآخر واقفًا كشيخ فقد أبناءه جميعًا ولم يجد القوة ليسقط. تناثرت أواني الطعام في الأزقة، واختلط الرماد بحبوب القمح التي انسكبت من الأكياس المحترقة، أما البئر التي كانت يومًا ملتقى أهل القرية، فقد خلت إلا من دلو معلق بحبله، يتأرجح مع الريح فيصدر صوتًا حزينًا يتردد بين الجدران.

لم يكن في المكان سوى رجل مسن يجلس أمام بيت نصف محترق. كانت لحيته يغطيها غبار أبيض، وثوبه ممزقًا عند الكتف، لكنه ظل يحدق في الباب المحترق كأن أحدًا سيخرج منه بعد قليل.

اقترب الشيخ منه، وجلس إلى جواره دون أن يسأله شيئًا. وبعد صمت طويل، قال الرجل بصوت مبحوح: «عدت متأخرًا... أخذوا كل شيء.»

سأله الشيخ برفق: «هل بقي أحد؟»

أطرق الرجل برأسه، ثم قال: «بعضهم فر إلى الجبال، وبعضهم لا أعلم أين ذهب. أما زوجتي... فقد دفنتها بيدي خلف البيت قبل أن تشتد النار.»

لم يجد آصف ما يقوله. كانت هذه أول مرة يرى فيها الحزن وقد تحول إلى كلمات قليلة، خالية من الصراخ، لكنها أشد وجعًا من البكاء.

أخرج الشيخ قربة الماء وسقا الرجل، ثم سأله: «ما اسمها؟»

رفع الشيخ العجوز رأسه باستغراب، وكأن السؤال لم يخطر ببال أحد قبله، ثم قال: «خديجة بنت سالم.»

كرر الشيخ الاسم ببطء، ثم التفت إلى آصف وقال: «اكتبه.» تردد آصف لحظة، ثم أخرج رقًا صغيرًا وقلمه، وكتب:

«خديجة بنت سالم... من أهل هذه القرية... بقيت مع زوجها حتى آخر لحظة، ودُفنت في أرضها.»

نظر إليه الرجل المسن والدموع تملأ عينيه، وقال بصوت مرتجف: «أول مرة أشعر أن أحدًا لن يتركها تموت مرتين.»

لم يفهم آصف العبارة في البداية.

أما الشيخ، فقد قال بهدوء: «الموت الأول حين يفارق الإنسان الدنيا، أما الموت الثاني فيقع حين لا يبقى من يذكر اسمه.»

ظل آصف ممسكًا بالقلم، وقد شعر أن يده أصبحت أثقل مما كانت يوم كان ينسخ رسائل التجار وعقود البيع. لأول مرة أدرك أن ما يكتبه لن يقرأه أصحاب الأسماء، بل سيقرأه من سيأتي بعدهم بقرون، وأن كلمة واحدة قد تعيد إنسانًا من ظلمة النسيان إلى نور الذاكرة.

وبينما كان يطوي الرق بعناية، سمع صوتًا خافتًا يصدر من داخل أحد البيوت المنهارة.

رفع رأسه بسرعة.

تبادل هو والشيخ نظرة واحدة، ثم اندفعا نحو مصدر الصوت، دون أن يعلما أن تلك اللحظة ستغير مسار رحلتهما، وأن أول اختبار حقيقي لآصف لم يبدأ بالقلم... بل بإنقاذ حياة إنسان ما زال يتشبث بالحياة تحت أنقاض بيته.

اندفع آصف خلف الشيخ بين الحجارة المتناثرة، بينما كان الصوت يختفي ثم يعود، خافتًا كأن صاحبه يقاوم أنفاسه الأخيرة. لم يكن البيت كبيرًا، وقد انهار نصف سقفه فوق إحدى الغرف، بينما بقي النصف الآخر متماسكًا على نحو يثير الدهشة. تصاعدت رائحة الخشب المحترق والتراب الرطب،

واختلطت برائحة الدخان التي ما زالت عالقة في الجدران، حتى بدا المكان وكأن النار غادرته منذ ساعات قليلة فقط.

توقف الشيخ، وأشار إلى كومة من الأخشاب والحجارة. همس قائلًا: «الصوت يأتي من هنا.» لم ينتظر آصف أكثر، بل انحنى يرفع الحجارة بيديه، غير عابئ بما أحدثته أطرافها الحادة من جروح في كفيه. كانت كل صخرة يزيحها تكشف جزءًا جديدًا من المكان؛ قطعة من سجادة احترقت أطرافها، إناءً نحاسيًا انبعج من شدة الحرارة، ومصحفًا صغيرًا غطاه الغبار لكنه بقي سالمًا بين لوحين خشبيين سقطا فوقه وحمياه من النار. قال الشيخ وهو يلتقط المصحف برفق: «سبحان من يحفظ ما يشاء.»

لكن آصف لم يكن ينظر إلى المصحف، فقد عاد الصوت مرة أخرى، هذه المرة أوضح من قبل. دفع آخر قطعة من الخشب بكل ما أوتي من قوة، فانكشف فراغ ضيق تحت السقف المنهار. كانت هناك طفلة لا يتجاوز عمرها ثماني سنوات، تضم ركبتيها إلى صدرها، وقد غطى الغبار وجهها حتى لم يظهر منه سوى عينيها الواسعتين المملوءتين بالخوف.

تراجعت الطفلة مذعورة عندما رأت الرجلين، وظنت لوهلة أنهما من الذين أحرقوا القرية. رفع آصف يديه ببطء حتى تراهما خاليتين من السلاح، ثم قال بصوت هادئ: «لا تخافي... جئنا لنخرجك.»

لم تجب، بل ظلت تنظر إليه في صمت، حتى اقترب الشيخ وقال بلطف: «ما اسمك يا ابنتي؟»

همست بصوت بالكاد يُسمع: «مريم.»

ابتسم الشيخ ابتسامة دافئة وقال: «إذن يا مريم، تعالي إلينا. لقد انتهى كل شيء.»

لكنها لم تتحرك، بل سألت سؤالًا جعل الشيخ وآصف يتجمدان في مكانيهما: «هل رأيتم أمي؟»

خفض آصف رأسه، ولم يعرف ماذا يقول. أما الشيخ، فقد جلس على ركبتيه أمام الفتحة الضيقة وقال برفق: «سنبحث عنها يا ابنتي، ولكن يجب أن نخرجك أولًا.»

مد آصف يده إليها، وبعد لحظات من التردد، وضعت الطفلة يدها الصغيرة في يده. كانت باردة ومرتعشة، لكنه شعر في تلك اللحظة أن تلك اليد لا تطلب النجاة وحدها، بل تتشبث بآخر خيط يربطها بالحياة.

أخرجها من بين الأنقاض بحذر، وما إن وقفت على قدميها حتى التفتت إلى البيت المحترق، ثم ركضت نحو زاوية لم تصلها النار كاملة. انحنت هناك، وأخذت تحفر بيديها الصغيرتين وسط الرماد، حتى أخرجت صندوقًا خشبيًا صغيرًا اسودت أطرافه من أثر الحريق.

قال آصف متعجبًا: «ما هذا؟»

احتضنت الطفلة الصندوق إلى صدرها كما لو كان أغلى ما تملك، ثم قالت والدموع تملأ عينيها: «أبي قال لي... إذا احترق البيت، فلا تتركي هذا الصندوق.»

نظر الشيخ إلى الصندوق مليًا، لكنه لم يطلب فتحه، بل سألها: «هل تعرفين ما بداخله؟»

هزت رأسها نافية.

قالت: «لا... لكنه كان يقول إن هذا الصندوق لا يخصنا وحدنا، بل يخص من سيأتي بعدنا.»

تبادل الشيخ وآصف نظرة طويلة. لم يكن على غطاء الصندوق ختم أمناء الذاكرة، ولم يكن واحدًا من صناديق المجلدات، لكنه كان يحمل شيئًا آخر؛ أثر عائلة بسيطة أدركت أن بعض الأشياء يجب أن تُحفظ مهما كان الثمن.

مد الشيخ يده برفق وربت على رأس الطفلة، ثم قال: «احتفظي به، فهو أمانة أبيك، ولن يأخذه منك أحد.»

في تلك اللحظة، فهم آصف درسًا لم يكن في أي مجلد. أدرك أن الذاكرة لا تعيش في القاعات الحجرية وحدها، ولا في خزائن الأمناء، بل تعيش أيضًا في صندوق صغير تحمله طفلة نجت من النار، وفي لعبة خشبية سقطت من يد طفل، وفي اسم امرأة عجوز رفض زوجها أن يمحوه النسيان.

رفع بصره إلى القرية المحترقة، وشعر أن كل بيت فيها يخفي حكاية تنتظر من يكتبها. وعندها أيقن أن الطريق الذي اختاره لم يكن طريق حفظ الكتب فحسب، بل طريق حفظ البشر، لأن الكتب إنما كُتبت من أجلهم، ولأن الذاكرة، في حقيقتها، ليست ذاكرة الحجارة... بل ذاكرة القلوب التي سكنت بينها يومًا.

لم يغادروا القرية مع غروب ذلك اليوم. فقد رأى الشيخ أن الرحيل قبل دفن الموتى خيانة للأحياء، وأن الحارس الذي يكتب عن الناس يجب أن يقف بينهم في ساعة المحنة، لا أن يكتفي بتسجيل ما أصابهم ثم يمضي في طريقه.

بدأ أهل القرى المجاورة يتوافدون مع اقتراب المساء، يحملون المعاول والأغطية وأوعية الماء. لم يأتوا مدفوعين بأمر حاكم، ولا بنداء جيش، بل لأن المصيبة إذا نزلت بقرية في تلك الأرض شعر بها الجميع، وكأن النار التي أحرقت بيتًا هناك قد مست بيوتهم هم أيضًا.

وقف آصف يساعد الرجال في رفع الأخشاب المنهارة، بينما أخذت النساء يجمعن الأطفال في ساحة صغيرة بعيدة عن البيوت المحترقة. كانت مريم تجلس في طرف الساحة، تضم الصندوق الخشبي إلى صدرها، وترفض أن يفارقها لحظة واحدة، حتى عندما قدمت لها إحدى النساء رغيفًا ساخنًا وكوبًا من اللبن.

كلما رفع آصف حجرًا، ظهر تحته أثر لحياة كانت عامرة قبل ساعات؛ مسبحة من خرز الزيتون، رحى صغيرة لطحن القمح، قطعة قماش كانت فيما مضى ستارة لنافذة، ورسوم طفل خطها بالفحم على جدار داخلي قبل أن تلتهمه النار. لم يكن الدمار يقتصر على الجدران، بل كان يمحو تفاصيل الأيام البسيطة التي لا يلتفت إليها أحد إلا بعد أن تضيع.

اقترب الشيخ منه وهو يحمل رقعة من الجلد وقلمًا، وقال: «اترك المعول قليلًا.»

نظر إليه آصف متعجبًا، وقد علا الغبار ثوبه ويديه.

قال الشيخ: «هناك من يكفي لرفع الحجارة، أما من يرفع النسيان، فهم أقل عددًا.»

جلسا إلى جوار الرجل المسن الذي فقد زوجته، وبدأ الشيخ يسأله بهدوء عن أسماء أهل القرية، بيتًا بيتًا، لا عن عددهم فقط، بل عن أعمالهم، وأنسابهم، وما كانوا يعرفون به بين الناس.

قال الرجل وهو يشير إلى بيت متهدم في طرف الطريق: «هناك كان يعيش يوسف النجار. لم يكن أغنى أهل القرية، لكنه صنع أبواب معظم بيوتنا بيديه.»

ثم أشار إلى بيت آخر: «وتلك دار أمينة بنت عمران، كانت قابلة القرية، وُلد على يديها أكثر أطفالنا.»

وأشار إلى شجرة زيتون عظيمة عند مدخل القرية: «أما هذه الشجرة، فقد غرسها سالم والد خديجة يوم وُلد أول أبنائه، وكان يقول إنها ستبقى شاهدة علينا إذا غبنا.»

كتب آصف كل كلمة بعناية، لكنه لم يكتف بالأسماء هذه المرة، بل أخذ يسجل الحكايات الصغيرة التي ترافقها. لم يعد يكتب: "يوسف النجار"، بل كتب: "الرجل الذي صنع أبواب البيوت بيديه، حتى صار لكل بيت في القرية أثر من عمله." ولم يكتب: "أمينة بنت عمران"، بل كتب: "المرأة التي استقبلت الحياة في كل بيت، ثم رحلت دون أن تطلب من أحد جزاءً."

راقبه الشيخ طويلًا، ثم ابتسم لأول مرة منذ وصولهما إلى القرية.

وقال: «الآن فقط... بدأت تكتب كما ينبغي للحارس أن يكتب.»

رفع آصف رأسه وسأله: «ألهذا السبب لا تكتفون بكتابة أسماء الملوك؟»

أجاب الشيخ وهو ينظر إلى الأفق، حيث كانت الشمس توشك أن تغيب خلف التلال: «الملك سيجد دائمًا من يكتب عنه، أما هؤلاء، فإن لم نكتبهم نحن، فلن يعرفهم أحد بعد جيل أو جيلين. ومع ذلك، فهم الذين حملوا الأرض على أكتافهم، وزرعوها، وأحيوها، وصبروا عليها.»

حل المساء، وأوقد أهل القرية نارًا صغيرة في الساحة. لم تكن نار احتفال، بل نارًا تجمع حولها من بقي حيًا. جلس الرجال صامتين، بينما أخذت امرأة مسنة تروي للأطفال حكاية قديمة عن راعٍ أنقذ

قريته من الجفاف بحفر عين ماء. كان الأطفال يصغون إليها رغم الحزن الذي يحيط بهم، وكأن الحكاية تمنحهم شيئًا من الطمأنينة وسط الخراب.

نظر الشيخ إلى آصف وقال بصوت خافت: «أتدري ما الذي يحدث الآن؟» هز آصف رأسه.

قال الشيخ: «الذاكرة تُولد من جديد. قد تُحرق البيوت، لكن ما دام هناك من يروي، ومن يسمع، ومن يكتب، فإن القرية لم تمت بعد.»

وفي تلك الليلة، وبينما كان الجميع يتهيأ للنوم تحت السماء بعد أن فقدوا بيوتهم، جلس آصف إلى ضوء النار، وأخذ يكتب أول صفحاته في مجلد ذلك العصر. لم يكتب عن النار، ولا عن الخراب، بل كتب عن الناس الذين وقفوا في وجه الخراب، لأن الشيخ علمه أن الحارس لا يحفظ الكارثة وحدها، بل يحفظ أيضًا الكرامة التي بقيت بعدها، فهي التي تمنح التاريخ معناه، وتمنح الأجيال القادمة سببًا لتؤمن بأن هذه الأرض، مهما اشتدت عليها المحن، كانت دائمًا تنجب من يحرس ذاكرتها قبل أن يحرس حجارتها.

انقضت الليلة بطيئة، ولم يغمض لآصف جفن إلا قليلًا. كان كلما رفع رأسه عن الرقوق التي يكتب فيها، رأى ألسنة النار الصغيرة تتراقص في وسط الساحة، وحولها رجال أنهكهم الحزن، ونساء يخفين دموعهن حتى لا يزداد خوف الأطفال، وأطفالًا ينامون على الأرض وهم يظنون أن صباح الغد سيعيد إليهم بيوتهم كما كانت. أدرك في تلك اللحظة أن أكثر ما يؤلم الإنسان ليس احتراق الجدران، بل انكسار ذلك الشعور البسيط الذي كان يمنحه الأمان حين يعود كل مساء إلى باب بيته.

وقبل طلوع الفجر بقليل، نهض الشيخ من مكانه، وأيقظ آصف برفق، ثم قال: «تعال معي.» ابتعدا عن الساحة حتى وصلا إلى طرف القرية، حيث كانت أشجار الزيتون تمتد في صفوف طويلة، وقد اسودت أوراق بعضها من أثر الدخان، بينما بقي بعضها الآخر أخضر، كأنه يرفض الاستسلام للنار.

وقف الشيخ أمام شجرة ضخمة، ومد يده يلامس جذعها الخشن، ثم قال: «كم تظن عمر هذه الشجرة؟»

تأملها آصف طويلًا، ثم قال: «ربما مائة عام.»

ابتسم الشيخ وهز رأسه قائلًا: «بل أكثر من ذلك بكثير. حين كانت هذه الشجرة غرسة صغيرة، كان رجال كثيرون يمشون في هذه الأرض، لا يعرف الناس أسماءهم اليوم. ماتوا جميعًا، وبقيت هي. لهذا يحب أهل فلسطين الزيتون؛ لأنه يشبه ذاكرتهم. قد تنكسر أغصانه، وقد تحترق أوراقه، لكنه يعود في الربيع أكثر قوة.»

جلس الشيخ تحت الشجرة، وأخرج من جرابه رقعة قديمة مهترئة الأطراف. ناولها إلى آصف، وقال: «اقرأ.»

قرأ آصف بصوت منخفض:

«إذا أردت أن تعرف حقيقة أمة، فلا تسأل قصورها، بل اسأل قبورها، وحقولها، وآبارها، وأشجارها.»

رفع رأسه متسائلًا: «من كتب هذه الكلمات؟»

أخذ الشيخ الرقعة برفق، وأعادها إلى جرابه، ثم قال: «لا نذكر أسماء الأمناء في المجلدات إلا بعد رحيلهم، لأن الغاية ليست أن يخلد اسم الحارس، بل أن تبقى شهادة الناس خالصة من طلب المجد.»

ظل آصف صامتًا، يفكر في تلك العبارة، حتى قطعت سكون الصباح خطوات مسرعة تقترب من الحقل. كان فتى في الخامسة عشرة من عمره، يلهث من شدة التعب، وثوبه ممزق عند الركبة. وما إن وصل إليهما حتى قال وهو يحاول التقاط أنفاسه: «يا شيخ... وجدنا امرأة على الطريق المؤدي إلى الوادي. إنها مصابة، لكنها ما زالت حية.»

نهض الشيخ من مكانه دون تردد، وتبعه آصف مسرعًا. لم تكن المسافة بعيدة، لكن الطريق بدا أطول بسبب القلق الذي استولى على الجميع. وعندما وصلا، وجدا امرأة في منتصف العمر تستند إلى صخرة كبيرة، وقد أصابها جرح عميق في ذراعها، بينما كانت تحتضن كيسًا من القماش بكلتا يديها، رافضة أن تتركه رغم ضعفها.

اقترب الشيخ منها، وسقاها قليلًا من الماء، ثم قال برفق: «لا تخافي... أصبحتِ بين إخوتك.»

فتحت المرأة عينيها بصعوبة، وحدقت في وجه الشيخ لحظات، ثم همست: «ظننت... أنني لن أصل.»

أشار الشيخ إلى الكيس الذي تضمه إلى صدرها، وقال:

«ما الذي تحملينه؟»

شدت المرأة الكيس أكثر، وكأنها تخشى أن يُنتزع منها، ثم قالت بصوت متقطع: «ليس ذهبًا... ولا فضة... إنها دفاتر زوجي.»

نظر آصف إليها باستغراب.

تابعت المرأة، وقد بدأت الدموع تنساب على وجنتيها: «كان معلمًا... وكان يكتب كل ليلة أسماء الأطفال الذين تعلموا عنده، ويكتب ما يحفظونه من القرآن، وما يحلمون أن يصبحوا عليه حين يكبرون. وحين هاجموا القرية، قال لي: إن متُّ... فلا تدعي هذه الدفاتر تحترق. سيأتي يوم يريد فيه أحفادهم أن يعرفوا كيف عاش آباؤهم.»

ساد الصمت.

مد الشيخ يده إلى الكيس، لكنه لم يأخذه منها، بل وضع يده فوق يدها وقال: «لقد أوصلتِ الأمانة.»

ثم التفت إلى آصف، وقال بصوت هادئ، لكنه حمل من المعاني ما يكفي ليبقى معه طوال حياته: «أتدري الآن لماذا لا نخشى على المجلدات وحدها؟ لأن كل بيت في هذه الأرض قد يخفي مجلدًا صغيرًا لا يعرف الناس قيمته. رسالة كتبها أب لابنه... دفتر معلم... سجل ولادات... قصيدة حفظتها أم... هذه كلها أجزاء من ذاكرة فلسطين. وإذا ضاعت، فلن يستطيع أكبر المؤرخين أن يعيدها.»

شعر آصف بأن العالم الذي كان يعرفه يتسع أمامه مع كل يوم. لم تعد الذاكرة عنده رفوفًا مليئة بالرقوق، بل أصبحت وجوهًا، وأصواتًا، وأسماء، ودفاتر حملها أصحابها وهم يفرون من النار، لأنهم آمنوا أن الإنسان قد يخسر بيته، لكنه لا ينبغي أن يخسر قصته.

وبينما كانت الشمس تشرق ببطء فوق التلال، أخذ آصف الكيس بين يديه بكلتا كفيه، كما لو كان يحمل طفلًا رضيعًا. لم يكن يعلم ما الذي تخبئه تلك الدفاتر بين صفحاتها، لكنه كان يعلم يقينًا أنها منذ هذه اللحظة أصبحت جزءًا من الأمانة التي اختار أن يحملها، وأن الطريق الذي بدأه لن يقوده إلى المجد، بل إلى خدمة أسماء ربما لن يسمع بها العالم أبدًا، لكنها تستحق أن تبقى حية ما بقيت هذه الأرض تنبت الزيتون وتستقبل شمس كل صباح.

استقرت المرأة تحت ظل شجرة زيتون قريبة، بينما انشغل بعض رجال القرية بتنظيف جرحها وربطه بقطعة قماش بيضاء. أما الكيس الذي حملته طوال طريق الهرب، فقد بقي بين يدي آصف، ينظر إليه كما ينظر الإنسان إلى شيء يجهل قيمته، لكنه يشعر في أعماقه أن وراءه قصة تستحق أن تُروى. لم يكن الكيس ثقيلًا، غير أنه حمل بين خيوطه رائحة الورق القديم، ورائحة الدخان الذي التصق به أثناء الحريق، حتى بدا وكأنه خرج لتوه من قلب النار.

أشار الشيخ إلى آصف أن يجلس إلى جواره، ثم قال: «افتحه، ولكن برفق، فالورق أضعف من أن يتحمل قسوة اليد، وأقوى من أن تهزمه السنون إذا حُفظ كما ينبغي.»

حل آصف العقدة ببطء، وأخرج أول دفتر من داخله. كان غلافه من جلد بني مهترئ عند أطرافه، وعلى الصفحة الأولى كتب بخط جميل: "دفتر تلاميذ قرية عين السنديان". قلب الصفحة الأولى، فوجد أسماء الأطفال مرتبة بعناية، وإلى جانب كل اسم ملاحظات كتبها معلمهم. لم تكن علامات للنجاح أو الرسوب، بل كلمات إنسانية بسيطة.

"إلياس... يحب أن يسأل كثيرًا."

"سلمى... تحفظ الشعر بسرعة، لكنها تخجل من القراءة أمام الناس."

"يونس... يتقاسم رغيفه مع من لا يملك طعامًا."

ظل آصف يقرأ بصمت، ثم توقف فجأة عند اسم كُتب بجانبه: "مريم... تتمنى أن تتعلم الكتابة مثل أبيها."

رفع رأسه بسرعة، ونظر إلى الطفلة التي كانت تجلس غير بعيد تحتضن صندوقها الخشبي، فعرف أنها هي نفسها التي أخرجها من تحت الأنقاض. شعر بانقباض في صدره، وأدرك أن الكلمات القليلة التي كتبها المعلم عن تلاميذه كانت أصدق من صفحات طويلة في وصف شخصياتهم.

اقترب الشيخ من الدفتر، وقرأ بعض السطور، ثم قال: «انظر كيف كتب عنهم. لم يصف ثيابهم، ولا طولهم، ولا لون عيونهم، بل كتب ما يميز أرواحهم. لهذا سيعرفهم من يأتي بعد مائة عام، كأنهم عاشوا بالأمس.»

أعاد آصف الدفتر إلى مكانه بعناية، ثم أخرج دفترًا ثانيًا. كان أصغر حجمًا، وقد غطت صفحاته بقع من الماء والحبر، لكن معظم ما فيه بقي مقروءًا. حمل عنوانًا بسيطًا: ***"مواسم الزيتون."*** وفي صفحاته دوّن المعلم أحوال القرية عامًا بعد عام؛ متى نزل المطر، وكيف كان المحصول، ومن ساعد الأرامل في القطاف، ومن غرس أشجارًا جديدة بعد موسم الجفاف.

ابتسم الشيخ وهو يقلب الصفحات، وقال: «قد يظن بعض الناس أن هذا لا قيمة له، لكنه بعد قرون سيكون شاهدًا على حياة أمة. سيعرف من يقرأه كيف عاش أهل هذه الأرض، وكيف زرعوا، وكيف تعاونوا، وكيف نهضوا بعد كل محنة.»

جلس آصف يفكر طويلًا، ثم قال: «كنت أظن أن التاريخ هو أخبار الحروب والملوك.»

أجابه الشيخ وهو ينظر إلى الأفق البعيد: «الحرب قد تستغرق أيامًا، لكن حياة الناس تمتد عشرات السنين. فإذا كتبنا الحرب ونسينا الناس، فلن يبقى من الوطن إلا ساحات القتال، أما البيوت، والأعراس، والحصاد، والولادات، والضحكات، فستضيع إلى الأبد.»

وفي تلك اللحظة، اقترب الرجل المسن الذي فقد زوجته، وكان يحمل بين يديه مفتاحًا حديديًا كبيرًا، اسود لونه من أثر الدخان. مد يده إلى الشيخ وقال: «وجدته بين الأنقاض... إنه مفتاح بيتي.»

تناول الشيخ المفتاح، وأدار نظره فيه طويلًا، ثم أعاده إلى صاحبه وقال: «احتفظ به.»

قال الرجل بحزن: «ولكن البيت لم يعد موجودًا.»

ابتسم الشيخ ابتسامة امتزج فيها الألم بالأمل، وقال: «البيوت تُبنى من جديد، أما المفتاح فيشهد أن هنا كان بيت، وأن هنا عاشت أسرة، وأن أحدًا لن يستطيع أن يقول بعد مئات السنين إن هذه الأرض كانت خالية من أهلها.»

تجمد آصف في مكانه. لم يكن المفتاح يفتح بابًا بعد الآن، لكنه صار يفتح أمامه معنى جديدًا للذاكرة. فهم أن الأشياء البسيطة قد تصبح، مع مرور الزمن، أدلة على وجود شعب بأكمله.

وقبل أن تميل الشمس نحو الغروب، جمع الشيخ أهل القرية في الساحة، ولم يقف بينهم خطيبًا، ولم يلقِ موعظة طويلة، بل قال كلمات قليلة بقيت في ذاكرة آصف ما عاش:

«لا أستطيع أن أعيد إليكم بيوتكم، ولا أن أداوي كل جراحكم، لكنني أعدكم بشيء واحد. لن يضيع اسم واحد منكم ما دمنا أحياء. سيأتي يوم يحاول فيه قوم أن يقولوا إن هذه القرية لم تكن هنا، وإن أهلها لم يعيشوا فوق هذه الأرض، لكن أبناء أبنائكم سيجدون أسماءكم مكتوبة، وسيعرفون أنكم زرعتم هذه الحقول، وبنيتم هذه البيوت، وأحببتم هذه الأرض حتى آخر أنفاسكم.»

ساد صمت عميق، ثم تقدمت مريم بخطوات صغيرة، ووضعت صندوقها الخشبي أمام الشيخ، وقالت بصوت بريء: «إذا متُّ أنا أيضًا... هل ستكتب اسمي؟»

لم يجبها الشيخ مباشرة. انحنى حتى أصبح في مستواها، ثم وضع يده على رأسها وقال:

«لا يا ابنتي... لن أكتب اسمك وحده، بل سأكتب أنك كنتِ الطفلة التي خرجت من تحت الرماد وهي تحمل أمانة أبيها، لأن الشجاعة أيضًا يجب أن تحفظها الذاكرة.»

عندها ابتسمت مريم لأول مرة منذ لقائهما، بينما شعر آصف أن الصفحة التي كتبها في ذلك اليوم لم تكن مجرد بداية مجلد جديد، بل بداية حياته هو، وأن الطريق الذي اختاره سيجعله شاهدًا على حكايات لا تنتهي، ما دامت هذه الأرض تنجب رجالًا ونساءً يؤمنون بأن الحقيقة لا تموت إذا وجد من يكتبها بصدق.

انقضت ثلاثة أيام في القرية، لم يحمل فيها آصف قلمًا أكثر مما حمل معولًا. كان يساعد الرجال في إعادة رفع الجدران التي أمكن إنقاذها، ويشارك النساء في جمع ما بقي صالحًا من الطعام، ثم يعود مع حلول الليل ليجلس إلى ضوء السراج، فيدوّن أسماء من ماتوا، ومن نجوا، ومن غادروا إلى القرى المجاورة. ولم يكن الشيخ يراجعه في أسلوبه، بل في أمانته. فإذا كتب آصف خبرًا لم يشهده بعينه، قال له: «***اكتب: رُوي لنا، ولا تكتب: حدث. فالفارق بين العبارتين هو الفارق بين من ينقل الظن ومن يحمل الشهادة.***»

ومع مرور الأيام، بدأ أهل القرية يعتادون وجود الرجلين بينهم. لم يعودوا ينظرون إليهما كغريبين، بل صاروا يقصدونهما كلما تذكر أحدهم اسمًا كاد أن يسقط من الذاكرة، أو حكاية خشي أن تموت برحيل صاحبها. جاءت امرأة مسنة تحمل ثوبًا قديمًا، وقالت إن هذا الثوب نسجته أمها يوم زفافها، وإنها لا تريد أن يضيع خبره. وجاء فلاح يحمل حفنة من بذور القمح، وأخبرهم أن أباه احتفظ بها سنوات الجفاف حتى لا تنقطع زراعة الأرض. وجاء راعٍ عجوز يقود نعجة بيضاء، وقال إن هذه آخر ما بقي من قطيع أخيه الذي قُتل وهو يحاول إنقاذه من اللصوص.

كان آصف يصغي إلى الجميع، وفي البداية ظن أن هذه القصص الصغيرة ستثقل المجلد بلا فائدة، لكن الشيخ قال له ذات مساء: «بعد مائتي عام، لن يسأل أحد كم كان عدد الحجارة في هذا البيت، لكنه قد يسأل كيف عاش أهله، وماذا أحبوا، وما الذي جعلهم يصبرون. نحن لا نحفظ التراب وحده، بل نحفظ الروح التي سكنت التراب.»

وفي صباح اليوم الرابع، بينما كانت الشمس تشرق ببطء فوق سفوح التلال، دخل إلى القرية فارس يمتطي جوادًا أشهب، وقد غطى الغبار ثوبه ووجهه من طول السفر. لم يكن يحمل راية، ولا يبدو من رجال الجند، بل كان رسولًا اعتاد الناس رؤيته ينتقل بين القرى والمدن. ترجّل عن فرسه، وشرب جرعة ماء من البئر، ثم سأل بصوت مرتفع: «أين الشيخ عبد الرحيم؟»

نظر آصف إلى الشيخ باستغراب، فقد كانت تلك أول مرة يسمع فيها اسمه.

تقدم الشيخ في هدوء، فأخرج الرسول من جرابه كيسًا صغيرًا مختومًا بالشمع، وسلّمه إليه قائلًا: «هذه أمانة وصلت من الجنوب، وأوصاني حاملها ألا أسلمها إلا إلى يدك.»

أخذ الشيخ الكيس، وتأمل الختم طويلًا، فتغيرت ملامحه قليلًا. لم يفتح الرسالة أمام الناس، بل شكر الرسول، ودعاه إلى الطعام والراحة، ثم سار مبتعدًا نحو بستان الزيتون خارج القرية، وأشار إلى آصف أن يتبعه.

ولما ابتعدا عن البيوت بما يكفي، كسر الشيخ ختم الشمع، وأخرج رقعة صغيرة لم يزد ما كُتب عليها على بضعة أسطر. قرأها بصمت، ثم أعاد قراءتها مرة ثانية، وأغمض عينيه لحظة كأنما يستعيد ذكرى قديمة.

سأله آصف في قلق: «هل حدث أمر؟»

ناول الشيخ الرقعة إليه، فقرأ:

«إلى أمين الذاكرة عبد الرحيم... بلغنا أن الاضطراب يقترب من القدس، وأن القوافل تحمل أخبار نزاعات تتسع يومًا بعد يوم. اجتمع الأمناء، ورأوا أن وقت نقل المجلد الأول قد اقترب. كن على استعداد، ولا تتأخر إذا وصلك النداء الثاني.»

أعاد آصف الرقعة وهو يشعر بأن الكلمات أثقل من أي خبر سمعه من قبل.

قال بصوت خافت: «إذن المجلدات في خطر.»

أجاب الشيخ وهو يطوي الرسالة بعناية: «ليست المجلدات وحدها. إذا صدقت هذه الأخبار، فإن الناس الذين كتبنا أسماءهم خلال الأيام الماضية قد يجدون أنفسهم مرة أخرى في مواجهة الحرب.»

ظل آصف ينظر إلى حقول الزيتون الممتدة أمامه، وقد بدأ يدرك أن ما رآه في هذه القرية لم يكن حادثة استثنائية، بل صفحة من صفحات كثيرة ستعيشها هذه الأرض عبر القرون.

سار الشيخ بضع خطوات، ثم توقف عند شجرة زيتون ضخمة، ووضع كفه على جذعها كما لو كان يصافح صديقًا قديمًا.

قال دون أن يلتفت:

«يا آصف... قبل أيام كنت تظن أن مهمتنا هي كتابة ما حدث. أما الآن فقد حان الوقت لتتعلم أن الحارس لا ينتظر الكارثة حتى يكتبها، بل يسافر إليها قبل أن تبتلعها الفوضى. ففي الأيام القادمة سنغادر هذه القرية، وسنسير نحو القدس، وهناك ستبدأ رحلتك الحقيقية. وما رأيته هنا... لم يكن إلا الدرس الأول.»

رفع آصف بصره نحو المدينة البعيدة التي لم تكن تُرى إلا كخيط رمادي في الأفق، وشعر أن الطريق التي ستقوده إليها لن تكون مجرد رحلة بين القرى، بل رحلة إلى قلب تاريخ هذه الأرض، حيث ستختلط حياة الناس بأقدار الملوك، وستبدأ الذاكرة في كتابة صفحاتها الكبرى.

لم يكن الرحيل عن القرية سهلًا، رغم أن آصف لم يمض فيها سوى أيام قليلة. فقد شعر أن بينه وبين أهلها رابطة لم تصنعها القرابة، وإنما صنعتها المحنة. وقف عند مدخلها يتأمل البيوت التي بدأ أهلها يرممونها بأيديهم، ورأى الرجال يرفعون الحجارة نفسها التي سقطت قبل أيام، والنساء ينظفن الأزقة من آثار الحريق، بينما كان الأطفال يركضون بين الأنقاض وكأنهم يعلنون للحياة أن الخوف لن يكون آخر ما تتركه الحرب في قلوبهم.

اقتربت مريم منه وهي تحمل صندوقها الخشبي، وقد علقت في عنقها قطعة قماش صغيرة حفظت فيها مفتاح بيتهم المحترق. مدت يدها إليه، ثم ناولته غصن زيتون أخضر قطفته قبل لحظات.

قالت بخجل: «أبي كان يقول إن المسافر يحمل معه شيئًا من الأرض حتى لا يشعر بالغربة.»

أخذ آصف الغصن، ولم يجد كلمات تليق بالموقف. اكتفى بأن ابتسم وربت على رأسها، ثم قال: «وسأعود يومًا لأراك تقرئين وتكتبين كما كان يتمنى والدك.»

أشرقت ابتسامة صغيرة على وجه الطفلة، لكنها سرعان ما اختفت عندما عادت تنظر إلى بقايا بيتها. أدرك آصف أن بعض الجراح لا تشفيها الكلمات، وإنما يداويها الزمن وحده.

غادر هو والشيخ القرية مع أول ضوء للصباح، وسلكا الطريق القديم المؤدي إلى القدس. كان الطريق يعبر بين كروم العنب وحقول القمح، ثم يصعد تدريجيًا نحو المرتفعات. وفي كل مرحلة من الرحلة كان الشيخ يعرف أسماء الأماكن كما يعرف أسماء أبنائه؛ يشير إلى عين ماء حفرها أهل قرية منذ أجيال، وإلى شجرة بلوط احتمى تحتها المسافرون في سنوات القحط، وإلى تل صغير وقعت عنده معركة قديمة لم يبق منها إلا ذكرى يرويها الشيوخ.

قال الشيخ وهو يبطئ من سير دابته: «احفظ أسماء الأماكن يا آصف، فالأرض تتحدث بلغتها الخاصة. إذا ضاع اسم المكان، ضاع جزء من حكايته.»

أخرج آصف رقعة صغيرة، وبدأ يدون أسماء العيون والوديان والمرتفعات، ثم سأل: «أهذا السبب تضم المجلدات خرائط أيضًا؟»

أجاب الشيخ: «نعم. لأن من يريد أن يزور التاريخ يبدأ أولًا بتغيير أسماء الأمكنة. فإذا نسي الناس أسماء قراهم، صار من السهل أن ينسوا أصحابها.»

واصلا السير حتى انتصف النهار، ثم بلغا خانًا صغيرًا اعتاد المسافرون النزول فيه للراحة. كان البناء بسيطًا، تحيط به إسطبلات للدواب، وفي ساحته بئر واسعة يجتمع حولها القادمون من جهات مختلفة.

جلس التجار في حلقات يتبادلون الأخبار، بينما انشغل أصحاب القوافل بإصلاح الأحمال والاستعداد لمواصلة السفر.

اختار الشيخ مكانًا في ظل جدار حجري، وما هي إلا لحظات حتى بدأ آصف يسمع أحاديث متفرقة تتسلل إلى أذنيه.

قال أحد التجار: «وصلت قافلة من الشمال، وتقول إن الطريق لم يعد آمنًا كما كان.»

ورد آخر: «أما أنا فسمعت أن بعض القرى أغلقت أبوابها مع غروب الشمس، خوفًا من الغارات.»

وأضاف شيخ مسن كان يحتسي الماء في هدوء: «إذا اضطربت الطرق، اضطربت الأسواق، وإذا اضطربت الأسواق، جاع الفقراء أولًا.»

لم يتدخل الشيخ في الحديث، لكنه كان ينصت لكل كلمة. وبعد أن انصرف الرجال، التفت إلى آصف وقال: «تعلم أن تصغي قبل أن تتكلم. كثير من الأخبار التي ستكتبها لن تأتيك من القصور، بل من أفواه المسافرين، ومن شكاوى الفلاحين، ومن أحاديث التجار عند الآبار.»

وفي تلك اللحظة، دخل إلى الخان رجل مسن يجر خلفه حمارًا هزيلًا، وعلى ظهر الحمار حملٌ من الكتب والرقوق ملفوفة بأقمشة سميكة. أسرع إليه صاحب الخان يساعده، بينما أخذ الرجل ينفض الغبار عن كتفيه وهو يتمتم: «الحمد لله الذي بلغنا قبل أن تدركنا الفوضى.»

وقعت عين الشيخ على الأحمال، فنهض من مكانه وسار نحوه. وبعد أن تبادلا التحية، سأل الشيخ: «أأنت من أهل القدس؟»

أجاب الرجل: «بل من إحدى مدارسها. كنت أنقل هذه الكتب إلى قرية مجاورة لطلاب العلم، لكن الأخبار التي سمعتها في الطريق جعلتني أعود بها. أخشى أن تضيع إن اشتد الاضطراب.»

نظر الشيخ إلى الكتب طويلًا، ثم قال: «أحسنت. فالعلم إذا ضاع، احتاجت الأمة أجيالًا لتعويضه.»

تدخل آصف يسأل الرجل: «وهل هذه كتب نادرة؟»

ابتسم الرجل، وأجاب: «ليست كلها نادرة، ولكن بين صفحاتها هوامش كتبها علماء، وتعليقات دوّنها طلاب، وأسماء رجال نسخوا هذه الكتب قبل عشرات السنين. قد يظن الناس أن قيمة الكتاب في متنه، لكنني تعلمت أن الهامش أحيانًا يحفظ من التاريخ ما لا يحفظه الأصل.»

نظر الشيخ إلى آصف، ثم قال في هدوء: «هل تذكر ما قلته لك عن دفاتر المعلم في القرية؟»

أومأ آصف.

قال الشيخ: «وها أنت ترى الدرس نفسه يتكرر. الذاكرة ليست شيئًا واحدًا، بل نهر تتجمع فيه آلاف الجداول الصغيرة. فإذا جف جدول، نقص من النهر شيء، وإن بدا قليلًا.»

وبينما كان الحديث يدور بينهم، دوى في الخارج صوت سنابك خيل تقترب بسرعة. ساد الهدوء في ساحة الخان، والتفتت الأبصار نحو البوابة، حيث ظهر خمسة فرسان يعلو وجوههم غبار السفر. لم تبد عليهم أمارات العداء، لكن ملامحهم كانت متجهمة، وكأنهم يحملون خبرًا أثقل من الطريق الذي قطعوه.

ترجل قائدهم، وسأل بصوت واضح سمعه كل من في الخان: «أيكم قادم من جهة القدس؟»

تبادل المسافرون النظرات في صمت، بينما شعر آصف أن رحلته نحو المدينة المقدسة قد بدأت تدخل منعطفًا جديدًا، وأن الأخبار التي كان يسمعها متناثرة في الطريق بدأت تقترب شيئًا فشيئًا من أن تصبح واقعًا سيعيشه بنفسه.

ساد الخان صمت لم يدم سوى لحظات، لكنه كان كافيًا ليجعل كل من فيه يرفع رأسه نحو الفرسان الخمسة. كانت الخيول تلهث من شدة الركض، وقد غطى العرق أعناقها، بينما بدت على وجوه الرجال آثار سفر لم يتوقف إلا اضطرارًا. تقدم صاحب الخان بخطوات حذرة، ورحب بهم، ثم أشار إلى البئر قائلاً: «اسقوا دوابكم أولًا، فالطريق لا يرحم من يستعجله.»

لكن قائد الفرسان لم يتجه إلى البئر، بل أعاد سؤاله بصوت أكثر هدوءًا: «هل بينكم من جاء من القدس أو يقصدها؟»

نظر بعض المسافرين إلى بعضهم، ثم أشار أحد التجار إلى الشيخ وآصف قائلاً: «هذان الرجلان متجهان إليها.»

تقدم الفارس نحوهما، وألقى التحية، ثم جلس على مقربة منهما بعد أن نزع سيفه ووضعه إلى جانبه، في إشارة إلى أنه لا يريد خصومة. قال: «لا أحمل أمرًا من سلطان، ولا أجمع الرجال للحرب، وإنما أحمل خبرًا رأيت أن يسبقني إلى كل من يقصد المدينة.»

أطرق الشيخ برأسه وقال: «وما الخبر؟»

تنهد الفارس طويلًا قبل أن يجيب: «الطرقات المؤدية إلى القدس لم تعد كما كانت. كثرت السرقات، وظهرت جماعات تهاجم القوافل، لا طمعًا في الطعام وحده، بل بحثًا عن الكتب والسجلات وكل ما يُحمل في صناديق الخشب.»

تبادل الشيخ وآصف نظرة سريعة، لكنهما لم يعلقا.

واصل الفارس حديثه: «في البداية ظننا أنهم لصوص عاديون، ثم اكتشفنا أنهم يتركون أكياس الذهب أحيانًا، ويأخذون لفائف الورق. لم أفهم السبب، لكن الأمر يتكرر منذ أشهر.»

ساد الصمت من جديد. أما الشيخ فقد كان ينظر إلى الأرض، يرسم بطرف عصاه خطوطًا صغيرة فوق التراب، وكأن ذهنه عاد إلى الرسالة التي وصلته قبل أيام.

قال آصف بعد تردد: «وهل تعرف من يقودهم؟»

هز الفارس رأسه نافيًا. «لا أحد يعرف. يظهرون فجأة ثم يختفون في الجبال، وكأن الأرض تبتلعهم.»

لم يكن في كلام الرجل ما يثبت أنهم يبحثون عن مجلدات الذاكرة، لكن الشيخ أدرك أن الخطر بدأ يقترب أكثر مما توقع الأمناء.

بعد قليل، قام الفرسان ليستأنفوا رحلتهم، وقبل أن يغادروا التفت قائدهم إلى الشيخ وقال: «إن كنت تنصحني بشيء، فبماذا تنصح؟»

ابتسم الشيخ لأول مرة منذ وصولهم إلى الخان، وقال: «إذا حملت مالًا، فاحرسه بالسيف. وإذا حملت علمًا، فاحرسه بالأمانة، لأن اللص قد يسرق الذهب مرة، أما الكلمة إذا ضاعت فقد تضيع إلى الأبد.»

هز الفارس رأسه احترامًا، ثم امتطى جواده، وانطلقت الخيل من جديد، ولم يلبث غبارها أن اختلط بغبار الطريق حتى غابت عن الأنظار.

ظل آصف يتابعها بعينيه، ثم قال: «أكل الطرق تؤدي إلى الخوف يا شيخ؟»

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة وقال: «لا... لكنها كلها تؤدي إلى الاختبار.»

ومع اقتراب المساء، غادرا الخان وسلكا طريقًا فرعيًا يمر بين تلال صخرية، تجنبًا للطريق الرئيسي الذي تسلكه القوافل. كان الضوء البرتقالي يغمر السفوح، وتطول معه ظلال أشجار الزيتون، حتى بدا المشهد كلوحة رسمتها الطبيعة بطمأنينة تخالف الأخبار التي يحملها الناس.

وبينما كانا يصعدان أحد المرتفعات، توقف الشيخ فجأة وأشار إلى الأفق. قال: «انظر.»

رفع آصف بصره، فرأى المدينة للمرة الأولى.

بدت القدس من بعيد، تتربع فوق تلالها في وقار، تحيط بها الأسوار الحجرية، وتعلوها المباني التي انعكس عليها ضوء الغروب، فكأنها ترتدي ثوبًا من الذهب. لم تكن المدينة مجرد أبنية وأسواق، بل بدت كأنها قلب نابض للأرض كلها، يجذب إليه الطرق والقوافل والناس من كل اتجاه.

وقف آصف طويلًا لا ينطق بكلمة.

أما الشيخ فقال بصوت امتزج فيه الإعجاب بالحزن: «كم من رجل حلم أن يدخلها فاتحًا، وكم من رجل خرج منها باكيًا، وكم من أم ودعت أبناءها على أبوابها، وكم من عالم أفنى عمره بين كتبها. هذه المدينة لا تشبه غيرها يا آصف... إنها تحفظ أفراح الناس كما تحفظ أحزانهم.»

أخذ آصف نفسًا عميقًا، وهو يشعر أن الطريق التي سار فيها أيامًا لم تكن تقوده إلى مدينة فحسب، بل إلى قلب الحكاية التي سيقضي عمره في كتابتها. ولم يكن يعلم أن ما ينتظره خلف تلك الأسوار سيبدل نظرته إلى التاريخ، وإلى الإنسان، وإلى معنى أن يحمل المرء ذاكرة أمة بأكملها على كتفيه

لم يدخلا المدينة مع غروب الشمس. فقد اعتاد الشيخ أن يقف كلما ظهرت القدس أمامه، كأن بينه وبينها عهدًا يتجدد في كل زيارة. جلس على صخرة مطلة على الأسوار، وأشار إلى آصف أن يجلس إلى جواره، ثم بقي ينظر إلى المدينة طويلًا دون أن ينطق. كان الصمت هذه المرة أبلغ من أي حديث، حتى خُيِّل لآصف أن الشيخ يصغي إلى أصوات لا يسمعها سواه؛ أصوات المصلين، وحركة الأسواق، وخطوات القوافل التي دخلت المدينة وخرجت منها عبر أجيال لا يحصيها العد.

قال الشيخ أخيرًا: «حين ينظر الناس إلى القدس، يرون مدينة. أما الحارس، فيرى آلاف المدن التي سكنت فيها ثم غابت. يرى وجوه الرجال الذين عمروا أسوارها، والنساء اللواتي خبزن الخبز في أحيائها، والعلماء الذين أضاءوا لياليها بالمصابيح والكتب، والأطفال الذين ركضوا في أزقتها قبل أن يصبحوا شيوخًا ثم أسماء في المجلدات.»

ظل آصف يحدق في الأسوار العتيقة، وقد بدت له المدينة أكبر مما تخيل. لم تكن شامخة بسبب حجارتها وحدها، بل بسبب ما حملته من ذاكرة القرون. شعر أن كل حجر فيها يخفي قصة، وأن كل باب مر منه إنسان ترك وراءه أثرًا لا تراه العين، لكنه يبقى حيًا في ذاكرة المكان.

ومع انبلاج الفجر، بدأت الحركة تدب في الطرق المؤدية إلى المدينة. ظهرت القوافل تباعًا؛ تجار يحملون القماش والتوابل، فلاحون يقودون دوابهم المحملة بأكياس القمح والزيت، ورجال علم يقبض كل واحد منهم على جراب صغير يضم كتبه، كأنهم يحملون جزءًا من أرواحهم. لم تكن القدس تستيقظ على صوت الجند، بل على صوت الناس الذين جعلوا منها مدينة للحياة قبل أن تكون مدينة للتاريخ.

اقترب الشيخ وآصف من البوابة الشمالية، حيث اصطف القادمون ينتظرون الإذن بالدخول. كان الحراس يعرفون الشيخ، فألقوا عليه التحية باحترام، ثم سمحوا له بالعبور دون إبطاء. لاحظ آصف ذلك، فسأل بعد أن ابتعدا: «يبدو أنهم يعرفونك.»

ابتسم الشيخ وقال: «يعرفون رجلًا يزور المدينة كثيرًا ليجمع الكتب ويشتري الرقوق. وهذا يكفيني. خير للحارس أن يُعرف بما يفعله، لا بما يخفيه.»

ما إن دخلا القدس حتى أحاطت بهما أصوات الحياة من كل جانب. ارتفعت نداءات الباعة، واختلطت بروائح الخبز الساخن والعطور والأعشاب الطبية، بينما كانت الحوانيت تفتح أبوابها تباعًا، ويجلس الحرفيون أمام دكاكينهم، كل واحد يبدأ يومه بالدعاء قبل أن يمسك بأدوات عمله. رأى آصف حدادًا يشعل ناره، وخزافًا يرتب جراره، ووراقًا ينفض الغبار عن كتبه، وخياطًا يعلق أثوابًا جديدة أمام متجره. كانت المدينة تبدو كجسد واحد، لكل إنسان فيه وظيفة لا يستقيم بدونه.

قال الشيخ وهو يسير في أحد الأزقة الضيقة: «تذكر ما تراه جيدًا. لا تحفظ أسماء السلاطين وحدها، بل احفظ كيف كان الناس يعيشون في هذا الزمن. ربما يأتي يوم يسأل فيه حفيد عن شكل هذا السوق، أو عن رائحة هذا الخبز، أو عن الحرف التي كانت تملأ هذه الأزقة، ولن يجد الجواب إلا في صفحاتنا.»

هز آصف رأسه موافقًا، لكنه كان مأخوذًا بما يراه حوله. فقد كانت هذه أول مرة يشعر فيها أن المدينة لا تُعرف بأسوارها، بل بأهلها. كان كل وجه يحمل قصة، وكل متجر يخفي سنوات من التعب، وكل شارع يروي حكايات من مروا به قبل أن يمضي بهم الزمن.

ولم يكد ينتصف النهار حتى توقف الشيخ أمام دكان صغير يكاد يختفي بين دكاكين الوراقين. لم يكن يختلف عن غيره في ظاهره؛ رفوف خشبية، ولفائف من الرق، ومحابر مصطفة بعناية، ورجل مسن يجلس ينسخ كتابًا في هدوء. رفع الرجل رأسه عندما سمع وقع الخطوات، وما إن وقعت عيناه على الشيخ حتى أغلق الكتاب الذي بين يديه، ونهض مبتسمًا.

قال وهو يفتح ذراعيه مرحبًا: «لقد تأخرت يا عبد الرحيم.»

ابتسم الشيخ ورد عليه: «الطريق هذه المرة كان أطول مما ظننت.»

ثم التفت إلى آصف وقال: «تعال... أريدك أن تتعرف إلى رجل لا تذكره كتب التاريخ، لكنه أنقذ من الكتب ما يعجز كثير من الملوك عن حمايته.»

اقترب آصف من الرجل، فانحنى الأخير يصافحه بحرارة، ثم قال: «اسمي يوسف الوراق. أبيع الكتب للناس... وأحفظ بعضها لمن لا ينبغي أن تضيع كتبه.»

لم يفهم آصف مغزى العبارة، لكنه لمح في عيني الشيخ نظرة تؤكد أن هذا الرجل ليس مجرد بائع كتب، بل حلقة أخرى من حلقات الذاكرة الممتدة عبر العصور.

وفي تلك اللحظة، دخل شاب مسرعًا إلى الدكان، وقد بدا الاضطراب واضحًا على وجهه. توقف لاهثًا أمام يوسف، ثم قال بصوت خافت حتى لا يسمعه من في الخارج:

«لقد وصل الخبر... هناك من بدأ يسأل عن أسماء الوراقين واحدًا واحدًا.»

ساد الصمت.

أغلق يوسف باب الدكان بهدوء، وأسدلت على المكان سكينة ثقيلة، بينما أدرك آصف أن دخوله القدس لم يكن بداية رحلة في مدينة عظيمة فحسب، بل بداية مواجهة مع معركة جديدة؛ معركة لن يكون سلاحها السيوف، وإنما الكتب، والذاكرة، والحقيقة.

أغلق يوسف الوراق الباب بإحكام، ثم مضى نحو النافذة الصغيرة المطلة على الزقاق، وأزاح طرف الستارة قليلًا. ظل يراقب الخارج لحظات، ثم عاد إلى مجلسه وقد زال شيء من التوتر عن وجهه، وقال بصوت منخفض: «لا أحد يتبع ذلك الفتى... لكنه جاء خائفًا، والخوف يجعل الإنسان يرى الظلال رجالًا.»

جلس الشيخ عبد الرحيم على الحصير المفروش في زاوية الدكان، ووضع عصاه إلى جواره، ثم التفت إلى الفتى وقال: «اجلس واشرب شيئًا من الماء، ثم أخبرنا بما رأيت، لا بما سمعت.»

امتثل الفتى للأمر، وشرب جرعات متتابعة حتى هدأت أنفاسه، ثم قال: «كنت في سوق الوراقين منذ الصباح، فجاء ثلاثة رجال لا أعرفهم. لم يشتروا كتابًا، ولم يسألوا عن عالم أو فقيه، بل أخذوا يطوفون بين الدكاكين، يسألون عن أسماء النساخ والوراقين، وعن الذين يحتفظون بالمخطوطات القديمة في بيوتهم.»

تبادل يوسف والشيخ نظرة قصيرة، ثم سأله يوسف: «هل كانوا من أهل المدينة؟» هز الفتى رأسه نافيًا.

«لهجتهم غريبة، وثيابهم لا تشبه ثياب أهل القدس، لكنهم كانوا يعرفون أسماء بعض المكتبات، وكأن أحدًا دلهم عليها قبل أن يأتوا.»

ساد الصمت لحظات، ثم قال الشيخ: «إذن بدأ الأمر.»

لم يفهم آصف معنى العبارة، لكنه آثر الصمت. فقد تعلم خلال الأيام الماضية أن الشيخ لا يتعجل الشرح، وأن بعض الحقائق تحتاج إلى وقت حتى يتهيأ لها العقل.

نهض يوسف، واتجه إلى رف خشبي صغير، وأخرج مخطوطة ملفوفة بقماش أبيض. فك الرباط برفق، ثم فتح الصفحة الأولى أمام آصف.

قال: «اقرأ السطر الأول.»

انحنى آصف، وقرأ بصوت مسموع:

«من كتب كلمةً يعلم أنها كذب، فقد شارك في ظلم من سيأتي بعده.»

أغلق يوسف المخطوطة وقال: «هذا ما تعلمناه منذ صغرنا. الوراق ليس تاجر ورق، بل أمين على عقول الناس. فإذا خان قلمه، أفسد علمًا قد يبقى مئات السنين.»

ثم سار بين الرفوف، وأخذ يمرر يده على الكتب واحدًا تلو الآخر.

«انظر إلى هذه الرفوف يا بني. سيظن من يدخل الدكان أنها مجرد كتب للبيع، لكنها في الحقيقة ذاكرة رجال عاشوا قبلنا. هذا الكتاب نسخه رجل فقد بصره في آخر عمره، وكان يملي على ابنه حرفًا حرفًا حتى لا يضيع. وذلك الكتاب حمله صاحبه على ظهره أيامًا طويلة ليهرب به من نار اشتعلت في مدينته. أما هذا، فقد بقي سنوات مدفونًا داخل جدار بيت حتى لا تقع صفحاته في يد من أراد إحراقه.»

كان آصف يتنقل ببصره بين الكتب، وشعر للمرة الأولى أن كل مخطوطة تحمل حياة كاملة، لا مجرد كلمات.

وفي أثناء حديثهم، دوى في الخارج صوت مؤذن يدعو الناس إلى الصلاة. امتلأت الأزقة بالحركة، وأخذ أصحاب الدكاكين يغلقون أبوابهم مؤقتًا، بينما سار الناس في مجموعات صغيرة نحو المسجد. قال الشيخ: «هيا بنا.»

خرجوا من الدكان، وأغلق يوسف بابه خلفه، ثم انضم إليهما في الطريق. كان السوق قد تبدل تمامًا عما كان عليه قبل ساعة؛ هدأت أصوات البيع، وحلت محلها خطوات الناس المتجهين إلى الصلاة، بينما بقيت بعض الطيور تحلق فوق أسطح البيوت الحجرية.

وأثناء سيرهم، مروا برجل مسن يجلس أمام دكانه، وقد فرش فوق بساط صغير أدوات نجارة قديمة. كان يصلح بابًا خشبيًا تهشم أحد مفاصله، ويردد في هدوء آيات من القرآن.

ابتسم الشيخ وقال لآصف: «هل تعرف هذا الرجل؟» أجاب: «لا.»

قال: «اسمه إبراهيم. منذ أربعين عامًا وهو يصلح أبواب بيوت القدس. قد لا يذكره مؤرخ، لكن مئات البيوت تحمل أثر يديه. فإذا كتبت عن هذه المدينة يومًا، فلا تنس أن فيها رجلًا اسمه إبراهيم، كان يعيد للناس أبوابهم كلما كسرتها الأيام.»

ابتسم إبراهيم بعد أن سمع الشيخ يذكره، وقال مازحًا: «أما زلت تجمع حكايات الناس يا عبد الرحيم؟»

ضحك الشيخ وقال: «بل أحفظها من الضياع.»

رد الرجل وهو يعيد المطرقة إلى موضعها: «إذن اكتب عني شيئًا واحدًا... اكتب أنني كنت أحب هذه المدينة أكثر مما أحب نفسي.»

لم يجب الشيخ، لكنه نظر إلى آصف.

فهم آصف الرسالة من دون كلمة واحدة.

أخرج رقعة صغيرة من جرابه، وكتب:

«إبراهيم النجار... رجل أصلح أبواب القدس أربعين عامًا، وكان يقول: أحب هذه المدينة أكثر مما أحب نفسي.»

ثم رفع رأسه، فرأى الشيخ يبتسم في رضا، وأدرك أن الذاكرة لا تُحفظ في ساعات الخطر وحدها، بل تُحفظ أيضًا في الأيام الهادئة، لأن الأوطان لا يبنيها الملوك وحدهم، وإنما يبنيها أولئك الذين يفتحون دكاكينهم كل صباح، ويعملون في صمت، ثم يرحلون دون أن يطلبوا من التاريخ جزاءً ولا شكرًا.

غادروا السوق بعد الصلاة، وسلكوا زقاقًا ضيقًا تتعانق فوقه الأقواس الحجرية، حتى خف ضجيج الباعة شيئًا فشيئًا، وحل محله صوت المياه الجارية في ساقية صغيرة تشق الطريق بين البيوت. كانت القدس في ذلك الوقت تبدو مدينة لا تنام، لكنها تعرف كيف تبدل وجهها مع كل ساعة من النهار؛ ففي الصباح تضج بالباعة والقوافل، وعند الظهيرة تمتلئ بطلبة العلم والفقهاء، أما في المساء فتعود إلى هدوئها، فلا يبقى في الأزقة إلا وقع أقدام العائدين إلى بيوتهم، وصوت الأبواب الخشبية وهي تغلق برفق.

كان يوسف الوراق يسير أمام الشيخ وآصف، يشير بين الحين والآخر إلى بيت أو مدرسة أو مكتبة، ويذكر اسم صاحبها وما عُرف به. لم يكن يكتفي بذكر العلماء والأثرياء، بل كان يحدثهما عن الخباز

الذي يوزع ما بقي من خبزه على الفقراء عند الغروب، وعن السقاء الذي لا يأخذ أجرًا من المسافرين الغرباء في أول يوم لهم داخل المدينة، وعن الأرملة التي جعلت غرفة من بيتها مأوى لطلاب العلم القادمين من القرى البعيدة.

قال يوسف وهو يبتسم: «إذا أردت أن تعرف مدينة، فلا تبدأ بعدّ أبراجها، بل ابدأ بعدّ القلوب الطيبة فيها. فالحجارة تبني الجدران، أما الناس فهم الذين يبنون المدن.»

حفظ آصف العبارة في ذاكرته قبل أن يكتبها في رقعة صغيرة داخل جرابه، فقد بدأ يشعر أن كل كلمة يسمعها قد تصبح يومًا شاهدًا على زمن لن يبقى منه إلا ما دونه الأمناء.

ولما وصلوا إلى نهاية الزقاق، انفتح أمامهم فناء واسع تتوسطه شجرة تين عظيمة، التف حولها عدد من الصبية يجلسون على الحصر، بينما كان رجل وقور، تجاوز الستين من عمره، يقرأ عليهم من كتاب مفتوح بين يديه. لم يكن يرفع صوته، ومع ذلك كان الجميع ينصتون إليه في خشوع، حتى الطيور التي حطت على أغصان الشجرة بدت كأنها تشاركهم الإصغاء.

توقف الشيخ، ولم يشأ أن يقطع الدرس. انتظر حتى انتهى الشيخ المعلم من القراءة، ثم تقدم وسلم عليه بحرارة.

قال المعلم مبتسمًا: «مرحبًا بك يا عبد الرحيم. طال غيابك هذه المرة.»

أجابه الشيخ: «كانت لنا رحلة في القرى الشمالية.»

نظر المعلم إلى آصف، وقال: «وهل هذا تلميذك الجديد؟»

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة، ثم قال: «بل هو تلميذ الطريق قبل أن يكون تلميذي.»

ضحك المعلم، ثم دعاهم إلى الجلوس. وما إن جلسوا حتى التف الصبية حولهم في فضول، فقد كانوا يميزون وجوه الغرباء سريعًا.

أخرج المعلم لوحًا خشبيًا صغيرًا، وقال لأحد الصبية: «يا خالد، اقرأ ما كتبت اليوم.»

وقف الصبي بثبات، وقرأ بصوت واضح: «***العلم أمانة، ومن كتمه ظلم، ومن حرّفه خان.***»

هز المعلم رأسه راضيًا، ثم قال: «أحسنت.»

ظل آصف يتأمل الأطفال واحدًا واحدًا. بعضهم جاء بثوب مرقع، وبعضهم بدا من أبناء التجار الميسورين، لكنهم جميعًا جلسوا في صف واحد، لا يفرق بينهم مال ولا نسب. عندها فهم أن المدينة لا تحفظ نفسها بالسور وحده، بل بما تغرسه في عقول أبنائها.

وبعد أن انصرف الصبية، التفت المعلم إلى الشيخ وقال بصوت خافت: «وصلتني أخبار لا تعجبني.»

لم يبدُ على الشيخ أي دهشة، وكأنه كان ينتظر ذلك.

تابع المعلم: «في الأسبوع الماضي جاء رجل يطلب الاطلاع على سجلات الوقف القديمة. لم يكن باحثًا، ولا طالب علم. كانت أسئلته تدور حول أسماء العائلات، وحدود الأراضي، والوثائق التي تثبت ملكيتها.»

قطب الشيخ حاجبيه قليلًا، وقال: «وماذا فعلت؟»

ابتسم المعلم ابتسامة هادئة، وقال: «أريته ما يحق له أن يراه... أما ما يجب أن يبقى محفوظًا، فلم يعلم بوجوده أصلًا.»

ساد صمت قصير، قطعه يوسف بقوله: «إذن بدأت الوثائق تصبح هدفًا، لا الكتب وحدها.»

أجاب المعلم: «***من يريد أن يغير مستقبل الأرض، يبدأ أولًا بماضيها.***»

شعر آصف أن هذه الجملة أصابت قلبه مباشرة. فقد تذكر مفتاح البيت الذي احتفظ به الرجل العجوز، ودفاتر المعلم التي أنقذتها زوجته من النار، وأسماء أهل القرية التي كتبها بيده. أدرك أن كل ما رآه في الأيام الماضية لم يكن أحداثًا متفرقة، بل خيوطًا تنسج صورة واحدة؛ صورة أمة تدافع عن ذاكرتها كما تدافع عن أرضها.

وقبل أن يهموا بالرحيل، نهض المعلم، ودخل غرفته الصغيرة، ثم عاد يحمل لفافة قديمة ملفوفة بقماش أزرق. وضعها بين يدي الشيخ، وقال: «هذه نسخة نسخها أبي بيده قبل ثلاثين عامًا. احتفظت بها

طويلًا، لكنني أرى أن مكانها الآن معكم. قد يأتي يوم يحتاجها فيه من لم يولد بعد أكثر مما أحتاجها أنا اليوم.»

أخذ الشيخ اللفافة بكلتا يديه، وقبلها احترامًا، ثم قال: «أشهد أنك لم تحفظ كتابًا فحسب... بل حفظت عهدًا.»

خرج الثلاثة من الفناء، بينما بقي المعلم واقفًا تحت شجرة التين يراقبهم حتى غابوا في آخر الزقاق. أما آصف، فقد كان يسير وهو يشعر أن القدس تكشف له وجهًا جديدًا في كل ساعة؛ مدينة لا يحرسها الحجر وحده، بل يحرسها المعلم، والوراق، والنجار، والخباز، وكل إنسان أدرك أن حفظ الحقيقة عبادة لا تقل شأنًا عن حفظ الأرض نفسها.

حين غادروا دار المعلم، كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، وأخذت ظلال البيوت الحجرية تمتد فوق الأزقة الضيقة، حتى غدت المدينة وكأنها ترتدي ثوبًا من الضوء والسكينة. كان الناس يطوون نهارهم كما يطوي الناس صفحات كتاب؛ الخباز يخرج آخر أرغفته من التنور، والعطار يغلق صناديق الأعشاب بعد أن يملأ الأزقة بروائح الزعتر والبابونج، والحداد يطفئ نار كيره، بينما يتعالى من بعيد صوت أطفال يركضون خلف كرة صنعت من القماش القديم.

لم يكن الشيخ على عجلة من أمره، بل كان يسير ببطء، يحيي هذا، ويسأل عن ذاك، حتى بدا لآصف أن الرجل يعرف المدينة بيتًا بيتًا، لا لأن اسمه مشهور، بل لأنه عاش بين أهلها طويلًا، وشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

توقفوا عند بائع كعك عجوز يجلس إلى جوار فرن صغير. كان الرجل يخرج الأرغفة المستديرة من التنور، ثم يرش عليها السمسم وهو يبتسم لكل من يقترب منه. وما إن رأى الشيخ حتى صاح بفرح: «أهلاً بعبد الرحيم! لقد غبت حتى ظننت أن الطريق اختطفك.»

ضحك الشيخ، واشترى ثلاثة أرغفة، ثم جلسوا على مصطبة حجرية قريبة. ناول آصف رغيفًا وقال: «تعلم شيئًا يا بني... لا تستطيع أن تكتب عن مدينة وأنت لا تعرف طعامها، ولا أسواقها، ولا لهجة أهلها. من يكتب التاريخ من فوق الأبراج، يكتب نصف الحقيقة فقط.»

أخذ آصف قطعة من الكعك، ونظر إلى الناس المارين أمامه. كانت امرأة تحمل جرة ماء على رأسها، ورجل يقود ابنه الصغير من يده، وشيخ ضرير يسير مطمئنًا لأن كل من يمر بجانبه يفسح له الطريق. شعر لأول مرة أن المدينة ليست مباني وأسوارًا، بل شبكة من العلاقات الإنسانية التي تجعل الغرباء يشعرون أنهم بين أهلهم.

وبينما كانوا يتناولون طعامهم، اقترب منهم صبي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، يحمل في يده كومة من الرقوق الملفوفة. وقف أمام يوسف الوراق وقال بأدب: «سيدي... انتهيت من نسخ الصفحات التي طلبتها.»

تناول يوسف الرقوق، وبدأ يقلبها بعناية. كان الصبي يراقب وجهه في قلق، يخشى أن يكون قد أخطأ في كلمة أو أسقط حرفًا.

ابتسم يوسف أخيرًا، وربت على كتف الصبي قائلاً: «لم تخطئ إلا في موضع واحد.»

ارتبك الصبي وقال بسرعة: «أين؟ أصلحه الآن.»

أشار يوسف إلى سطر في آخر الصفحة، وقال: «كتبت كلمة "العدل"، ثم عدت فمحوتها وكتبت فوقها "الحق".»

خفض الصبي رأسه وقال: «ظننت الثانية أجمل.»

ابتسم يوسف ابتسامة هادئة، ثم قال: «ربما كانت أجمل، لكنها ليست الكلمة التي كتبها المؤلف. مهمة الناسخ ليست أن يحسن كلام غيره، بل أن يحفظه كما هو.»

كان آصف يصغي باهتمام، وقد شعر أن هذا الدرس لا يخص نسخ الكتب وحدها، بل يخص الرواية التي سيكتبها هو أيضًا. فلا يحق له أن يزين الحقيقة أو ينتقص منها، مهما بدا له أن ذلك أجمل أو أشد تأثيرًا.

نهض الشيخ بعد قليل، وقال: «حان وقت زيارة أخيرة قبل أن يحل الليل.»

سلكوا طريقًا ضيقًا ينتهي عند دار متواضعة، لا تختلف عن بيوت الحي. طرق الشيخ الباب ثلاث طرقات متباعدة، ففتحت لهم امرأة مسنة، رحبت بهم، ثم أدخلتهم إلى فناء صغير تتوسطه نافورة حجرية.

لم يكن في الدار ما يلفت النظر، سوى غرفة واحدة امتلأت برفوف خشبية تحمل عشرات السجلات الملفوفة بعناية. همس آصف: «ما هذا المكان؟»

أجابه الشيخ: «هذه دار كاتب سجلات المدينة.»

اقترب رجل وقور من إحدى الرفوف، وسلم على الشيخ، ثم قال: «وصلت في الوقت المناسب.»

سأله الشيخ: «هل انتهيت من ترتيبها؟»

أجاب الرجل: «نعم. سجلات المواليد، والوفيات، وعقود البيع، وأوقاف المدارس... كلها مرتبة كما طلبت.»

نظر آصف إلى تلك الرفوف الطويلة، ثم قال: «لم أتخيل أن مدينة واحدة تحتاج إلى كل هذه السجلات.»

ابتسم الرجل وقال: «وهذه ليست إلا سجلات أعوام قليلة. كل جيل يترك وراءه أوراقًا أكثر مما يتصور.»

تقدم الشيخ نحو أحد الرفوف، وأخرج سجلًا سميكًا، ثم فتحه أمام آصف.

كانت الصفحات مليئة بالأسماء، والتواريخ، والشهادات، وخطوط الكتبة الذين تعاقبوا على حفظها.

قال الشيخ بهدوء: «إذا احترق هذا السجل، فلن تضيع أوراق فقط، بل ستضيع أنساب، وحقوق، ووصايا، وأسماء رجال ونساء عاشوا في هذه المدينة. لهذا نقول دائمًا إن حماية الورقة قد تعني حماية حياة أمة كاملة.»

ظل آصف يقلب الصفحات ببطء، حتى توقف عند اسم كُتب قبل سنوات طويلة، ثم وجد إلى جواره عبارة صغيرة تقول: "توفي، وبقي أثره في الناس."

أعاد إغلاق السجل برفق، وشعر أن قلبه امتلأ بخشوع لم يشعر به من قبل. لم يعد ينظر إلى الورق على أنه مادة تُكتب عليها الكلمات، بل صار يراه ذاكرةً تنبض بالحياة، تنتظر من يصونها حتى لا يبتلعها النسيان.

وفي تلك اللحظة، سُمع طرق خفيف على باب الدار. نظر كاتب السجلات إلى الشيخ، ثم قال بصوت منخفض:

«إنه الموعد الذي أخبرتك عنه... لقد وصل بقية الأمناء.»

عرف آصف، دون أن يسأل، أن هذه الليلة لن تكون كسابقاتها، وأن الباب الذي سيُفتح بعد لحظات لن يقوده إلى اجتماع عادي، بل إلى الخطوة التي ستحدد إن كان سيظل مجرد شاهد على الذاكرة... أم سيصبح أحد حراسها.

لم يكن الطارق رجلًا واحدًا، بل أربعة رجال دخلوا تباعًا في هدوء، كأنهم اعتادوا أن يخفوا حضورهم عن أعين الناس. لم يرتدِ أحد منهم ثوبًا يميزه، ولم يحملوا سلاحًا ظاهرًا، بل بدا كل واحد منهم كرجل عادي أنهى عمله في السوق وعاد إلى منزله مع حلول المساء. كان أحدهم تاجرًا يعرفه أهل القدس، والثاني خطاطًا اشتهر بجمال خطه، والثالث إمامًا لمسجد صغير في أحد الأحياء، أما الرابع فكان طبيبًا يقصده الفقراء قبل الأغنياء. لم يكن يجمعهم منصب، ولا نسب، وإنما جمعهم عهد لم يعرفه إلا القليل.

أغلق كاتب السجلات الباب برفق، ثم أشعل مصباحًا ثانيًا، فامتلأت الغرفة بضوء دافئ انعكس على الرفوف المزدحمة بالدفاتر والرقوق. جلس الرجال في دائرة صغيرة، ولم يتصدر أحد المجلس، حتى الشيخ عبد الرحيم جلس بينهم كما يجلس سائر الحاضرين، فعرف آصف أن القيادة هنا ليست امتيازًا، وإنما مسؤولية يتقاسمها الجميع.

نظر كبير الأمناء إلى آصف طويلًا، ثم قال بصوت وقور: «اقترب يا بني.» تقدم آصف بخطوات مترددة، حتى وقف في وسط الغرفة.

قال الرجل: «لقد سمعنا عنك من عبد الرحيم، لكننا لا نختار حارسًا اعتمادًا على شهادة رجل واحد، مهما كانت منزلته. نحن نختبر القلب قبل العقل، والأمانة قبل العلم.»

ثم ساد الصمت لحظات، قبل أن يسأله: «أخبرنا... ماذا تعلمت منذ خرجت من قريتك؟»

كان السؤال بسيطًا في ظاهره، لكنه حمل في طياته رحلة الأيام الماضية كلها.

تنفس آصف بعمق، ثم قال: «***خرجت وأنا أظن أن التاريخ يُكتب في قصور الملوك، فإذا بي أجده في بيوت الفلاحين. وظننت أن الذاكرة تعيش في الكتب، فإذا بها تعيش أيضًا في صندوق تحمله طفلة، وفي مفتاح يحتفظ به شيخ فقد بيته، وفي دفتر معلم يخشى أن تضيع أسماء تلاميذه.***

تعلمت أن الناس هم الذين يصنعون الوطن، وأن الوطن لا يموت ما دام أحد يذكر أسماءهم.»

ساد المجلس صمت عميق، ولم يقاطعه أحد.

قال أحد الأمناء، وكان الطبيب: «ولو خُيِّرت بين إنقاذ مجلد من مجلدات الذاكرة، وإنقاذ طفل لا تعرفه، ماذا تختار؟»

لم يتوقع آصف السؤال، فظل صامتًا برهة، ثم رفع رأسه وقال بثبات: «أنقذ الطفل.»

نظر بعض الأمناء إلى بعضهم، بينما ظل كبيرهم يراقب وجه آصف دون أن يظهر رأيه.

تابع آصف حديثه: «المجلدات كُتبت من أجل الناس، لا الناس من أجل المجلدات. وإذا مات الطفل، ضاعت معه صفحات لم تُكتب بعد.»

لأول مرة، ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الشيخ عبد الرحيم.

أما كبير الأمناء فقال: «هذا هو الجواب الذي انتظرناه.»

تقدم يوسف الوراق، ووضع أمام آصف مجلدًا صغيرًا مغلفًا بالجلد، ثم قال: «افتح الصفحة الأخيرة.»

فتحها آصف، فوجدها بيضاء تمامًا.

قال يوسف: «هذه الصفحة تركها صاحب المجلد الأخير فارغة.»

سأل آصف باستغراب: «ولماذا؟»

أجاب الشيخ عبد الرحيم: «***لأنه كان يقول إن كل عصر يجب أن يترك مكانًا لمن يأتي بعده، فلا أحد يكتب الحكاية كاملة.***»

مد كبير الأمناء إليه قلمًا من القصب، وقال: «اكتب أول سطر بيدك.»

شعر آصف بأن يده ترتجف. لم يكن ارتجاف خوف، بل رهبة. غمس القلم في الحبر، ثم ظل لحظات ينظر إلى الصفحة البيضاء، كأنه يخشى أن يظلمها بكلمة لا تستحق أن تبقى مئات السنين.

وأخيرًا كتب بخط واضح:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

شهدتُ قريةً أحرقتها الحرب، لكنني رأيت أهلها يعيدون بناءها بأيديهم، فعلمت أن النار قد تأكل الخشب، لكنها لا تأكل الإيمان الذي يسكن القلوب.»

رفع القلم، ونظر إلى ما كتب، ثم أعاده إلى صاحبه في هدوء.

اقترب كبير الأمناء، وقرأ السطور بصوت منخفض، ثم أغلق المجلد برفق، ووضع كفه فوق غلافه.

قال: «من اليوم، لم تعد شاهدًا يتعلم، بل أصبحت مسؤولًا عما ترى وتسمع. قد تختلف مع من حولك، وقد تحب قومًا أو تبغض آخرين، لكن حين تكتب، لا يكون لك إلا ولاء واحد... ولاء للحقيقة.»

ثم نهض الرجال جميعًا.

وقفوا في دائرة يتوسطها المجلد، ووضع كل واحد منهم يده فوق يد الآخر، بينما بقيت يد آصف في آخر الدائرة، مترددة لحظة قبل أن تستقر بينهم.

قال كبير الأمناء بصوت خاشع:

«اللهم اشهد أننا لا نبتغي من هذا العهد سلطانًا ولا مالًا ولا ذكرًا بين الناس، وإنما نبتغي أن تبقى الحقيقة حية، وأن تبقى ذاكرة هذه الأرض أمانة لا يبدلها خوف، ولا يشتريها طمع.»

ردد الحاضرون الدعاء في صوت واحد، ثم عم السكون الغرفة.

وفي تلك اللحظة، شعر آصف أن حياته القديمة قد انقضت بهدوء، دون ضجيج أو احتفال، وبدأت حياة جديدة لن يعرفها أحد من الناس. حياة سيظل فيها ناسخًا في أعين أهل المدينة، أما في أعين أولئك الرجال، فقد أصبح ابتداءً من هذه الليلة... حارسًا من حراس الذاكرة.

لم يكن في المجلس تصفيق، ولا تهنئة، ولا كلمات ثناء. فما إن انتهى الدعاء حتى عاد كل رجل إلى مكانه، وكأن شيئًا لم يحدث. أدرك آصف أن هذا العهد لا يمنح صاحبه منزلة بين الناس، بل يضاعف ما عليه من واجبات. نظر إلى الوجوه التي أحاطت به قبل قليل، فلم ير فيها فخرًا أو اعتزازًا، وإنما رأى رجالًا أثقلتهم السنين، وكأن كل واحد منهم يحمل على كتفيه زمنًا كاملًا.

قطع الشيخ عبد الرحيم الصمت، وقال: «لقد أصبح اسمك بيننا معروفًا، لكنه سيبقى مجهولًا عند الناس. ستعيش بينهم كما كنت، ناسخًا، أو معلمًا، أو تاجرًا، أو أي عمل تقتضيه الأيام. أما الحراسة، فليست مهنة يراها الناس، وإنما عهد يرافق صاحبه حتى آخر نفس.»

ثم تناول كبير الأمناء مجلدًا صغيرًا، ووضعه أمام آصف.

قال: «هذا ليس من مجلدات الذاكرة الكبرى، بل هو مجلدك الخاص. ستكتب فيه كل ما تراه بعينيك، وما تسمعه من شهود تثق بهم. وإذا انتقلت شهادة منه إلى أحد المجلدات الكبرى، بقي الأصل محفوظًا باسمك، ليعرف من يأتي بعدنا كيف وصلت الحقيقة إلينا.»

مرر آصف أصابعه على الغلاف الجلدي، وشعر أن هذا المجلد سيكون رفيقه في الطرقات، كما يرافق السيف صاحبه في ساحات القتال.

نهض يوسف الوراق، واتجه إلى رف مرتفع، ثم أنزل صندوقًا خشبيًا صغيرًا. فتحه، فأخرج منه قلمًا من القصب، وسكينًا دقيقة، ومحبرة من الفخار، وقطعة قماش بيضاء.

قال وهو يناولها لآصف: «هذه أدوات الحارس. قد تبدو بسيطة، لكنها سلاحك الحقيقي. حافظ على قلمك كما يحافظ الجندي على سيفه، ولا تكتب به إلا ما ترضى أن تلقى الله به.»

أخذ آصف الأدوات بكلتا يديه، وشعر أن ثقلها ليس في وزنها، بل في المعنى الذي تحمله.

وفي تلك اللحظة، طرق الباب طرقًا متزنًا.

فتح كاتب السجلات الباب، فإذا برجل في أواخر الأربعينيات، تعلو ثوبه آثار السفر، وعلى وجهه إرهاق واضح. دخل بعد أن ألقى السلام، ثم انحنى احترامًا للحاضرين.

قال: «أعتذر عن دخولي في هذا الوقت، لكن الأمر لا يحتمل التأخير.»

سأله كبير الأمناء: «ما الخبر يا سليمان؟»

أجاب الرجل: «وصلت اليوم قافلة من الشرق، ومعها عائلة نزحت من إحدى القرى القريبة. يقولون إن رجالًا مجهولين أحرقوا وثائق الوقف، وأخذوا سجلات الأراضي، ثم رحلوا قبل وصول أهل القرى المجاورة.»

ساد الصمت في المجلس.

لم يكن الخبر جديدًا من حيث وقوع الاعتداء، لكنه أكد أن ما سمعوه في الأيام الماضية لم يعد حوادث متفرقة، بل أصبح نمطًا يتكرر.

قال عبد الرحيم: «وهل بقي أحد من شهود ما حدث؟»

أجاب سليمان: «نعم. شيخ طاعن في السن، وابنته، وصبي صغير. وهم الآن في خان المسافرين خارج السور، يخشون العودة إلى قريتهم.»

التفت كبير الأمناء إلى آصف، وكانت تلك أول مرة يخاطبه بصفته الجديدة. قال: «هذه ستكون مهمتك الأولى.»

رفع آصف رأسه في هدوء.

تابع الرجل: «لن تذهب لتبحث عن المجرمين، فذلك شأن غيرنا. ولن تذهب لتقاتل أحدًا، فليست هذه رسالتنا. ستذهب لتجلس مع الناجين، وتسمع منهم، وتكتب شهادتهم قبل أن يفرقهم الزمن، أو ينسوا التفاصيل، أو يرحل أحدهم عن الدنيا.»

ثم أضاف بنبرة عميقة: «تذكر دائمًا أن الشهادة التي لا تُكتب في وقتها، قد تضيع إلى الأبد.»

خرج آصف من الدار بعد منتصف الليل، وكانت القدس تغرق في سكون لم يعرفه نهارها. سار في الأزقة الحجرية، والمجلد الصغير معلق في جرابه، بينما كان القمر يسكب ضوءه على الأسطح والقباب. شعر أن المدينة تبدو مختلفة هذه الليلة؛ لم تتغير حجارتها، ولم تتبدل شوارعها، لكن الذي تغير هو نظرته إليها.

توقف عند أعلى الطريق المؤدي إلى السوق، والتفت خلفه نحو الدار التي خرج منها قبل لحظات. لم يكن يدرك أن تلك الليلة ستصبح يومًا أول سطر في حياته الجديدة، وأن المهمة التي تنتظره مع طلوع الفجر لن تكون مجرد تدوين شهادة عائلة منكوبة، بل بداية سلسلة طويلة من الرحلات، سيعبر فيها القرى والمدن، ويشهد ولادة أجيال ورحيل أخرى، حتى يصبح هو نفسه، بعد سنين طويلة، واحدًا من الأسماء التي سيكتبها حارس آخر في مجلد الذاكرة.

لم يكن الفجر قد اكتمل حين خرج آصف من باب القدس الشرقي متجهًا إلى خان المسافرين. كانت المدينة لا تزال تستيقظ على مهل؛ أبواب الدكاكين مغلقة، والخبازون وحدهم أشعلوا أفرانهم، بينما ارتفع من بعيد صوت ديك يعلن بداية يوم جديد. أما الطريق خارج الأسوار، فقد بدت أكثر هدوءًا، ولم يكن يقطع سكونها إلا وقع أقدام الدواب القادمة من القرى، وأصوات المسافرين الذين قضوا ليلتهم في الخان ينتظرون أن تفتح أبواب المدينة.

كان الخان بناءً واسعًا تحيط به أشجار التين والزيتون، وفي وسط ساحته بئر عتيقة يجتمع حولها الغرباء. جلس بعضهم يتناول خبز الصباح، بينما انشغل آخرون بإصلاح أحمالهم استعدادًا لمواصلة السفر. لم يكن أحد يلتفت إلى الآخر طويلًا، فلكل مسافر همٌّ يحمله معه، ولكل وجه قصة لا يعرفها إلا الله.

ما إن دخل آصف الساحة حتى لمح الشيخ سليمان ينتظره تحت شجرة زيتون. تقدم نحوه، وبعد السلام، قال سليمان: «العائلة هناك.»

أشار بيده إلى ركن هادئ من الخان، حيث جلس شيخ تجاوز السبعين، تبدو على وجهه آثار السهر والتعب، وإلى جواره امرأة في الثلاثين من عمرها، تضم طفلًا لم يتجاوز السادسة. كان الصغير مستيقظًا، لكنه لم ينطق بكلمة، واكتفى بالنظر إلى الناس بعينين فقدتا براءة الأيام الماضية.

اقترب آصف منهم، وجلس على الأرض، لا على المقعد الحجري القريب. تذكر ما قاله له عبد الرحيم: "حين تستمع إلى الناس، اجلس حيث يجلسون، حتى لا يشعروا أنك أعلى منهم."

قال بهدوء: «السلام عليكم.»

رد الشيخ التحية، ثم سأله: «أأنت من رجال القضاء؟»

ابتسم آصف وقال: «لا.»

«أمن رجال السلطان؟»

«لا.»

نظر الشيخ إليه في حيرة.

قال آصف: «أنا رجل أكتب... وأريد أن أكتب ما جرى لكم كما حدث، لا أكثر ولا أقل.»

ظل الشيخ صامتًا لحظات، ثم قال بصوت متعب: «وهل بقي من يسمع؟»

أجاب آصف: «إذا لم يسمع أهل هذا الزمان، فسيسمع من يأتي بعدهم.»

ارتعشت شفتا الشيخ، وأطرق برأسه طويلًا، ثم بدأ يروي.

«اسم قريتنا عين الكروم. ليست كبيرة، لكنها كانت عامرة بالناس. نعيش من الزيتون والقمح، ولا شأن لنا بحروب الأمراء. قبل عشرة أيام، وصل غرباء إلى القرية. لم يطلبوا الطعام، ولم يسرقوا المواشي، بل دخلوا مباشرة إلى دار القاضي، ثم إلى مسجد القرية، وأخذوا كل ما وجدوه من سجلات ووثائق. وحين حاول بعض الرجال منعهم، اشتعل القتال، واحترقت بيوت كثيرة قبل أن ينسحبوا.»

كان آصف يكتب، لكنه لم يقاطع الرجل.

تابع الشيخ: «ظننت أن خسارتنا الكبرى هي البيوت... حتى رأيت القاضي يبكي على أوراقه أكثر مما بكى على داره.»

رفع آصف رأسه وسأله: «ولماذا؟»

أجاب الشيخ: «قال إن تلك الأوراق كانت تحفظ أسماء الناس، وحدود أراضيهم، ووصايا آبائهم، وما أوقفوه للمساجد والفقراء. ثم قال لي كلمة لم أفهمها يومها، لكنني فهمتها الآن... قال: إذا ضاعت الأوراق، سيأتي يوم يقول فيه رجل إن هذه الأرض لم تكن لأحد.»

توقفت يد آصف عن الكتابة.

كانت الجملة كالسهم الذي أصاب قلبه.

أعاد كتابة العبارة وحدها مرة ثانية في هامش الصفحة، ثم وضع تحتها خطًا رفيعًا، كأنه يخشى أن يبتلعها الزمن بين بقية السطور.

تدخلت المرأة لأول مرة منذ بداية الحديث، وقالت بصوت متهدج: «حين بدأت النار تقترب، عاد زوجي إلى البيت.»

سألها آصف: «ليأخذ شيئًا؟»

هزت رأسها.

«عاد ليخرج صندوقًا خشبيًا صغيرًا من تحت الأرض.»

شعر آصف بأن القصة تعيد إليه ذكرى مريم وصندوقها.

قالت المرأة: «ظننته يحمل مالًا، لكنه فتحه أمامي، فإذا فيه أوراق ورسائل كتبها جدي، وسجل فيه أسماء مواليد العائلة ووفياتهم منذ عشرات السنين.»

سكتت لحظة، ثم انفجرت باكية.

«خرج وهو يحمله... لكنه لم يخرج من النار.»

ساد الصمت.

حتى الطفل الصغير الذي كان يعبث بحجر في يده، توقف عن الحركة.

أغلق آصف المجلد ببطء.

لم يجد سؤالًا يليق بما سمع.

رفع بصره نحو الشيخ العجوز، وقال: «هل تتذكر اسمه؟»

نظر الشيخ إلى ابنته، ثم قال بصوت امتزج فيه الفخر بالحزن: «اسمه... عمران بن يوسف.»

فتح آصف المجلد مرة أخرى، وكتب بخط واضح:

"عمران بن يوسف... عاد إلى بيته المحترق لا لينقذ ذهبًا ولا متاعًا، بل لينقذ ذاكرة أسرته. فخرجت الأوراق، وبقي هو تحت السقف المنهار." ظل ينظر إلى السطر طويلًا، ثم أغلق المجلد.

وفي تلك اللحظة، أدرك لأول مرة أن بعض الرجال لا يخلدهم النصر في المعارك، بل يخلدهم قرار واحد اتخذوه في لحظة صدق، حين فضلوا أن يبقى تاريخ من بعدهم حيًا، ولو كان الثمن حياتهم.

ظل آصف ممسكًا بالمجلد بعد أن فرغ من الكتابة، ولم يسارع إلى إغلاقه هذه المرة. كانت عيناه معلقتين بالاسم الأخير الذي دوّنه، وكأنه يخشى أن يضيع إذا أدار الصفحة. أما الشيخ العجوز، فقد بقي ينظر إلى الأرض، وقد ارتسمت على وجهه ملامح رجل أنهكته المصائب حتى لم يعد يجد في الدموع عزاءً.

قطع الصمت صوت الطفل الصغير، إذ اقترب من جده، وجذب طرف ثوبه برفق، ثم قال:
«جدي... هل سيعود أبي إذا كتب هذا الرجل اسمه؟»

ارتجفت يد آصف، وشعر أن السؤال أثقل من كل ما سمعه منذ خرج من قريته. لم يستطع أن يجيب، فالتفت إلى الشيخ سليمان، لكنه هو الآخر ظل صامتًا.

أخيرًا، تنهد الجد، وجذب حفيده إلى صدره، وقال بصوت خافت: «لا يا بني... لن يعود.»

خفض الطفل رأسه، فواصل الشيخ كلامه وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «لكنه لن يُنسى.»

رفع الصغير بصره، ولم يفهم تمامًا معنى الكلمات، إلا أنه سكت، وأسند رأسه إلى صدر جده.

شعر آصف أن تلك اللحظة علمته ما لم تعلمه إياه مئات الرقوق. فقد أدرك أن الحارس لا يكتب ليغير الماضي، بل ليمنع النسيان من الانتصار عليه.

شكر العائلة، ثم نهض ببطء، وما إن ابتعد خطوات عنهم حتى فتح مجلده مرة أخرى، وأضاف في آخر الصفحة:

"ليست كل الشهادات تُكتب للمحاكم، فبعضها يُكتب لضمير التاريخ."

طوى المجلد، وعاد مع الشيخ سليمان نحو القدس. كان الطريق قصيرًا، لكنهما قطعا معظمه في صمت. وبين حين وآخر، كانا يلتقيان بقافلة تدخل المدينة أو بأخرى تغادرها، وكل وجه يمر أمام آصف صار يثير في نفسه سؤالًا واحدًا: كم حكاية يحمل هذا الإنسان في قلبه؟ وكم منها سيضيع إذا لم يجد من يرويها؟

ولما اقتربا من الأسوار، لاحظ آصف حركة غير مألوفة عند البوابة. كان الحراس يفتشون بعض الأحمال، بينما وقف عدد من الكتبة إلى جانب أحد المسؤولين، يقلبون لفائف من الرق ويختمونها بخاتم المدينة قبل السماح بدخولها.

قال آصف: «لم أر هذا من قبل.»

أجابه سليمان: «كلما اضطربت الأحوال، ازدادت الحاجة إلى التحقق من الوثائق. فالورقة قد تحفظ حق إنسان، وقد تُزور فتسلبه أرضه أو بيته.»

دخلا المدينة، وسارا في السوق حتى وصلا إلى دكان يوسف الوراق. كان الباب مفتوحًا، لكن صاحبه لم يكن ينسخ كتابًا كما اعتاد، بل كان يجمع عددًا من المخطوطات داخل صناديق خشبية مبطنة بالقماش.

ابتسم عندما رأى آصف، وقال: «عدت في الوقت المناسب.»

اقترب آصف وسأله: «إلى أين ستُنقل هذه الكتب؟»

أجاب يوسف وهو يربط أحد الصناديق بإحكام: «إلى مدرسة في أطراف المدينة. لا خوف عليها اليوم، لكن الحارس الحكيم لا ينتظر حتى يرى الدخان فوق السقف.»

نظر آصف إلى الكتب، ثم تذكر كلمات عبد الرحيم: "الحارس لا ينتظر الكارثة حتى يكتبها، بل يسبقها بخطوة."

وفي تلك اللحظة دخل عبد الرحيم الدكان، وقد بدت على وجهه علامات التفكير العميق. ألقى السلام، ثم جلس بصمت، وأشار إلى آصف أن يجلس إلى جواره.

أخرج آصف مجلده الصغير، ووضعه بين يدي الشيخ.

قرأ عبد الرحيم الشهادة كاملة، ولم يقاطع سطرًا واحدًا. وحين انتهى، أغلق المجلد برفق، ثم قال: «لقد كتبت ما رأيته، ولم تزد عليه شيئًا. وهذا حسن.»

ثم رفع بصره إلى آصف وأضاف: «لكن هناك أمرًا آخر يجب أن تتعلمه.»

سأله آصف: «وما هو؟»

قال الشيخ: «الحارس لا يكتب المأساة وحدها، لأنه إن فعل، ظن من يقرأ بعد قرون أن هذه الأرض لم تعرف إلا الحزن. اذهب غدًا إلى السوق، واكتب عن البنّاء الذي يعيد بناء بيت، وعن الفلاح الذي يبيع أول زيت الموسم، وعن الطفل الذي يتعلم القراءة. اكتب الحياة كما تكتب المصيبة، لأن الأمم لا تعيش بالحروب وحدها.»

ابتسم آصف لأول مرة منذ أيام، وشعر أن هذه الكلمات أعادت التوازن إلى قلبه. فقد امتلأت صفحاته الأخيرة بالنار والدموع، وكاد ينسى أن الأرض نفسها التي تشهد المآسي، تشهد أيضًا الولادات، والأعراس، والحصاد، والضحكات.

وفي تلك الليلة، وبينما كانت القدس تغفو شيئًا فشيئًا، جلس آصف إلى نافذة غرفته الصغيرة، وفتح مجلده على صفحة جديدة. نظر إلى المدينة التي يكسوها ضوء القمر، ثم كتب عنوانًا لم يكن يعلم أنه سيلازمه طوال حياته:

"لا تُحفظ الأوطان بما فقدته فقط... بل بما بقي حيًا فيها."

استيقظ آصف قبل أن تشرق الشمس بقليل. فتح نافذته الصغيرة، فاندفع هواء الصباح البارد إلى الغرفة، يحمل معه رائحة الخبز الخارج لتوه من التنور، ورائحة الحطب المشتعل في البيوت القريبة. كانت القدس تستعد ليوم جديد، لكن المدينة في تلك الساعة لم تكن تشبه ما يراه القادمون إليها بعد امتلاء الأسواق. كانت أكثر هدوءًا، وأكثر صدقًا، وكأنها تكشف وجهها الحقيقي لمن يستيقظ معها قبل الناس.

تذكر وصية الشيخ عبد الرحيم، فأخذ مجلده وخرج إلى الأزقة دون أن يقصد مكانًا بعينه. كان يريد أن يرى المدينة كما هي، لا كما يريد الناس أن يظهروها.

في أول الطريق، مر بخباز يخرج الأرغفة من التنور الحجري. كانت يداه محمرتين من حرارة النار، ومع ذلك لم يكن يبدأ البيع قبل أن يضع عدة أرغفة في سلة صغيرة، يناولها لطفل وقف ينتظره عند الباب.

سأل آصف الخباز: «لمن هذه الأرغفة؟»

ابتسم الرجل وهو ينفض الدقيق عن ثوبه، وقال: «لأرملة تسكن آخر الزقاق. منذ مات زوجها، لا أدع صباحًا يمر قبل أن يصلها خبزها.»

كتب آصف في مجلده: "في هذه المدينة، لا يُعرف الرجل بعدد أرغفته، بل بعدد الأرغفة التي يهبها لغيره."

ومضى في طريقه.

وفي ساحة صغيرة قريبة من السوق، رأى بنّاءً يعيد ترتيب حجارة بيت تهدم أحد جدرانه. لم يكن يعمل وحده، بل كان معه جيرانه، كل واحد يحمل حجرًا أو دلوًا من الطين، حتى النساء كن يناولنهم الماء ويجمعن الحجارة الصغيرة.

وقف آصف يتأمل المشهد، فقال له رجل مسن كان يجلس غير بعيد: «أتدري لمن هذا البيت؟»

أجاب: «لا.»

قال الشيخ: «لشاب فقد أباه قبل شهر، ولم يكن يملك مالًا ليصلح الجدار. فلما علم الجيران، أغلق كل واحد دكانه ساعة، وجاء ليساعده.»

نظر آصف إلى الرجال العاملين، ولم يكن أحدهم ينتظر أجرًا أو شكرًا. كانوا يعملون وهم يتبادلون الحديث والابتسام، كأنهم يبنون بيوتهم جميعًا، لا بيت رجل واحد.

دوّن في مجلده: "الجدار الذي يبنيه رجل واحد قد يسقط، أما الجدار الذي تبنيه القرية كلها، فيبقى قائمًا في القلوب قبل أن يبقى قائمًا على الأرض."

واصل سيره حتى بلغ السوق الكبير. كانت الحركة قد اشتدت، وارتفعت أصوات الباعة من كل جانب. هناك رأى فتاة صغيرة تجلس إلى جوار أمها، تبيع سلالًا صنعتها من سعف النخيل. لم تكن تنادي على الزبائن، بل كانت منهمكة في نسج سلة جديدة، وأصابعها الصغيرة تتحرك بمهارة أدهشته.

اقترب منها، وسألها مبتسمًا: «من علمك هذا؟»

رفعت رأسها وقالت بفخر: «جدتي.»

ثم أشارت إلى امرأة مسنة تجلس داخل الدكان، وأضافت: «وتقول إن أمها علمتها، وإن أم أمها كانت تصنعها أيضًا.»

ابتسم آصف.

لم يكن ما تفعله الفتاة مجرد حرفة، بل ميراثًا ينتقل من يد إلى يد، كما تنتقل الحكايات، وكما تنتقل الذاكرة نفسها.

وفي أثناء تجواله، سمع صوت تلاوة يخرج من أحد البيوت. اقترب قليلًا، فرأى شيخًا يجلس في فناء داره، يعلم خمسة أطفال القراءة. كان يصحح مخارج الحروف بصبر، ويبتسم كلما أتقن أحدهم آية أو كلمة.

وقف آصف يراقبهم من بعيد، ولم يشأ أن يقطع عليهم درسهم.

ثم كتب: "ما دام في القدس معلم يعلم طفلًا حرفًا، فلن تستطيع الأيام أن تهزمها."

وقبيل الظهر، عاد إلى دار عبد الرحيم، وقد امتلأ مجلده بأسماء لم يعرفها أحد خارج أزقة المدينة، لكن كل واحد منها كان يمثل حجرًا في بناء الذاكرة التي أقسم على حراستها.

كان الشيخ يجلس في ظل شجرة رمان داخل الدار، وبين يديه كتاب مفتوح. رفع رأسه عندما رأى آصف، ثم سأله مبتسمًا: «وماذا رأيت اليوم؟»

ناول آصف المجلد إليه.

قرأ الشيخ صفحاته ببطء، ولم يتوقف عند خبر الحرب، ولا عند أخبار الغرباء، بل توقف طويلًا عند الخباز، والبنّاء، والفتاة الصغيرة، والمعلم.

أغلق المجلد، ثم قال في هدوء: «الآن... بدأت تكتب فلسطين.»

رفع آصف رأسه في دهشة.

فأردف الشيخ: «ليست فلسطين حصارًا فقط، ولا معركة فقط، ولا مدينة تُفتح أو تُغلق أبوابها. فلسطين هي هؤلاء الناس. فإذا حفظتهم، حفظت الوطن كله، وإذا نسيتهم، فلن تنفعك ألف صفحة تكتبها عن الملوك والجيوش.»

في تلك اللحظة، شعر آصف أن القلم الذي يحمله لم يعد مجرد أداة للكتابة، بل صار عهدًا بينه وبين الأرض التي يمشي عليها؛ عهدًا بألا يترك إنسانًا صادقًا يرحل دون أن يترك أثره في صفحات الذاكرة، مهما كان بسيطًا، ومهما ظن أن حياته لا تستحق أن تُروى.

أمضى آصف بقية النهار في نسخ ما دوّنه على رقوق أكثر متانة، كما علمه عبد الرحيم. كان يراجع كل سطر مرتين، ويعيد قراءة كل اسم بصوت خافت، خشية أن يخطئ في حرف واحد. فقد أدرك أن الخطأ في اسم إنسان ليس خطأ في الكتابة فحسب، بل ظلم قد يمتد أثره إلى من يأتي بعده.

ومع اقتراب المساء، دخل يوسف الوراق الدار يحمل بين يديه لفافة طويلة من الرق، وقد علت وجهه ابتسامة هادئة.

قال وهو يضعها على المنضدة: «وصلتني اليوم نسخة جديدة من سجل أوقاف إحدى القرى. نسخها شيخ جاوز الثمانين، وأبى أن يسلمها حتى يراجعها بنفسه ثلاث مرات.»

ابتسم عبد الرحيم وقال: «بارك الله في رجل عرف أن الدقة عبادة.»

جلس الثلاثة حول المنضدة، وأخذ يوسف يفرد الرقعة ببطء. كانت الكتابة دقيقة، تتخللها هوامش صغيرة كتب فيها الناسخ ملاحظات عن بعض الأراضي والآبار وأسماء أصحابها.

أشار يوسف إلى أحد الأسطر وقال لآصف: «اقرأ.»

قرأ آصف: «الحد الشرقي لأرض آل ناصر يبدأ من عين الماء، ويمتد حتى شجرة السنديان الكبيرة.»

ثم رفع رأسه مستغربًا. قال: «ولماذا يذكر الشجرة؟»

أجابه عبد الرحيم: «لأن الشجرة شاهد مثل الإنسان. قد يختلف الناس بعد خمسين عامًا على حدود الأرض، فيأتي من يقول: كانت السنديانة هنا، وكانت العين هناك، فيعرف الناس الحق.»

ظل آصف يتأمل السطر طويلًا. ثم قال: «إذن حتى الأشجار تحفظ الذاكرة.»

ابتسم الشيخ وقال: «بل أكثر مما نظن. كم من شجرة شهدت ولادة طفل، أو عودة مسافر، أو وداع شهيد، ثم بقيت واقفة بعد أن رحل الجميع.»

وفي تلك اللحظة، سُمع طرق خفيف على الباب الخارجي.

نهض يوسف ليفتح، فعاد بعد لحظات ومعه رجل في منتصف العمر، تبدو على ثيابه آثار التراب والسفر.

قال الرجل بعد أن سلّم: «أرجو المعذرة على المجيء في هذا الوقت، لكنني لم أجد غيركم.»

دعاه عبد الرحيم إلى الجلوس، ثم سأله: «ما حاجتك؟»

أخرج الرجل من داخل عباءته لفافة صغيرة، ووضعها أمامهم.

قال: «ورثت هذه عن أبي، وورثها هو عن جدي. أوصاني ألا أبيعها، وألا أحرقها، وألا أسلمها إلا لمن يعرف قيمتها.»

فتح عبد الرحيم اللفافة بحذر. لم تكن مخطوطة كبيرة، وإنما بضع صفحات كتب فيها رجل قبل عشرات السنين يومياته. لم يذكر أخبار الملوك، ولا أسماء القادة، بل تحدث عن موسم مطير أنقذ الزرع، وعن وباء أصاب القرية، وعن رجال تعاونوا على حفر بئر جديدة بعدما جفت العين القديمة.

ظل الشيخ يقلب الصفحات في هدوء، ثم قال للرجل: «لقد حفظ أبوك أمانته.»

تنهد الرجل وقال: «كنت على وشك بيعها لأحد التجار، فقد ضاقت بنا الحال، لكنني تذكرت وصيته في الليلة الماضية، فجئت بها إليكم.»

نظر عبد الرحيم إلى آصف، ثم قال: «ماذا ترى؟»

تردد قليلًا، ثم أجاب: «أرى أن هذه الصفحات لا تخص عائلة واحدة، بل تخص قرية كاملة.»

هز الشيخ رأسه موافقًا. وقال: «ولهذا لن نأخذها منك.»

بدت الدهشة على وجه الرجل.

تابع عبد الرحيم: «سننسخها حرفًا حرفًا، ثم نعيد الأصل إليك. فالذاكرة لا تُصان بسلب الناس ما يملكون، بل بمساعدتهم على حفظه.»

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة امتنان، وكأن حملًا ثقيلًا انزاح عن صدره. وبعد أن غادر، بقي آصف صامتًا يفكر. قال أخيرًا: «كنت أظن أن الحارس يجمع كل شيء عنده.»

ابتسم عبد الرحيم وقال: «لو فعلنا ذلك، لتحولت الذاكرة إلى ملك لنا، وهي ليست كذلك. الذاكرة ملك لأهلها، ونحن مجرد أمناء عليها. نحفظ نسخة، أما الأصل، فيبقى حيث ولد، ما دام في أيدٍ أمينة.»

كانت تلك فكرة جديدة على آصف.

لقد أدرك أن الحراسة ليست امتلاكًا، وإنما ثقة. وأن أعظم ما يميز الحارس ليس كثرة ما يجمعه من الوثائق، بل حرصه على أن تبقى الذاكرة حية بين الناس، لا محبوسة خلف الأبواب.

وفي تلك الليلة، جلس وحده تحت ضوء السراج، وفتح الصفحة الأخيرة من مجلده، ثم كتب سطرًا واحدًا قبل أن يطفئ المصباح: «من يحفظ ذاكرة الناس، لا يملكها... بل يخدمها.»

مرّت الأيام التالية هادئة على غير ما توقع آصف. لم تقع معركة، ولم يصل خبر جيش يقترب من المدينة، لكن عبد الرحيم لم يكن يعد ذلك وقتًا ضائعًا، بل كان يقول: «إن أكثر ما يخدع المؤرخين أنهم يظنون أن التاريخ يصنعه يوم الحرب، بينما الحقيقة أن الحرب لا تستغرق إلا أيامًا، أما ما قبلها وما بعدها فهو عمر الناس كله.»

ولهذا، أخذ يصحب آصف كل صباح إلى حي من أحياء القدس. يومًا إلى سوق النحاسين، حيث كانت المطارق ترسم بإيقاعها موسيقى المدينة، ويومًا إلى سوق العطارين، حيث تختلط رائحة المسك بالقرفة والزعتر، ويومًا إلى أطراف المدينة، حيث تمتد البساتين وتتعالى أصوات الفلاحين وهم يجمعون ثمار الزيتون.

وفي أحد تلك الأيام، جلسا تحت شجرة زيتون عظيمة في طرف بستان يملكه رجل يدعى عثمان. كان الرجل قد تجاوز الستين، لكنه ما زال يتسلق السلالم الخشبية بنفسه ليقطف الثمار، رافضًا أن يترك العمل لأبنائه وحدهم.

ابتسم عبد الرحيم وقال له: «أما آن لك أن تستريح؟»

ضحك عثمان وهو ينزل من فوق السلم، ومسح العرق عن جبينه بطرف كمه، ثم قال: «أستريح يوم تعجز هذه الشجرة عن الإثمار.»

ربت الشيخ على جذع الزيتونة، وقال لآصف: «أتدري كم عمرها؟»

أجاب عثمان بدلًا منه: «غرسها جدي، وغرس إلى جوارها أخرى يوم وُلد أبي، ثم غرست أنا ثالثة يوم وُلد ابني الأكبر. في عائلتنا، لا نحتفل بميلاد طفل إلا بغرس زيتونة.»

نظر آصف إلى الأشجار الثلاث، وقد اختلفت أحجامها، لكنها وقفت متجاورة، كأنها تمثل ثلاثة أجيال تتحدث لغة واحدة. فتح مجلده، وكتب: "بعض العائلات تترك الذهب ميراثًا، أما أهل هذه الأرض، فيتركون الأشجار."

قرأ عبد الرحيم السطر، فاكتفى بهزة رأس تدل على رضاه.

وبعد الظهر، بينما كانا عائدين إلى المدينة، شاهدا جمعًا من الناس يقفون عند طرف الطريق. اقتربا، فإذا بقافلة وصلت لتوها من بلاد بعيدة. كانت الدواب متعبة، ووجوه الرجال مغبرة من طول السفر، لكن أكثر ما لفت انتباه آصف لم يكن القافلة نفسها، بل الطريقة التي استقبلها بها أهل القدس.

خرج السقاء يحمل قرب الماء، وأسرع الخباز يحمل سلال الخبز، وجاء بعض الصبية يساعدون في إنزال الأحمال، بينما فتحت امرأة باب دارها، ودعت المسافرات إلى الراحة حتى يلتقطن أنفاسهن.

همس آصف: «لا يعرفونهم، ومع ذلك يستقبلونهم كأنهم أهلهم.»

قال عبد الرحيم: «لأن الغريب اليوم، قد يكون صاحب الدار غدًا. هذه الأرض علمت أهلها أن الطريق يدور، وأن المسافر لا يبقى مسافرًا إلى الأبد.»

وفي تلك الليلة، جلس آصف يراجع ما كتبه خلال الأسابيع الماضية. قلّب الصفحات واحدة تلو الأخرى، فوجد أسماء الخباز، والنجار، والمعلم، والطفلة مريم، وعمران بن يوسف، وعثمان صاحب الزيتون، وغيرهم ممن لم يذكرهم أحد في مجالس الأمراء. ابتسم في هدوء، ثم قال لعبد الرحيم: «كنت أظن أنني أكتب عن أشخاص متفرقين، لكنني اكتشفت أنني أكتب عن روح واحدة.»

رفع الشيخ بصره عن الكتاب الذي بين يديه، وقال: «وأي روح؟»

أجاب آصف: «روح فلسطين.»

ساد صمت قصير، ثم نهض عبد الرحيم، واتجه إلى النافذة المطلة على القدس. كانت السماء قد امتلأت بالنجوم، بينما غفت المدينة في هدوء يشبه دعاء طويلًا. قال الشيخ بصوت خفيض:

«احفظ هذا الشعور يا آصف... لأن الأيام القادمة ستختبره اختبارًا عسيرًا. سيأتي زمن ترى فيه هذه الأرض تمتلئ بالخوف، وسيحاول كثيرون أن يقنعوك أن فلسطين ليست إلا ساحات حرب. فإذا حدث ذلك، فارجع إلى هذه الصفحات، وتذكر الخباز، والنجار، والطفلة، والزيتونة، والناس الذين كانوا يصنعون الحياة كل صباح. عندها فقط ستعرف ما الذي يجب أن تدافع عنه.»

لم يجب آصف.

أغلق مجلده ببطء، ووضع كفه فوق غلافه الجلدي، وشعر أن الصفحات التي كتبها لم تعد حبرًا على رق، بل أصبحت جزءًا من العهد الذي قطعه على نفسه يوم دخل مجلس الأمناء.

وفي الخارج، كانت أجراس القوافل ونداءات الحراس تتردد عند أسوار القدس، معلنة انقضاء يوم آخر من أيام المدينة. ولم يكن أحد من أهلها يعلم أن الزمن يطوي صفحاته بهدوء، استعدادًا لفصل جديد ستدخل فيه فلسطين مرحلة لن تبقى بعدها كما كانت، وستبدأ معها أولى الصفحات الكبرى في مجلدات حراس الذاكرة.

في صباح اليوم التالي، أيقظ عبد الرحيم آصف قبل طلوع الفجر، ولم يأخذه هذه المرة إلى الأسواق أو البساتين، بل سلك به طريقًا يصعد نحو أعلى تلال القدس. كان الهواء باردًا، والندى يغطي الأعشاب البرية، بينما أخذت السماء تتدرج من السواد إلى الزرقة شيئًا فشيئًا. وحين وصلا إلى القمة، بدت المدينة كلها تحتهما؛ الأسوار، والبيوت الحجرية، والطرقات الضيقة، والحقول الممتدة خارجها، حتى خُيل لآصف أن الأرض كلها تستيقظ في لحظة واحدة.

وقف عبد الرحيم طويلًا دون أن يتكلم، ثم قال بصوت هادئ: «كل حارس جاء إلى هذا المكان وقف هنا مرة واحدة على الأقل.»

نظر آصف إليه متعجبًا.

أكمل الشيخ: «ليس ليرى جمال المدينة، بل ليتذكر لماذا يحمل هذه الأمانة.»

ثم أشار بيده إلى الجهات الأربع.

«هناك يعيش الفلاح الذي يبدأ نهاره قبل الشمس. وهناك يفتح الوراق دكانه، ويجلس المعلم بين تلاميذه، ويعجن الخباز خبزه، وتغرس أم طفلها حب هذه الأرض قبل أن تعلمه الكلام. هؤلاء هم الذين نقسم من أجلهم، لا من أجل الحجر وحده.»

ظل آصف يتأمل المدينة، ثم قال: «وهل يعلم أحد منهم بوجودنا؟»

ابتسم عبد الرحيم ابتسامة خفيفة.

«ولو علموا، لما تغير شيء. نحن لا نطلب شكرًا، ولا يعرف الناس أسماء أكثر الحراس الذين سبقونا. حين يؤدي الإنسان واجبه انتظارًا لأن يذكره الناس، فإنه يكتب لنفسه، لا للحقيقة.»

ساد بينهما صمت قصير، قطعه صوت أجراس قافلة كانت تدخل المدينة من الجنوب.

قال الشيخ: «أنظر إلى تلك القافلة.»

تتبعها آصف بعينيه. «ماذا ترى؟»

أجاب: «أرى تجارًا ومسافرين.»

قال عبد الرحيم: «وأنا أرى أخبارًا جديدة، وأسماءً جديدة، وحكايات ستولد اليوم. كل إنسان يدخل هذه المدينة يحمل صفحة لم تُكتب بعد.»

ثم أخرج من جرابه رقعة قديمة، ناولها إلى آصف. قرأها، فإذا فيها عبارة قصيرة كتبها أحد الحراس قبل أجيال:

"إذا أردت أن تعرف مستقبل الأرض، فلا تنظر إلى الجيوش أولًا، بل انظر إلى الناس. فإذا بقوا متمسكين بحقهم، بقيت الأرض لهم، وإن طال الزمن."

أعاد آصف الرقعة إلى الشيخ، وقد شعر أن كلماتها كُتبت لهذا الصباح بالذات.

وبينما كانا يستعدان للنزول، لمح آصف راعيًا يقود قطيعًا من الغنم في سفح التل، وخلفه طفل صغير لا يكاد يبلغ العاشرة، يحمل عصًا أطول من قامته، ويحاول تقليد خطوات أبيه. ابتسم وقال: «يبدو أن الأب يعلم ابنه الرعي.»

نظر عبد الرحيم إلى الطفل، ثم قال:

«ولا يعلم الرعي وحده. إنه يعلمه أسماء الوديان، ومواضع الينابيع، وحدود المراعي، وأوقات المطر، وطريق العودة إذا أظلم الليل. هكذا تنتقل الذاكرة؛ ليست كلها في الكتب.»

نزل الاثنان من التل، وعادا إلى المدينة مع بداية النهار. وما إن دخلا أحد الأزقة حتى رأيا جمعًا من الناس يلتفون حول رجل مسن يجلس عند باب بيته. اقتربا في هدوء.

كان الشيخ العجوز يروي للصبية قصة عن أيام شبابه، وكيف ساعد أهل الحي على ترميم بئر انهارت بعد شتاء قاسٍ. لم يكن يبالغ في بطولته، بل كان يذكر أسماء رفاقه واحدًا واحدًا، ويضحك كلما تذكر موقفًا طريفًا وقع لهم أثناء العمل.

همس عبد الرحيم: «هذا الرجل لا يعلم أنه يؤدي عمل الحراس.» نظر إليه آصف مستغربًا.

قال الشيخ: «حين يروي الجد لحفيده ما عاشه بصدق، فهو يحفظ الذاكرة. الفرق بيننا وبينه أننا نكتبها أيضًا، حتى لا تموت إذا غاب الصوت الذي يرويها.»

ظل آصف واقفًا يستمع حتى انتهى الشيخ العجوز من حكايته، ثم رأى الأطفال يتفرقون وهم يكررون أسماء الرجال الذين شاركوا في حفر البئر، كأنهم يحفظون درسًا لن ينسوه. ابتسم في رضا.

ولأول مرة، شعر أن الذاكرة لا تسكن المجلدات وحدها، ولا خزائن الوراقين، ولا دور العلم، بل تسكن أفواه الشيوخ، وألعاب الأطفال، وأغاني الحصاد، ودعاء الأمهات، وكل تفصيل صغير يجعل الإنسان يعرف من كان قبل أن يعرف إلى أين يمضي.

وفي تلك اللحظة، التفت عبد الرحيم إلى آصف، وقال بنبرة امتزج فيها الهدوء بالجدية: «لقد تعلمت كيف تحفظ ما مضى... وحان الوقت لتتعلم كيف تقرأ ما هو آتٍ. لأن الأيام المقبلة لن تطلب منك أن تكتب فقط، بل أن تميز بين الحقيقة التي تُروى، والحقيقة التي يراد لها أن تُنسى.»

وكانت تلك الكلمات آخر ما قاله الشيخ في ذلك الصباح، قبل أن تبدأ أخبار جديدة تصل إلى القدس، حاملة معها إرهاصات مرحلة ستغير وجه البلاد، وتفتح أول صفحة من الصفحات الكبرى في تاريخ الأرض المباركة.

لم تمض أيام قليلة حتى بدأت ملامح المدينة تتغير على نحو لم يلحظه الغرباء، لكنه لم يخفَ على أهلها. لم يكن التغير في الأسوار أو الأسواق، بل في الوجوه. صار التجار يطيلون الوقوف في حلقات صغيرة يتبادلون الأخبار همسًا، وأصبح القادمون من القرى يحملون معهم من الأسئلة أكثر مما يحملون من البضائع. حتى الحمام الذي كان يحط كل صباح فوق أسطح البيوت بدا كأنه يفزع مع كل صوت مرتفع في الطرقات.

كان عبد الرحيم يصغي أكثر مما يتكلم. كلما دخل مجلسًا جلس في طرفه، يترك الناس يروون ما سمعوه ورأوه، ثم يخرج كما دخل، دون أن يشعر أحد أن الرجل الهادئ جمع في ساعة واحدة من الأخبار ما يعجز غيره عن جمعه في أيام.

وفي مساء أحد الأيام، عاد هو وآصف من السوق، فوجدا يوسف الوراق جالسًا في داره، وبين يديه رقعة طويلة لم تجف أحبارها بعد. رفع رأسه وقال: «وصلت رسالة من الخليل.»

جلس عبد الرحيم، وأشار إلى آصف أن يقترب.

قرأ يوسف بصوت هادئ:

«إلى إخواننا في القدس... كثرت القوافل النازحة من الشمال، وازدادت الخصومات بين بعض الأمراء، وأصبح الناس يخشون على أرزاقهم أكثر من خشيتهم على أنفسهم. وما زالت المدارس عامرة، والمساجد مفتوحة، لكن القلوب لم تعد مطمئنة كما كانت.»

طوى الرسالة، ثم قال: «ليست أول رسالة من هذا النوع.»

أجاب عبد الرحيم: «ولا أظنها الأخيرة.»

ظل آصف صامتًا، ثم قال: «هل يعني هذا أن الحرب قريبة؟»

هز الشيخ رأسه في تؤدة.

«لا أحد يعلم متى تبدأ الحروب، لكنها تبدأ دائمًا قبل أن يُرفع أول سيف. تبدأ حين يزرع الخوف بين الناس، وحين تصبح الشائعات أسرع من الحقيقة.»

في اليوم التالي، خرج آصف وحده إلى السوق، تنفيذًا لما اعتاد عليه منذ حمل الأمانة. كان يسجل ما يراه، ويكتب ما يسمعه من شهود، دون أن يزيد أو ينقص.

وفي أثناء مروره بسوق الحدادين، لفت انتباهه أمر لم يره من قبل. كان الناس يقفون في طابور طويل أمام دكان حداد عجوز. اقترب وسأل أحد الواقفين: «أكل هؤلاء يريدون شراء سيوف؟»

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة، وقال:

«بل يريدون إصلاح أدواتهم القديمة. حين يخاف الناس، يخرج كل واحد ما ورثه عن أبيه.»

تقدم آصف قليلًا، فرأى شيخًا يحمل سيفًا علاه الصدأ، وآخر جاء برمح مكسور، بينما حمل شاب درعًا جلديًا تمزقت أطرافه. أما الحداد، فلم يكن يتحدث عن الحرب، بل كان يعمل في صمت، يصلح ما بين يديه بإتقان، كأن عمله عبادة يؤديها.

كتب آصف في مجلده: "حين تخاف المدن، يعود الناس إلى ما تركه الآباء، لا لأنهم يعشقون الحرب، بل لأنهم يرجون أن يمر الخوف دون أن يحتاجوا إليه."

ترك السوق، واتجه نحو أطراف القدس، حيث تمتد الحقول. هناك وجد الفلاحين كما كانوا دائمًا.

لم تتوقف المحاريث. ولم تتوقف النساء عن جمع الحطب. وكان الأطفال يركضون بين سنابل القمح، غير عابئين بالأخبار التي يتداولها الكبار.

وقف طويلًا يراقبهم. ثم جلس تحت زيتونة عتيقة، وأخذ يكتب:

"الأرض لا تعرف الشائعات. يأتيها الفلاح كل صباح، فتمنحه ما زرع، سواء اختلف الأمراء أم تصالحوا. ولهذا بقيت الأرض أوفى من كثير من البشر."

وقبل أن يفرغ من الكتابة، سمع وقع أقدام يقترب منه. رفع رأسه، فإذا برجل مسن يحمل فأسًا على كتفه.

ابتسم الشيخ، وجلس إلى جواره دون استئذان.

قال: «أراك تكتب كثيرًا.»

ابتسم آصف. «إنها مهنتي.»

ضحك الرجل وقال: «إذن اكتب عن هذه الزيتونة أيضًا.»

نظر آصف إليها، ثم سأل: «وما قصتها؟»

أشار الشيخ إلى جذعها الغليظ، وقال: «غرسها أبي يوم ولدت. وحين رزقني الله أول ولد، جلست تحتها كما أجلس اليوم. وحين مات أبي، دفناه وهو ينظر إليها. واليوم يلعب أحفادي حولها. إذا قطعت هذه الشجرة، فلن أفقد خشبًا فقط... سأفقد نصف عمري.»

ساد الصمت.

لم يكتب آصف شيئًا مباشرة.

ظل ينظر إلى الزيتونة، ثم إلى الرجل، ثم إلى الأطفال الذين يلهون غير بعيد.

وعندها فهم أن الوطن لا يسكن الخرائط وحدها، بل يسكن أيضًا شجرة يعرف أهلها أسماء من غرسها، وجيلًا يسلمها إلى الجيل الذي يليه.

وفي تلك اللحظة، شعر أن الصفحات التي يملؤها بالحبر لم تعد مجرد سجل للأحداث، بل أصبحت جذورًا أخرى تغرس في تربة الذاكرة، لتبقى شاهدة على أن هذه الأرض لم تكن يومًا أرضًا بلا أهل، ولا تاريخًا بلا شهود.

عاد آصف إلى القدس مع غروب الشمس، وكان الغبار الذي علق بثوبه يشهد أنه أمضى يومه بين الحقول أكثر مما أمضاه في طرقات المدينة. لم يشعر بالتعب، بل كان يحمل في داخله طمأنينة غريبة. فقد اكتشف أن الأرض نفسها تروي حكاياتها لمن يصغي إليها؛ في أخاديد المحراث، وفي جذوع الزيتون، وفي وجوه الرجال الذين أكلت الشمس ملامحهم ولم تستطع أن تنزع منهم حب هذه البلاد.

ولما دخل دار عبد الرحيم، وجده جالسًا في الفناء الصغير، ينسخ رقعة قديمة تحت ضوء مصباح زيتي. رفع الشيخ بصره، ورأى الغبار على ثياب تلميذه، فابتسم وقال: «اليوم تعلمت من الأرض أكثر مما تعلمت من الكتب.»

جلس آصف إلى جواره، وأخرج مجلده، ثم قال: «كنت أظن أنني سأكتب أخبار المدن، فإذا بي أقضي النهار كله مع فلاح لم يغادر بستانه منذ سنين.»

أغلق عبد الرحيم الرقعة التي بين يديه، وقال: «وماذا قال لك؟»

أجاب آصف: «لم يحدثني عن الأمراء، ولا عن الأسواق، ولا عن السياسة. حدثني عن المطر، وعن الزيتون، وعن ابنه الذي ورث الأرض، وعن خوفه أن يأتي يوم لا يجد فيه حفيده هذه الشجرة.»

ظل الشيخ صامتًا لحظة، ثم قال: «وهل تعلم لماذا كان حديثه مهمًا؟»

هز آصف رأسه نافيًا. قال عبد الرحيم: «***لأن من يريد أن يعرف حقيقة هذه الأرض، يجب أن يعرف أولًا لماذا يتمسك بها أهلها. كثيرون يستطيعون أن يصفوا المدن والجبال، لكن قليلين هم من يستطيعون أن يشرحوا لماذا يبكي الفلاح إذا اقتُلعت زيتونة غرسها أبوه.***»

وفي تلك الأثناء، دخل يوسف الوراق مسرعًا على غير عادته. لم يكن الهدوء يفارق وجهه غالبًا، أما هذه المرة فقد بدا عليه القلق.

قال قبل أن يجلس: «وصلت قافلة من الساحل.»

رفع عبد الرحيم رأسه. «وماذا معها؟»

أجاب يوسف: «أخبار متضاربة. بعضهم يقول إن النزاعات بين الأمراء تزداد، وبعضهم يتحدث عن جموع تتحرك من وراء البحر، ولا أحد يعرف إلى أين تتجه.»

قطب عبد الرحيم حاجبيه، لكنه لم يعلق.

أما آصف، فقد سأل: «هل هي شائعات؟»

رد يوسف: «ربما... وربما تكون بداية أمر أكبر.»

نهض عبد الرحيم ببطء، وسار نحو الرف الذي حفظ فيه مجلدات ذلك العصر. لم يخرج منها شيئًا، بل مرر يده على أغلفتها الجلدية كما لو كان يحيي أصحابها الذين رحلوا.

ثم قال: «كل عصر يرسل إشارات قبل أن تتبدل أيامه. من لا ينتبه إليها، يظن أن التاريخ ولد فجأة.»

في صباح اليوم التالي، اصطحب عبد الرحيم آصف إلى خارج أسوار القدس، لكنهما لم يقصدا الحقول هذه المرة، بل سلكا طريقًا يمر بين القرى الصغيرة المنتشرة حول المدينة.

كانت الحياة تسير كما اعتادت؛ النساء يملأن الجرار من العيون، والصبية يطاردون أسراب العصافير بعيدًا عن الزرع، والرعاة يقودون أغنامهم نحو المراعي. غير أن شيئًا آخر بدأ يظهر في الطرقات. قوافل أكثر.

وجوه غريبة. ولغات لم يألفها أهل المنطقة.

توقف عبد الرحيم عند عين ماء يجلس بقربها عدد من المسافرين.

قال بصوت منخفض: «اجلس ولا تتكلم.»

امتثل آصف. جلسا يشربان الماء كما يفعل سائر المسافرين، بينما أخذ الرجال يتبادلون الأخبار.

قال أحدهم: «جئت من دمشق، والطريق مزدحم على غير العادة.»

ورد آخر: «أما أنا فقد سمعت أن السفن القادمة من الغرب تحمل رجالًا مدججين بالسلاح.»

وتدخل ثالث وهو يهز رأسه: «كل عام نسمع مثل هذه الأخبار، ثم لا يحدث شيء.»

ابتسم عبد الرحيم بعد أن ابتعدوا عن العين.

قال آصف: «أيهم نصدق؟»

أجاب الشيخ: «لا نصدق أحدًا... ولا نكذب أحدًا.»

نظر إليه آصف في حيرة. فتابع: «نكتب ما سمعناه كما هو، ثم ننتظر حتى تتضح الحقيقة. الحارس لا يسبق الأحداث، ولا يتأخر عنها.»

وفي طريق العودة، مرا بمقبرة صغيرة تقع على ربوة تشرف على القدس. كانت شواهد القبور متواضعة، لا تحمل إلا أسماء أصحابها وتواريخ رحيلهم. وقف عبد الرحيم أمام أحد القبور طويلًا.

سأل آصف: «أتعرف صاحب هذا القبر؟»

أجاب الشيخ: «كان حارسًا للذاكرة قبلي.»

ساد الصمت.

ثم جلس عبد الرحيم على الأرض، وأزال بعض الأعشاب اليابسة التي نبتت حول القبر، وقال بصوت امتزج فيه الوفاء بالحزن:

«لم يكتب اسمه في كتاب مشهور، ولم ينشد الشعراء قصائده، لكنه حفظ شهادات مئات الناس، ولولاه لضاعت أخبار قرى لم يعد لها وجود اليوم.»

قرأ آصف الاسم المنقوش على الحجر بصوت خافت، ثم بقي واقفًا يتأمله.

أدرك لأول مرة أن الحراس أنفسهم يرحلون كما يرحل غيرهم، لكن ما يتركونه خلفهم يبقى حيًا في المجلدات، وفي ذاكرة الأرض، وفي أسماء الناس الذين أنصفهم قلم أمين.

وحين غادرا المقبرة، كانت الشمس تميل إلى الغروب، وألقى ضوؤها الأحمر على أسوار القدس لونًا يشبه لون الصفحات القديمة. شعر آصف أن المدينة تستعد لاستقبال أيام مختلفة، وأن السكينة التي عاشها خلال الأسابيع الماضية لم تكن نهاية الحكاية، بل كانت الهدوء الذي يسبق فصلًا جديدًا من تاريخ الأرض المباركة، فصلًا ستصبح فيه شهادات الحراس أكثر أهمية من أي وقت مضى.

حلّ المساء على القدس هادئًا، لكن ذلك الهدوء لم يكن يشبه هدوء الأيام الماضية. كان الناس يمارسون أعمالهم كما اعتادوا، غير أن شيئًا خفيًا كان يسري في المدينة؛ شيء لا يُرى بالعين، لكنه يظهر في نظرات الرجال، وفي الأحاديث التي تنقطع كلما اقترب غريب، وفي الأبواب التي أُغلقت قبل موعدها بقليل.

عاد آصف إلى دار عبد الرحيم بعد يوم طويل قضاه بين القرى المحيطة بالمدينة. وما إن دخل الفناء حتى وجد الشيخ جالسًا وحده، يحدق في مصباح الزيت الذي أخذ لهبه يرقص مع هبات الهواء.

رفع عبد الرحيم رأسه، ثم قال مبتسمًا: «غدًا لن أرافقك.»

نظر إليه آصف باستغراب. «إلى أين سأذهب؟»

أخرج الشيخ رقعة صغيرة مطوية، ووضعها أمامه.

«ستذهب إلى قرية بيت الزيتون. وصلني أن قاضيها شيخ كبير، وقد ألمّ به المرض، ويخشى أن يرحل قبل أن يسلم سجلات القرية إلى من يحفظها.»

فتح آصف الرقعة، فوجد فيها وصفًا للطريق، واسم القرية، واسم القاضي.

ثم رفع رأسه وقال: «ولماذا لا تذهب معي؟»

ابتسم عبد الرحيم ابتسامة هادئة. «لأن الحارس لا يبقى تلميذًا طوال عمره.»

خرج آصف مع أول ضوء للفجر، ولم يكن معه سوى دابته، ومجلده، وقليل من الزاد. كانت الطريق تمر بين تلال خضراء تزينها كروم العنب، ثم تنحدر نحو وادٍ صغير تتدفق فيه مياه صافية، قبل أن تعود فتصعد نحو قرية تحيط بها أشجار الزيتون من كل جانب.

عندما وصل، وجد أهل القرية مجتمعين أمام بيت متواضع، وقد علت وجوههم علامات القلق.

اقترب من رجل يقف عند الباب، وسأله: «أهذا بيت القاضي؟»

أجاب الرجل بصوت منخفض: «نعم... لكنه يحتضر.»

دخل آصف بعد أن أذن له أهل الدار.

كانت الغرفة بسيطة، تتوسطها فراش من الصوف، يرقد عليه شيخ نحيل اشتعل رأسه شيبًا. جلس إلى جواره شاب في الثلاثين من عمره، يبدو أنه ابنه، بينما وقفت امرأة مسنة عند النافذة تقرأ القرآن بصوت خافت.

فتح الشيخ عينيه عندما سمع وقع الخطوات.

قال بصوت متعب: «***أأنت من القدس؟***»

أجاب آصف: «***نعم.***»

ابتسم الشيخ ابتسامة بالكاد ظهرت على شفتيه.

«الحمد لله... ظننت أنني سأرحل قبل أن أصل إلى من أبحث عنه.» أشار بيده المرتجفة إلى صندوق خشبي قديم وضع في زاوية الغرفة. اقترب آصف، ورفعه برفق.

كان الصندوق أثقل مما يبدو.

قال الشيخ: «افتحه.»

رفع الغطاء، فإذا بداخله دفاتر كثيرة، وعقود بيع، ووصايا، وسجلات ولادات ووفيات، ورسائل كتبها أهل القرية على امتداد عشرات السنين.

قال الشيخ وهو يلهث: «هذه... ليست أوراقي... إنها أعمار الناس.»

جلس آصف إلى جواره، وأخذ يستمع. قال الشيخ:

«منذ أربعين عامًا، وكل مولود في هذه القرية أمرّ قلمه على اسمه... وكل أرض بيعت... وكل وقف أُنشئ... وكل يتيم حفظ له حقه... كتبته هنا.»

ثم سكت قليلًا، قبل أن يضيف: «إذا ضاعت هذه الدفاتر... فلن يضيع اسمي... بل ستضيع حقوق من لم يعودوا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.»

مد يده المرتجفة إلى داخل الصندوق، وأخرج دفترًا جلديًا صغيرًا. كان مختلفًا عن بقية السجلات.

سلمه إلى آصف، وقال: «هذا ليس سجلًا للقضاء... إنه سجل القرية.»

فتح آصف الصفحة الأولى.

لم يجد أحكامًا ولا معاملات، بل وجد عنوانًا بسيطًا: ***"أهل بيت الزيتون."***

توالت بعده الصفحات. في كل صفحة اسم رجل أو امرأة، وإلى جانبهما قصة قصيرة.

"هذه فاطمة... كانت أول من فتح بيته لإيواء الغرباء أيام الجفاف."

"وهذا سالم... أصلح عين الماء دون أن يأخذ أجرًا."

"وهذه أم خالد... كانت تخبز للفقراء كل ليلة جمعة."

رفع آصف رأسه، وقد أدرك أن الشيخ لم يكن قاضيًا فقط، بل كان حارسًا للذاكرة دون أن يسمي نفسه كذلك.

قال القاضي بصوت خافت: «كنت أخشى أن يأتي يوم لا يبقى فيه من يذكر هؤلاء.»

وقبل أن يجيبه آصف، سعل الشيخ سعالًا شديدًا، ثم أمسك بيده بقوة لم يتوقعها منه.

قال: «عدني...»

اقترب آصف منه. «عدني أن يبقى هذا الدفتر مع أهل القرية... لا تأخذه من بينهم.»

شعر آصف أن الوصية تشبه ما تعلمه من عبد الرحيم. قال دون تردد: «أعدك.»

ارتسمت على وجه الشيخ ابتسامة هادئة، ثم أرخى يده ببطء، وأغمض عينيه، بينما عمّ الغرفة صمت لم يقطعه إلا بكاء المرأة العجوز.

وقف آصف في مكانه، ولم يكتب كلمة واحدة.

أغلق الدفتر، ووضعه فوق صدر الشيخ، ثم خرج إلى ساحة الدار.

كان أهل القرية ينتظرون الخبر.

نظر إليهم طويلًا، ثم قال في هدوء: «لقد ترك لكم أمانة... وأوصاني ألا تغادر هذه القرية.»

في تلك اللحظة، لم يكن آصف بحاجة إلى نصيحة من أحد.

لقد اتخذ أول قرار كبير وحده، وعرف أن الأمانة ليست في جمع كل ما يقع تحت اليد، بل في أن يبقى التاريخ حيث وُلد، محفوظًا بين أهله، مع وجود نسخة أمينة تضمن ألا يبتلعه النسيان.

ظل آصف واقفًا في ساحة الدار، بينما أخذ أهل القرية يتوافدون واحدًا تلو الآخر بعد أن انتشر خبر وفاة القاضي. لم يكن أحد يرفع صوته، ولم يسمع نحيبًا يملأ المكان، بل كان الحزن يمر بين الوجوه في صمت، كأنه يعرف طريقه إلى القلوب دون حاجة إلى الكلمات.

تقدم شيخ من أهل القرية، ووضع يده على كتف آصف، وقال: «لقد عاش بيننا خمسين عامًا، ولم نره يومًا يرد مظلومًا، أو يفرق بين غني وفقير. كنا نظن أنه يحفظ سجلات القضاء فقط، حتى علمنا في أيامه الأخيرة أنه كان يكتب حكاياتنا أيضًا.»

ثم أطرق الرجل برأسه، وأردف: «كان يقول دائمًا: إذا ضاعت أسماء الناس، ضاعت القرية.»

خرج الرجال يحملون الجثمان، وساروا به نحو المقبرة الواقعة على ربوة تطل على بساتين الزيتون. لم يتقدمهم جندي، ولم ترافقهم رايات، وإنما تقدمتهم آيات القرآن، وخلفها أهل القرية جميعًا؛ الشيوخ والشبان، والنساء اللواتي وقفن عند أطراف الطريق يودعن الرجل الذي عرفنه قاضيًا وأبًا وناصحًا.

سار آصف بينهم دون أن يتكلم. كان يشعر أنه لا يشيع رجلًا واحدًا، بل يودع صفحة كاملة من صفحات هذه الأرض.

وبعد انتهاء الدفن، جلس أهل القرية في ظل شجرة سدر عظيمة اعتادوا الاجتماع تحتها في الملمات. تقدم ابن القاضي يحمل الصندوق الخشبي الذي أوصى به والده، ووضعه أمام الناس.

قال بصوت متهدج: «أبي أوصاني أمام هذا الرجل القادم من القدس ألا يغادر هذا الصندوق قريتنا.»

ساد صمت قصير.

ثم نهض رجل مسن، وقال: «ومن يحفظه بعده؟»

نظر الجميع إلى بعضهم، فلم يجب أحد.

فقال رجل آخر: «كلنا نخشى عليه، ولكننا نخشى أيضًا أن تضيع الأمانة إذا بقيت في بيت واحد.»

كان آصف يصغي إليهم دون أن يتدخل. لقد أدرك أن القرار يجب أن يخرج من أهل القرية أنفسهم، لا أن يفرضه عليهم غريب جاء من مدينة بعيدة.

طال النقاش حتى مالت الشمس نحو الغروب.

وأخيرًا، وقف إمام المسجد، وقال: «ما دام هذا السجل يخص أهل بيت الزيتون جميعًا، فليكن في المسجد، فهو بيت الجميع، وليكن له مفتاحان؛ أحدهما عند الإمام، والآخر عند مختار القرية، ولا يفتح إلا بحضورهما معًا.»

ساد الهدوء.

ثم أخذ الرجال يهزون رؤوسهم موافقين واحدًا بعد الآخر، حتى ارتفعت الأصوات بالدعاء للقاضي، ولمن سيحمل الأمانة بعده. عندها فقط شعر آصف بالاطمئنان.

لم يحمل الصندوق معه إلى القدس، لكنه حمل شيئًا أثمن منه؛ يقينًا بأن الذاكرة لا تعيش في خزائن مغلقة، وإنما في ثقة الناس بعضهم ببعض.

وفي صباح اليوم التالي، استأذن أهل القرية في الرحيل.

وقبل أن يغادر، أقبلت نحوه فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الثانية عشرة، كانت تحمل في يدها دفترًا رقيقًا غُلف بقماش أزرق.

قالت بخجل: «وجدت هذا في غرفة جدي.»

تناوله آصف برفق.

فتح الصفحة الأولى، فإذا بخط القاضي نفسه. لكنها لم تكن سجلات، ولا أحكامًا، ولا وصايا.

كانت مذكرات شخصية.

قرأ السطر الأول: "إذا قرأ أحد هذه الصفحات بعد رحيلي، فليعلم أنني لم أكتبها لأحكي عن نفسي، بل لأحكي عن قرية علّمتني أن الإنسان لا يكبر بعدد السنين، وإنما بعدد الأمانات التي يؤديها."

أغلق آصف الدفتر في هدوء.

ثم سأل الفتاة: «هل أوصاك أحد بإعطائه لي؟»

هزت رأسها نافية.

وقالت: «لكني سمعت جدي يقول قبل أيام: إذا جاء رجل من القدس يحمل قلمًا أكثر مما يحمل سيفًا، فأعطوه هذا الدفتر.»

ابتسم آصف، لكنه لم يمد يده ليأخذه. أعاد الدفتر إليها، وقال: «احتفظي به.»

بدت الدهشة على وجهها.

فأضاف: «هذا صوت جدك، ولا ينبغي أن يخرج من بيته. سأجلس معك اليوم، وأنسخ كل صفحة منه بيدي، ثم أعيده إليك كما هو.»

جلست الفتاة إلى جواره في ظل الزيتونة التي أحبها القاضي، وأخذ آصف ينسخ المذكرات كلمةً كلمة، بينما كانت هي تراقب حركة القلم في صمت.

ومع كل صفحة ينسخها، كان يشعر أن المسافة بينه وبين عبد الرحيم تزداد. لم يعد يقلده في كل قرار، بل صار يفكر بعقله، ويزن الأمور بقلبه، ويختار الطريق الذي يحفظ الحقيقة ويحفظ كرامة أصحابها في الوقت نفسه.

وعندما انتهى من النسخ مع اقتراب المغيب، أعاد الدفتر إلى الفتاة.

ضمته إلى صدرها، وقالت بصوت يكاد لا يُسمع: «سيكون جدي سعيدًا لو علم أنه لم يُنسَ.»

رفع آصف بصره نحو بساتين الزيتون التي أحاطت بالقرية من كل جانب، وشعر أن الريح التي مرت بين الأغصان لم تكن تحمل صوت الأوراق وحدها، بل كانت تحمل أسماء رجال ونساء عاشوا فوق هذه الأرض في هدوء، ثم رحلوا تاركين خلفهم أثرًا لا يُرى بالعين، لكنه يبقى ما بقي من يحفظه بصدق.

في صباح اليوم الثالث، غادر آصف قرية بيت الزيتون. لم يكن الطريق طويلًا، لكنه تعمد أن يسير على مهل، وكأن كل خطوة تمنحه وقتًا إضافيًا ليرتب ما عاشه في الأيام الماضية. كانت النسخة التي خطها من مذكرات القاضي محفوظة داخل جرابه، أما الأصل فقد بقي في القرية، في المسجد، حيث اجتمع الناس على حمايته.

كان يشعر براحة لم يعرفها من قبل.

ولأول مرة، لم يكن يفكر فيما سيقوله له عبد الرحيم عند عودته، بل فيما تعلمه هو بنفسه.

قطع نصف الطريق حتى بلغ عين ماء اعتاد المسافرون التوقف عندها. جلس تحت شجرة جوز عتيقة، وأخرج رغيفًا من خبزه اليابس، ثم أخذ يتناول طعامه في هدوء. وبينما هو كذلك، سمع جلبة غير بعيدة.

رفع رأسه، فرأى عربة صغيرة انكسرت إحدى عجلاتها في منتصف الطريق. كان رجل في الأربعين من عمره يحاول إصلاحها، بينما وقفت زوجته تجمع ما تناثر من الأمتعة، وأخذ طفلان يطاردان لفائف الورق التي حملتها الريح بعيدًا. نهض آصف مسرعًا. ساعد الرجل في رفع العربة، ثم جمع الرقوق قبل أن تبتل بماء العين.

قال الرجل وهو يلتقط أنفاسه: «جزاك الله خيرًا... لو ضاعت هذه الأوراق لضاع تعبي كله.»

ناول آصف اللفائف إليه، ثم سأله: «أتاجر كتب؟»

ابتسم الرجل. «بل معلم.»

فتح إحدى اللفائف، فإذا هي ألواح كتب عليها الأطفال حروفهم الأولى، ورسائل قصيرة نسخها لهم معلمهم، وأوراق تضم أسماء التلاميذ الذين أنهوا حفظ القرآن في قريتهم.

قال المعلم وهو يرتبها بعناية: «أغادر قريتي كل شهر لأشتري الورق والحبر. لو لم أفعل، لانقطع الصبية عن التعلم.»

تأمل آصف الأوراق.

لم تكن وثائق رسمية، لكنها كانت بذور المستقبل.

ساعد الأسرة حتى أصلح العجلة، وقبل أن يرحلوا، أخرج المعلم من جرابه لوحًا خشبيًا صغيرًا.

قال مبتسمًا: «احتفظ بهذا.»

نظر آصف إليه متعجبًا. كان اللوح يحمل عبارة واحدة، كتبها طفل بخط غير متقن:

"من علمني حرفًا... فتح لي بابًا."

قال المعلم: «كتبها أحد تلاميذي قبل أعوام، واحتفظت بها لأنها ذكرتني بسبب اختياري لهذه المهنة.»

شكره آصف، لكنه أعاد اللوح إليه. وقال: «احتفظ به... فسيأتي يوم ينظر إليه ذلك الطفل وقد صار رجلًا، فيعرف من أين بدأت رحلته.»

ابتسم المعلم، وأعاد اللوح إلى جرابه، ثم افترقا.

قبل غروب الشمس بقليل، ظهرت أسوار القدس من جديد. كلما اقترب منها، شعر أنها لم تعد المدينة نفسها التي دخلها أول مرة. لم تتغير حجارتها، لكنه هو الذي تغير. عند البوابة، ألقى الحراس عليه السلام، ثم سمحوا له بالدخول. مر بالسوق، فوجد الحركة كما عهدها. الخباز يخرج أرغفته. والعطار يرتب قواريره.

والحداد يطرق الحديد بإيقاع ثابت. لكن آصف صار يرى في كل واحد منهم صفحة من كتاب كبير.

لم يعد يمر بهم مرور العابر. كان يتوقف، ويسلم، ويسأل عن أحوالهم، ويحفظ أسماءهم. ولما بلغ دار عبد الرحيم، وجد الباب مفتوحًا. دخل الفناء. كان الشيخ جالسًا في المكان نفسه الذي تركه فيه قبل أيام، ينسخ كتابًا على ضوء مصباح صغير.

رفع رأسه. تلاقت عيناهما.

لم يسأل: "هل نجحت؟"

ولم يسأل: "هل أديت المهمة؟"

بل قال فقط: «عدت.»

ابتسم آصف. «نعم... عدت.»

أغلق عبد الرحيم الكتاب، وأشار إليه أن يجلس.

أخرج آصف النسخة التي كتبها من مذكرات القاضي، ووضعها أمام الشيخ.

قرأها عبد الرحيم بهدوء، حتى بلغ الصفحة الأخيرة.

ثم رفع بصره. «وأين الأصل؟»

أجاب آصف بثبات: «بقي عند أهله.»

ظل الشيخ ينظر إليه لحظات طويلة. ثم أعاد إليه الأوراق دون أن يقول شيئًا.

ساد الصمت.

وكان ذلك الصمت، في نظر آصف، أعظم ثناء سمعه منذ عرف الشيخ.

وبعد لحظات، قال عبد الرحيم: «تعال معي.»

خرجا من الدار، وسارا بين الأزقة حتى وصلا إلى بيت كاتب السجلات. كانت الليلة ساكنة.

ولم يكن في الدار إلا الضوء نفسه الذي رآه آصف أول مرة، والمجلس نفسه، والوجوه نفسها.

لكن شيئًا واحدًا تغير. هذه المرة، لم يجلس آصف عند الباب. بل أشار إليه كبير الأمناء أن يجلس بينهم.

نظر إليه الشيخ عبد الرحيم في هدوء، ثم قال أمام الجميع: «أرسلناه وحده... فعاد بالأمانة، ولم يعد بها إلى نفسه.»

ابتسم يوسف الوراق، وقال: «إذن فقد تعلم أول درس من دروس الحراسة.»

ثم تناول كبير الأمناء المجلد الذي كتب فيه آصف أولى شهاداته، وفتح صفحة جديدة.

غمس قلمه في الحبر، وكتب سطرًا واحدًا بخط واضح:

"وفي هذا العام، أتمَّ آصف بن يونس عهد التهيئة، وأصبح من هذا اليوم حارسًا للذاكرة، مؤتمنًا على الشهادة، لا يكتب إلا ما تحقق منه، ولا يكتم حقًا، ولا يزيد على الحقيقة حرفًا."

ترك الحبر حتى جف، ثم أغلق المجلد ببطء. وفي تلك اللحظة، لم يسمع آصف تهنئة، ولا تصفيقًا، ولا دعاءً خاصًا.

بل نهض الرجال واحدًا بعد الآخر، وعاد كل منهم إلى عمله، كأن شيئًا لم يحدث.

أدرك أن الطريق الحقيقي... بدأ الآن.

انفض المجلس كما انفض في الليلة الأولى، دون ضجيج أو مراسم. خرج يوسف الوراق عائدًا إلى دكانه، وعاد كاتب السجلات إلى دفاتره، ومضى الإمام إلى مسجده قبل أذان الفجر بقليل، أما الطبيب فقد حمل جرابه وغادر مسرعًا، فقد كان في انتظاره مريض عند أطراف المدينة.

وقف آصف يتابعهم حتى غاب آخرهم خلف منعطف الزقاق.

قال في نفسه: «ما أعجب هؤلاء الرجال... يصنعون أمرًا لو عرف الناس قدره لذكروا أسماءهم في كل مجلس، ثم يعود كل واحد منهم إلى حياته كأن شيئًا لم يكن.»

ابتسم عبد الرحيم، وكأنه قرأ ما دار في خاطره. قال وهو يسيران في الأزقة الخالية:

«إذا أصبح الحارس مشهورًا، صار مراقبًا. وإذا صار مراقبًا، خشي الناس أن يتكلموا أمامه. وحينها تموت الحقيقة قبل أن تصل إليه.»

هز آصف رأسه، ولم يزد.

كانت المدينة تغط في سكون الفجر. المصابيح الزيتية بدأت تنطفئ واحدًا تلو الآخر، بينما ارتفع أول أذان من أحد المساجد، ثم تبعته مآذن أخرى، حتى بدا الصوت وكأنه يعبر القدس كلها في موجة واحدة.

توقف عبد الرحيم.

رفع بصره نحو السماء، وردد كلمات المؤذن بخشوع، ثم قال: «***كل يوم يبدأ بهذه الكلمات... ومع ذلك لا يشبه يومًا قبله.***»

مرت أسابيع بعد ذلك.

أصبح آصف جزءًا من الحياة اليومية في القدس. يراه الناس في الأسواق يحمل رقوقه، أو في المساجد ينسخ كتابًا، أو عند أبواب المدارس يستمع إلى المعلمين، أو بين الفلاحين خارج الأسوار يسأل عن موسم الزيتون والقمح.

لم يعد غريبًا عن المدينة.

لكن أحدًا لم يكن يعلم أنه، مع كل مساء، يعود إلى دار صغيرة، ويضيف صفحة جديدة إلى مجلد لن يراه الناس.

وفي إحدى الليالي، بينما كان يراجع ما كتبه، دخل عبد الرحيم يحمل لفافة مختومة بالشمع الأحمر.

نظر إليها طويلًا، ثم فك الختم بحذر. قرأ الرسالة مرة واحدة.

ثم أعاد قراءتها. هذه المرة تغيرت ملامحه. رفع رأسه ببطء، وقال: «لقد جاء النداء.»

وقف آصف من مكانه. لم يسأل عن مضمون الرسالة. فقد أدرك من صوت الشيخ أن الأمر أكبر من رسالة عادية. مد عبد الرحيم الرقعة إليه.

قرأ فيها: ***"إلى جميع أمناء الذاكرة في بلاد الشام... تُنقل المجلدات الخاصة بهذا العصر إلى الموضع الثاني، وفق العهد المتفق عليه. وتبدأ عملية النسخ الاحتياطية فور وصول هذا الكتاب. لا تؤخروا الأمر، فإن الأيام تحمل ما لا نعلم."***

أعاد آصف الرسالة في صمت. ثم قال: «هل وقع شيء؟»

أجاب عبد الرحيم وهو يطوي الرقعة بعناية: «لا... ولكن الحارس لا ينتظر حتى تقع المصيبة.»

نهض الشيخ، واتجه نحو الخزانة الخشبية التي لم يفتحها منذ عاد آصف من بيت الزيتون.

أخرج منها صندوقًا كبيرًا، صنع من خشب السرو، وأحيطت أطرافه بشرائط من النحاس الأصفر.

وضعه على الأرض. فتح الغطاء. لم يكن داخله ذهب، ولا جواهر.

كانت فيه مجلدات الجلد التي تعب الأمناء في كتابتها عشرات السنين. مد عبد الرحيم يده، وأخرج أول مجلد.

مرر أصابعه على غلافه كما يمر الأب على رأس ابنه. وقال بصوت يكاد يسمعه وحده: «حان وقت الرحيل مرة أخرى.»

وقف آصف أمام المجلدات. شعر أنها لم تعد مجرد كتب. بل وجوه. وأصوات. وأطفال. وزيتونات. وبيوت. وقرى.

وأناس أحبهم، وإن لم يلتق أكثرهم.

في الخارج، كانت القدس تستقبل فجرًا جديدًا. أما داخل تلك الغرفة الصغيرة، فقد كانت مرحلة كاملة من حياة آصف توشك أن تنتهي. أغلق عبد الرحيم الصندوق، وربط عليه القفل النحاسي.

ثم التفت إلى آصف، وقال: «نم قليلًا... فنحن نغادر مع طلوع الشمس.»

لم ينم آصف تلك الليلة. جلس إلى النافذة يتأمل القدس، كما تأملها أول مرة من فوق التل.

لكن المدينة بدت مختلفة. لم تتغير هي. بل تغير الرجل الذي ينظر إليها.

ابتسم ابتسامة هادئة، ثم أغلق مجلده الشخصي، وكتب في آخر صفحة من الفصل الأول:

"ظننت حين خرجت من قريتي أنني أسافر لأتعلم الكتابة... فإذا بي أتعلم كيف أسمع نبض الأرض، وكيف أحمل ذاكرة الناس دون أن أثقلها باسمي. وما أدركت يومها أن الرحلة الحقيقية... لم تبدأ إلا الآن."

وبهذه الكلمات، انطوت الصفحة الأولى من حياة آصف، بينما بدأت، مع أول خيط من ضوء الصباح، رحلة جديدة ستقوده عبر قرون من تاريخ فلسطين، من زمن الملوك والفتوحات، إلى زمن الحصار والتحرير، ليشهد بعينيه كيف بقيت الأرض، رغم تبدل العصور، تحفظ أسماء من أحبوها كما تحفظ الزيتونة جذورها في أعماق التراب.

الفصل الثاني

الطريق إلى المجلد الأول

خرجت القافلة من القدس قبل أن تشرق الشمس. لم يكن عدد أفرادها يتجاوز سبعة رجال، يتقدمهم عبد الرحيم، بينما سار آصف في آخر الصف، يقود الدابة التي حملت صندوق المجلدات. لم يكن الصندوق مختلفًا عن صناديق التجار التي تخرج كل يوم من المدينة، وقد حرص الأمناء أن يبدو كذلك، فلا يلفت انتباه أحد.

كانت الطريق تنحدر بين التلال المكسوة بالزيتون، والندى ما يزال يلمع فوق أوراقها. ولم يكن يسمع سوى وقع حوافر الدواب، وزقزقة العصافير التي سبقت الشمس إلى السماء.

لم يتبادل الرجال كثيرًا من الحديث.

فكل واحد منهم كان يعلم أن ما يحمله لا يقدر بثمن، وأن كلمة واحدة في غير موضعها قد تعرض الأمانة كلها للخطر.

وبعد ساعات من السير، بلغوا ديرًا قديمًا مهجورًا، يقع بين الصخور، بعيدًا عن الطرق التي تسلكها القوافل. كان المكان خاليًا منذ سنوات طويلة، ولم يبق منه إلا جدران حجرية قاومت الزمن، وبئر ضيقة ما زال ماؤها عذبًا.

ترجل عبد الرحيم، وقال بهدوء: «سنستريح هنا حتى المساء.»

بدأ الرجال ينزلون الأحمال، بينما حمل آصف الصندوق بنفسه إلى داخل إحدى الغرف. ولما وضعه على الأرض، شعر بثقله أكثر من أي وقت مضى. لم يكن ثقل الخشب.

بل ثقل ما يحمله من أعمار الناس. جلس في زاوية الغرفة يتأمل الصندوق، حتى اقترب منه عبد الرحيم.

قال الشيخ: «أتدري لماذا ننقل المجلدات من مكان إلى آخر؟»

أجاب آصف: «حتى لا تضيع إذا أصاب المكان مكروه.»

هز الشيخ رأسه. «هذا أحد الأسباب.»

ثم جلس إلى جواره.

«أما السبب الآخر، فهو ألا ترتبط الذاكرة بمكان واحد. فإن سقطت مدينة، بقيت الذاكرة. وإن احترقت مكتبة، بقيت نسخة أخرى. وإن مات الأمناء، وجد من يكمل الطريق.»

ساد الصمت.

ثم أخرج الشيخ مفتاحًا صغيرًا من عنقه، وفتح الصندوق.

رفع أول مجلد.

ثم الثاني.

ثم الثالث.

وأخيرًا، أخرج مجلدًا بدا أقدم من غيره.

كان جلده داكنًا، وقد بهتت حروف عنوانه من كثرة ما تعاقبت عليه الأيدي. وضعه أمام آصف.

وقال: «اليوم... ستقرأ لأول مرة من المجلد الأول.»

تردد آصف قبل أن يمد يده. لم يكن يشعر أنه أمام كتاب. بل أمام باب سيفتح له زمنًا آخر.

فتح الصفحة الأولى ببطء. وكان أول ما قرأه: ***"بسم الله الرحمن الرحيم.***

هذه شهادة من حفظها الأمناء جيلاً بعد جيل، لا ليعظموا رجالها، بل ليحفظوا الحق كما جرى، وليشهدوا أن لهذه الأرض أهلًا عرفوا الله، وعمروا البلاد، ودافعوا عنها، وتعاقبت عليهم الأمم، وبقيت فلسطين تجمع آثارهم كما تجمع السماء نجومها."

انقلبت الصفحة التالية. ظهرت خريطة مرسومة بالحبر الأسود، تتوسطها فلسطين، وقد رسمت حولها المدن والطرق والأنهار والجبال كما عرفها أهل ذلك الزمان. مرر آصف أصابعه فوق اسم القدس.

ثم بيت المقدس.

ثم أريحا.

ثم الخليل.

ثم غزة.

كانت الأسماء مألوفة، لكنها في ذلك المجلد بدت كأنها تنطق. ثم توقف عند عنوان كبير كُتب بخط أكثر سماكة من بقية الصفحات: "العصر الأول... زمن النبي سليمان عليه السلام."

ظل آصف ينظر إلى العنوان طويلًا. وسأل بصوت يكاد لا يسمع: «أمن هنا تبدأ الحكاية؟»

ابتسم عبد الرحيم، وأغلق المجلد برفق.

ثم قال: «***لا ... من هنا تبدأ الشهادة. أما الحكاية، فقد بدأت قبل ذلك بقرون، لكنها هنا تصبح أوضح، لأن هذا هو أول عصر وصلت إلينا أخباره كاملة، محفوظة في مجلدات الأمناء.***»

أعاد الشيخ فتح الصفحة الأولى من ذلك العصر. ثم قال: «اقرأ... ولكن تذكر دائمًا أنك لا تقرأ أسطورة، ولا كتاب مواعظ، بل تقرأ شهادة رجال عاشوا، وكتبوا، وسلموا الأمانة لمن بعدهم.»

أخذ آصف نفسًا عميقًا. ومع أول كلمة بدأ يقرؤها، شعر أن الزمن من حوله أخذ يتراجع ببطء، وأن أبواب عصر جديد بدأت تُفتح أمامه، عصر ستعود فيه القدس مدينةً عامرة في عهد نبي وملك، وسيبدأ القارئ، لأول مرة، رحلة الذاكرة عبر التاريخ، من عهد سليمان عليه السلام، وصولًا إلى العصور التي ستشهد الفتوحات الإسلامية، ثم الحملات الصليبية، ثم تحرير القدس على يد صلاح الدين، حتى تصل الحكاية، عبر الأجيال، إلى زمننا الحاضر، دون أن ينقطع خيط الذاكرة الذي تعاهد الحراس على حفظه.

فتح عبد الرحيم المجلد برفق، ثم وضعه بينه وبين آصف، كأنهما يجلسان أمام شاهد خرج من أعماق الزمن ليحكي ما رآه. كانت الصفحات صفراء تميل إلى لون العاج، وقد تركت السنون آثارها على أطرافها، لكن الحروف بقيت واضحة، تشهد على عناية أجيال متعاقبة من الأمناء الذين تناقلوا هذا المجلد كما يتناقل الآباء ميراثًا لا يقدر بثمن. لم يكن في الغرفة سوى ضوء المصباح الزيتي الذي انعكس على الحبر الأسود، فبدت الكلمات وكأنها تنبض بالحياة، تنتظر من يعيد إليها صوتها بعد قرون من الصمت.

قرأ آصف السطور الأولى ببطء، ثم توقف طويلًا عند عنوان الفصل الأول من المجلد: "في أيام سليمان بن داود عليهما السلام، حين كانت القدس قلب المملكة، وكانت الحكمة تُطلب من أقاصي الأرض." لم تكن العبارة مجرد افتتاحية، بل كانت بابًا واسعًا يعبر منه القارئ إلى زمن آخر، زمن كانت فيه المدينة في أوج عمرانها، تمتلئ بالعلماء والبنائين والحرفيين، وتفد إليها القوافل من المشرق والمغرب طلبًا للعدل الذي اشتهر به الملك النبي.

قال عبد الرحيم وهو يراقب ملامح آصف: «تذكر دائمًا أن المجلدات لا تروي حياة الملوك وحدهم. لو فعلت ذلك، لما اختلفت عن كتب المؤرخين. نحن نبحث عن الناس الذين عاشوا في ظل تلك العصور، عن الذين بنوا الحجارة بأيديهم، وحفروا الآبار، وغرسوا الأشجار، وربوا أبناءهم، ثم رحلوا دون أن يكتب أحد أسماءهم.»

أعاد آصف بصره إلى الصفحات، فإذا بالنص لا يبدأ بوصف القصر ولا مجلس الحكم، وإنما برجل بسيط يدعى عمران بن شالوم، كان يعمل نحاتًا للحجارة في القدس. كان يخرج قبل شروق الشمس كل يوم، يحمل مطرقته وإزميله، ويتجه إلى الورش التي امتلأت بالعمال القادمين من أنحاء البلاد للمشاركة في أعمال البناء. لم يكن الرجل قائدًا، ولا صاحب نفوذ، ولم يملك من الدنيا إلا بيتًا صغيرًا عند أطراف المدينة وزوجة وطفلين، لكنه كان يقول كلما أمسك حجرًا بين يديه: «قد ينسى الناس اسمي، لكنهم سيدخلون يومًا من باب صنعته يداي.»

ابتسم آصف وهو يقرأ تلك العبارة، فقد أعادته إلى النجار إبراهيم، وإلى الخباز، وإلى الفلاح عثمان، وإلى جميع أولئك الذين التقاهم في القدس. شعر أن الزمن، مهما ابتعد، لا يغير جوهر الناس، وأن الأرض تنجب في كل عصر رجالًا يتركون آثارهم في صمت، ثم يمضون دون انتظار ثناء.

واصل القراءة، فإذا بالمجلد يصف القدس كما كانت في ذلك الزمن. كانت الأزقة أوسع مما هي عليه في عصره، والأسواق تعج بالتجار الذين يحملون النحاس والخشب والعاج والأقمشة، بينما ترتفع في أطراف المدينة أصوات البنائين وهم يقطعون الحجارة الضخمة بعناية فائقة. كانت رائحة خشب الأرز القادم من الشمال تمتزج برائحة التراب المبلل بالماء، وكانت القوافل تدخل المدينة في نظام دقيق، فلا يكاد يمر يوم إلا ويصل وفد جديد من أرض بعيدة، يحمل بضائع أو علمًا أو رسالة إلى الملك.

لم يكن المجلد يكتفي بوصف المكان، بل كان يصف الناس أيضًا؛ المرأة التي تخبز للعمال قبل طلوع الشمس، والطفل الذي يجمع شظايا الحجارة ليصنع منها لعبًا صغيرة، والعجوز الذي يجلس عند باب السوق يروي للصغار أخبار الأنبياء، حتى أصبحت المدينة، في صفحات المجلد، كائنًا حيًا يتنفس بالحجارة والبشر معًا.

رفع آصف رأسه عن الصفحة، وشعر للمرة الأولى أنه لا يقرأ تاريخًا، بل يعيش داخله. كان يسمع وقع المطارق على الصخور، ويرى الغبار يتصاعد فوق الورش، ويشعر بحرارة الشمس وهي تنعكس على الحجارة البيضاء. عندها أدرك سر المجلدات؛ فهي لم تكن تحفظ الوقائع فحسب، بل تحفظ روح الزمان، حتى يستطيع من يأتي بعد مئات السنين أن يرى بعينيه ما رآه الشاهد الأول.

أما عبد الرحيم، فقد ظل صامتًا، يراقب تلميذه وهو يغوص في الكلمات. كان يعلم أن اللحظة التي يبدأ فيها الحارس برؤية الماضي حيًا أمامه هي اللحظة التي يولد فيها من جديد، لأن الذاكرة الحقيقية لا تُحفظ بالحبر وحده، وإنما بالقدرة على إعادة الحياة إلى من ظن الناس أنهم رحلوا إلى الأبد.

أدار آصف الصفحة التالية في شيء من التردد، كأن قلبه يخشى أن يوقظ الزمن من سباته. وما إن استقرت عيناه على السطور الأولى حتى تبدلت نبرة السرد، فلم يعد الكاتب يروي الأحداث من

بعيد، بل صار شاهدًا يسير بين الناس، يصف ما تراه عيناه وما تسمعه أذناه، حتى خُيِّل لآصف أنه يمشي معه في طرقات القدس القديمة.

«دخلتُ المدينة مع أول ضوء للفجر،» هكذا بدأ كاتب المجلد، «فرأيتها تستيقظ على صوت الحجارة أكثر مما تستيقظ على أصوات الناس. كان البناؤون قد سبقوا الشمس إلى أماكن عملهم، وارتفعت المطارق فوق الصخور بإيقاع واحد، حتى ظننت أن المدينة كلها تنحت نفسها من جديد.»

رفع آصف رأسه لحظة، ثم عاد إلى القراءة.

«لم يكن البناء يقتصر على القصور، كما يظن من يأتي بعدنا، بل كانت البيوت تُشاد، والطرقات تُعبد، والآبار تُوسع، والأسواق تمتد عامًا بعد عام. كان كل رجل يعمل وهو يعلم أن ابنه سيكمل ما بدأه، وأن حفيده سيضيف إليه شيئًا آخر، حتى أصبحت المدينة كأنها عمل جماعي تشارك فيه أجيال متعاقبة.»

توقف آصف عند هذه العبارة طويلًا، فقد وجد فيها ما رآه بعينيه في بيت الزيتون، وما شاهده في القدس من رجال يعيدون بناء جدار جارهم قبل أن يصلحوا جدران بيوتهم.

تابع القراءة، فإذا بكاتب المجلد يصف سوق المدينة.

«دخلت سوق الحجارة، فرأيت عمران بن شالوم يقف بين العمال، يختار الصخور بعين الخبير. لم يكن يبحث عن أكبرها ولا أجملها، بل عن أصلبها، ثم كان يضربها بإزميله ضربة بعد أخرى، حتى يخرج منها حجر يصلح أن يكون جزءًا من باب أو عمود أو جدار.»

وسألته يومًا: "أما تتعب من هذا العمل؟"

فضحك، ومسح العرق عن جبينه، وقال: ***"يتعب الجسد، أما القلب فلا يتعب حين يعلم أن ما يبنيه اليوم سيحتمي به طفل لم يولد بعد."***

أغلق آصف عينيه لحظة. لم تكن العبارة غريبة عليه.

لقد سمع معناها من الخباز، ومن الفلاح، ومن النجار، لكن الرجل هنا قالها قبل قرون طويلة.

شعر أن خيطًا خفيًا يصل بين أهل فلسطين في كل عصر، وأن الأزمنة تتغير، بينما تبقى الروح واحدة.

واصل القراءة. «وكان عمران، كلما انتهى من نحت حجر، يضع عليه علامة صغيرة لا يلتفت إليها أحد. سألته عن معناها، فقال: ليست توقيعًا، ولا طلبًا للذكر، وإنما أعرف بها الحجر الذي نحتته إذا احتاج إلى إصلاح بعد سنوات. فمن صنع الشيء، كان أولى الناس بإصلاحه.»

ابتسم عبد الرحيم وهو يرى أثر الكلمات في وجه آصف. وقال بهدوء: «هل انتبهت؟»

أجاب آصف دون أن يرفع رأسه: «نعم... لم يكن يفكر في يومه فقط، بل فيمن سيأتي بعده.»

هز الشيخ رأسه في رضا، ثم تركه يكمل.

انتقلت صفحات المجلد إلى وصف المدينة ساعة الغروب. كانت الشمس تميل خلف التلال، فتكسو الحجارة بلون ذهبي، ويبدأ العمال في العودة إلى بيوتهم. عندها تمتلئ الأزقة بالأطفال الذين ينتظرون آباءهم، وتفوح رائحة الخبز من البيوت، بينما تجلس النساء أمام الأبواب يصلحن الثياب، أو ينسجن الصوف، أو يروين للصغار حكايات الأنبياء.

ولم يكن الكاتب يمر بهذه المشاهد مرورًا عابرًا، بل كان يثبتها كما يثبت الرسام ألوان لوحته.

«رأيت امرأة تحمل جرة ماء أثقل من جسدها، فسارع غلام صغير إلى حملها عنها. ورأيت شيخًا ضريرًا يقوده حفيده بين السوق والبيت، فلا يسبقه بخطوة، ولا يترك يده لحظة واحدة. ورأيت طفلين يختلفان على رغيف، فلما خرجت أمهما قسمته بينهما، ثم أخذت قطعة صغيرة لنفسها، وأعادت الباقي إليهما وهي تبتسم.»

ثم كتب في آخر الصفحة: «إذا أراد أحد بعدنا أن يعرف هذه المدينة، فلا يكتف بعدّ أبوابها وأسوارها، بل لينظر كيف يعامل أهلها بعضهم بعضًا، فهناك تكمن حقيقة المدن.»

أغلق آصف المجلد برفق، ثم ظل صامتًا. لم يكن بحاجة إلى تعليق.

لقد بدأ يفهم لماذا بقيت هذه الصفحات محفوظة كل تلك القرون.

فهي لم تكن تروي قصة ملك عظيم فحسب، بل كانت تحفظ حياة مدينة كاملة، بكل ما فيها من تعب وفرح وأمل، حتى إذا جاء زمان تتبدل فيه الأحوال، استطاع من يقرأها أن يعرف أن القدس لم تكن يومًا مجرد حصن أو عاصمة، بل كانت وطنًا عاش فيه بشر أحبوا الحياة، وعمروا الأرض، وتركوا وراءهم ما يستحق أن يبقى في الذاكرة.

ظل آصف يقلب صفحات المجلد في هدوء، حتى استقرت عيناه على صفحة اختلف لون حبرها قليلًا عن الصفحات السابقة، وكأن كاتبها أمسك بالقلم في يوم أثقل من غيره. لم يكن العنوان طويلًا، بل اقتصر على كلمات قليلة: "عام الجفاف الأول." ولم يبدأ الكاتب بذكر الملك، ولا بذكر القادة، وإنما بدأ برجل مجهول وقف في سوق القدس يبيع آخر ما يملك من غنم ليشتري قمحًا لأطفاله.

كتب صاحب المجلد: «لم يكن المطر قد انقطع تمامًا، لكنه تأخر حتى خشي الناس على زرعهم. أخذت العيون تضعف، واصفر العشب في سفوح الجبال، وصار الفلاح كل صباح يرفع بصره إلى السماء أكثر مما ينظر إلى أرضه. ولم يكن الخوف من الجوع وحده، بل من أن تضيع سنة كاملة من أعمار الناس إذا لم تنزل الغيثة في موعدها.»

كانت الكلمات بسيطة، لكنها حملت في داخلها قلق مدينة بأكملها.

ومع تقدم الصفحات، بدأ الكاتب يصف كيف تغيرت الحياة دون أن تتوقف. صار الخباز يخبز أرغفة أصغر من عادته حتى يكفي الطحين أكبر عدد من الأسر، وأخذ التجار يبيعون السلع بالثمن الذي

يستطيع الفقير دفعه، بينما اتفق الفلاحون على أن يتناوبوا السقي من الآبار القليلة التي بقي فيها ماء، حتى لا يظلم أحد جاره.

ثم كتب:

«وفي تلك الأيام، رأيت عمران بن شالوم يترك ورشة البناء قبل الظهر لأول مرة منذ عرفته. تبعته، ظانًا أنه مرض أو تعب، فإذا به يتجه إلى بيته، ثم يخرج بعد قليل يحمل أكياسًا من الشعير كان قد ادخرها لأسرته. مضى بها إلى ساحة السوق، ووزعها على ثلاث عائلات فقدت محصولها، ثم عاد إلى عمله كأن شيئًا لم يكن.»

توقف الكاتب عند هذه الحادثة، وأضاف:

«سألته: أما تخشى أن تحتاج إليها أنت؟ فقال: إذا جاع جاري اليوم، فلن يشبع أولادي غدًا. المدينة التي يجوع فيها بعض أهلها، لا ينجو فيها أحد.»

تنهد آصف وهو يقرأ، فقد تذكر كلمات عبد الرحيم حين قال له إن الأوطان لا تبنى بالحجارة وحدها، بل بالقلوب التي تسكنها. غير أن المجلد لم يكن يشرح هذه الحقيقة، بل يجعلها تمشي على قدمين في صورة رجل بسيط، اقتسم قوت أسرته مع غيره.

انتقل السرد بعد ذلك إلى مشهد آخر، أشد وقعًا.

«خرجت مع طلوع الشمس إلى أطراف المدينة، فرأيت الأطفال يقفون عند أطراف الحقول اليابسة، ينظرون إلى آبائهم وهم يقلبون التراب بأمل لا يعرف اليأس. لم يكن في الأرض ما يبشر بمحصول قريب، ومع ذلك لم يتوقف أحد عن العمل. سألت شيخًا جاوز السبعين: لِمَ تحرث أرضًا عطشى؟ فابتسم وقال: لأن الأرض تسمع أصحابها. فإذا هجرتها في الشدة، هجرتك في الرخاء.»

قرأ آصف العبارة أكثر من مرة، ثم رفع رأسه نحو عبد الرحيم. لم يتكلم الشيخ.

اكتفى بالنظر إليه، ثم أشار إلى المجلد، وكأنه يقول له: دع الشهود يكملون حديثهم.

عاد آصف إلى القراءة.

«وفي مساء ذلك اليوم، اجتمع أهل القدس في الساحة الكبرى، لا ليشكو بعضهم إلى بعض، بل ليتشاوروا. كان بين الحاضرين البناؤون، والحدادون، والفلاحون، والوراقون، وأصحاب الدكاكين، وحتى الرعاة الذين نزلوا من التلال. لم يسأل أحد: ماذا سأربح؟ بل كان السؤال الذي يتكرر على كل لسان: كيف نعبر هذه الأيام جميعًا؟»

ثم أضاف الكاتب في نهاية الصفحة:

«تعلمت في ذلك المجلس أن قوة المدن لا تقاس بعدد جنودها، بل بعدد الرجال الذين يضعون مصلحة الناس قبل مصلحتهم. فإذا فعلوا ذلك، مرت الشدائد، وبقيت المدينة.»

أغلق آصف الصفحة ببطء، ولم يشعر أنه يقرأ أحداثًا مضى عليها الزمن، بل أحس أن الوجوه التي امتلأت بها السطور أصبحت مألوفة لديه؛ عمران النحات، والشيخ الفلاح، والخباز، والأطفال الواقفون عند الحقول. كانوا جميعًا أشخاصًا عاديين، لكنهم، من حيث لا يعلمون، صاروا حراسًا لذاكرة مدينة كاملة، لأنهم اختاروا أن يكونوا أوفياء لأرضهم وللناس الذين عاشوا معهم.

وفي تلك اللحظة، أدرك آصف أن سر هذا المجلد لم يكن في دقة تواريخه، ولا في جمال لغته، وإنما في أنه جعل الإنسان البسيط بطلًا للتاريخ، بعد أن اعتادت كتب الملوك أن تجعل التاريخ حكرًا على أصحاب التيجان.

مرّت دقائق طويلة، ولم يقطع الصمت في الغرفة سوى صوت تقليب الصفحات. كان آصف يقرأ ببطء، لا لأنه يعجز عن متابعة السطور، بل لأنه أصبح يخشى أن يفوته تفصيل صغير قد يبدو عابرًا، ثم يتبين بعد صفحات أنه مفتاح لفهم حكاية كاملة. وقد لاحظ أن كاتب المجلد لم يكن يكتب كل يوم، بل كان يختار الأيام التي شعر فيها أن الزمن قد ترك أثرًا لا ينبغي أن يضيع. وفي الصفحة التالية، وجد عنوانًا جديدًا: "اليوم الذي دخل فيه الملك السوق." استغرب آصف.

كان يتوقع أن يجد وصفًا لمجلس الحكم أو لقصر الملك، لكنه وجد السطور تبدأ من السوق مرة أخرى.

«خرجت مع الفجر كعادتي، فوجدت السوق قد امتلأ بالناس على غير عادته. لم يكن سبب ذلك وصول قافلة كبيرة، ولا قدوم تجار من بلاد بعيدة، بل لأن خبرًا انتشر بين الناس يقول إن الملك سليمان عليه السلام سيخرج من قصره، ويطوف بين الأسواق دون موكب ولا مظاهر عظمة، ليرى أحوال الناس بنفسه.»

ارتسمت الدهشة على وجوه التجار، وأخذ كل واحد منهم ينظف دكانه، لا خوفًا من العقاب، بل احترامًا للرجل الذي عُرف بالعدل. أما الأطفال فقد صعد بعضهم فوق الدرجات الحجرية، بينما وقفت النساء عند أبواب البيوت يراقبن الطريق في هدوء.

ومضت ساعة، ثم ساد المكان صمت مفاجئ.

«رأيت رجلًا يتقدم بخطوات هادئة، لا تحيط به إلا قلة من الحراس. لم يكن يلبس ثوبًا يختلف كثيرًا عن ثياب قومه، لكن هيبته كانت تسبقه. كان كلما مر على صاحب دكان رد عليه السلام، وكلما رأى طفلًا ابتسم له، حتى بدا كأنه يعرف المدينة كما يعرف الرجل بيته.»

توقف الكاتب قليلًا، ثم أضاف:

«ولما بلغ طرف السوق، رأى شيخًا يجلس إلى جانب كومة من الحجارة، وقد انكسر أحد ألواح عربته. كان الشيخ يحاول إصلاحها، لكن يديه لم تعودا قادرتين على حمل الخشب كما كانتا في شبابه.»

قرأ آصف السطور التالية بتركيز شديد. «توقف الملك عنده، وسأله: ما الذي يشغلك يا عم؟»

فأجاب الشيخ، دون أن يعرف من يخاطبه: «أخشى أن يفسد التين قبل أن أصل إلى السوق.»

ابتسم الرجل الذي أمامه، وأمسك باللوح المكسور، ثم دعا أحد النجارين القريبين، وساعده في تثبيته حتى عادت العربة صالحة للسير. ولما همَّ بالانصراف، عرف الشيخ من همس الناس أنه كان يقف أمام الملك.

أراد أن ينهض معتذرًا، لكن سليمان عليه السلام أشار إليه أن يبقى مكانه، وقال:

«من خدم الناس، خدم ملكه، ومن أعان ضعيفًا، فقد أعان نفسه.»

ظل الشيخ يبكي حتى غاب الملك عن بصره. أما كاتب المجلد، فقد ختم الحادثة بقوله:

«لم يكن أعجب ما رأيت أن ملكًا أصلح عربة شيخ، بل أعجب ما رأيت أن الناس عادوا بعد ذلك يساعد بعضهم بعضًا، كأن فعلًا واحدًا أيقظ في المدينة خلقًا كان ساكنًا في القلوب.»

خفض آصف المجلد قليلًا، وغرق في التفكير. قال بعد صمت «إذن لم يكن الكاتب يجمع الأخبار الكبرى فقط.»

أجابه عبد الرحيم، وهو ينظر إلى المصباح الذي بدأ زيته ينفد: «لأن الخبر الكبير يولد أحيانًا من موقف صغير. قد يذكر المؤرخ أن سليمان حكم سنين طويلة، لكن هذا الموقف هو الذي يخبرك كيف كان الناس يشعرون بالعدل في أيامه.»

أعاد آصف فتح المجلد. وكانت الصفحة التالية تحمل رسمًا صغيرًا بالحبر، يمثل ميزانًا تتساوى كفتاه.

تحت الرسم كتب الناسخ عبارة واحدة: «إذا استقام العدل، اطمأنت الأسواق، وعمرت البيوت، وأثمرت الحقول.»

ابتسم آصف ابتسامة خفيفة. لقد بدأ يفهم أسلوب أول أمناء الذاكرة.

لم يكونوا يكتبون التاريخ كما يكتبه الكتبة في قصور الملوك، بل كما يراه الناس في أسواقهم وحقولهم وبيوتهم. ولذلك بقيت كلماتهم حية، لا لأنها تحدثت عن العظماء وحدهم، بل لأنها حفظت حياة البسطاء الذين صنعوا، بصبرهم وأعمالهم، عظمة ذلك العصر.

أدار آصف الصفحة التالية، فإذا بخط الناسخ يختلف قليلًا، كأن يده ارتجفت وهو يكتب، أو كأن الزمن الذي يصفه كان أثقل من أن تحمله الكلمات بسهولة. وكان عنوان الصفحة: "الرحلة إلى غابة الأرز."

كتب صاحب المجلد:

«في السنة السابعة من أعمال البناء، خرجت قوافل كثيرة من القدس متجهة إلى الشمال لاستقبال أخشاب الأرز التي أُعدت للبناء. ولم تكن القوافل تحمل الجنود وحدهم، بل كان فيها النجارون، والحدادون، وصناع الحبال، والكتبة الذين يدونون ما يدخل وما يخرج، حتى لا يضيع حق أحد، ولا يختلط عمل رجل بعمل غيره.»

ثم تابع: «رافقت إحدى تلك القوافل، لأن الحارس لا يكتفي بما يسمعه، بل يسير إلى الحدث ما استطاع إليه سبيلًا.»

توقف آصف عند هذه العبارة. ابتسم عبد الرحيم وقال: «لقد لاحظتها.»

أجاب آصف: «كان يسافر بنفسه.»

قال الشيخ: «وهذه أول قاعدة في عمل الحارس. ما تراه بعينك يختلف عما تسمعه من أفواه الناس.»

عاد آصف إلى المجلد.

«استغرقت الرحلة أيامًا. عبرنا التلال والوديان، ونزلنا في قرى لم أرها من قبل. وفي كل قرية كان الناس يسألون عن القدس أكثر مما يسألون عن بضائعنا. كانوا يريدون أن يعرفوا كيف تتقدم أعمال البناء، وهل صحيح أن المدينة تتغير يومًا بعد يوم كما تتناقل الأخبار.»

ثم كتب: «عجبت من تعلق الناس بالمدينة، حتى من لم يسكنها قط. وأدركت أن المدن العظيمة لا يعيش فيها أهلها وحدهم، بل تعيش في قلوب من يحلمون بزيارتها.»

واصل السرد حتى وصل إلى مشهد مختلف.

«حين بلغنا غابة الأرز، وقفت طويلًا أنظر إلى الأشجار. كانت ترتفع نحو السماء في مهابة، حتى يخيل للناظر أنها أعمدة تحمل السحاب. ورأيت العمال يقطعون الأشجار التي وقع عليها الاختيار بعناية، فلا يمسون شجرة قبل أن يتأكدوا أنها بلغت من العمر ما يجعلها صالحة للبناء، ولا يقطعون أكثر مما يحتاجون إليه.»

اقترب الكاتب من أحد الشيوخ الذين كانوا يشرفون على العمل، وسأله: "أما تخشون أن تفنى هذه الغابة؟"

ابتسم الشيخ، ثم أشار إلى مجموعة من الفتيان يغرسون شتلات صغيرة في أماكن متفرقة، وقال:

"كل شجرة نأخذها، نغرس مكانها شجرتين. لسنا ورثة الأرض وحدنا، بل نحن أمناؤها حتى نسلمها لمن بعدنا."

ساد الصمت في الغرفة. لم يقل عبد الرحيم شيئًا.

أما آصف، فقد شعر أن العبارة لم تكن تتحدث عن الأشجار فقط، بل عن المجلدات أيضًا، وعن الأمناء الذين ينسخونها جيلاً بعد جيل. وأكمل الكاتب:

«وفي طريق العودة، اشتدت الرياح حتى كادت تفرق القافلة، فانقطعت إحدى العربات عن الركب، وكانت تحمل أدوات النجارين. ترك بعض الرجال أحمالهم، وعادوا إليها، ودفعوا العربة بأكتافهم حتى خرجت من الوحل. ولم يسأل أحدهم: لمن هذه الأدوات؟ لأنهم كانوا يعلمون أن العمل الذي ينتظرهم في القدس لن يكتمل إذا ضاع جزء واحد منه.»

ثم ختم الصفحة بقوله: «ذلك اليوم علمني أن البناء لا يحتاج إلى حجارة وخشب فحسب، بل يحتاج إلى رجال يعرف كل واحد منهم أن نجاحه لا ينفصل عن نجاح من يعمل إلى جواره.»

أغلق آصف المجلد قليلًا، ثم نهض واتجه إلى النافذة الصغيرة في الدير. كانت الشمس تميل إلى المغيب، وأخذت أشعتها الأخيرة تتسلل بين الصخور، فتغمر الغرفة بلون ذهبي يشبه لون الصفحات القديمة.

قال بصوت خافت: «أشعر كأنني عشت معهم.» ابتسم عبد الرحيم، ونهض هو الآخر حتى وقف إلى جانبه.

ثم قال: «وهذا هو سر هذه المجلدات. فإذا جاء يوم يقرأها فيه رجل بعد مئات السنين، وشعر أنه يعرف عمران النحات، والشيخ الذي غرس الأشجار، والعمال الذين دفعوا العربة في الوحل، فاعلم أن الحارس الأول أدى أمانته كما ينبغي.»

عاد آصف إلى مكانه، ووضع يده على غلاف المجلد برفق، وقد بدأ يدرك أن هذه الصفحات لم تكن تحفظ أخبار عصر مضى فحسب، بل كانت تبني جسرًا بين الأحياء والراحلين، حتى يبقى كل جيل قادرًا على أن يسمع نبض الذين سبقوه، وكأن الزمن لم يفصل بينهم إلا بضع خطوات.

كان الليل قد أرخى سدوله على الدير القديم، ولم يبق في الغرفة سوى ضوء المصباح الذي أخذ يتراقص مع حركة الهواء. أغلق عبد الرحيم المجلد برفق، ثم قال لآصف: «يكفي لهذا اليوم.»

لكن آصف لم يستطع أن يبعد عينيه عن الغلاف الجلدي.

قال في هدوء: «أشعر أنني تركت الرجل في منتصف حكايته.»

ابتسم الشيخ. «وهذا ما أراده كاتب المجلد. لو روى لك كل شيء في ليلة واحدة، لما عدت إليه غدًا.»

أطفأ عبد الرحيم المصباح، وساد الظلام إلا من خيط فضي كان يتسلل عبر نافذة ضيقة، مصدره ضوء القمر.

استلقى آصف، لكنه لم يستطع النوم.

كانت صورة عمران بن شالوم لا تفارق خياله؛ الرجل الذي كان ينحت الحجارة وهو يقول إن طفلًا لم يولد بعد سيدخل يومًا من باب صنعته يداه.

تساءل في نفسه: كيف كانت القدس في ذلك الزمن؟

كيف كانت أصوات الناس؟

كيف كانت رائحة الأسواق؟

وكيف كان ذلك الرجل يعيش يومه؟

أغمض عينيه...

ارتفع صوت المطرقة.

ثم ارتفع مرة ثانية.

وثالثة.

فتح آصف عينيه مذعورًا. لم يعد يرى سقف الدير الحجري.

بل رأى سماء زرقاء صافية، وشمسًا مشرقة، وغبارًا أبيض يتطاير في الهواء.

كان يقف في وسط ورشة واسعة، يحيط بها عشرات الرجال. كل واحد منهم يحمل مطرقة أو إزميلًا أو منشارًا.

وتتعالى أصواتهم وهم يقطعون الحجارة الضخمة. التفت حوله في دهشة. كان كل شيء حيًا.

الريح. والغبار. والأصوات. ورائحة الخشب القادم من الشمال. سمع رجلًا ينادي بصوت جهوري:

«يا عمران... هذه الكتلة تحتاج إليك.»

التفت آصف نحو الصوت.

فرأى رجلًا قوي البنية، تجاوز الأربعين بقليل، تغطي ذراعيه آثار العمل الطويل، بينما اختلط الشيب بلحيته السوداء. وضع الرجل مطرقته على كتفه، وسار نحو الصخرة الكبيرة.

ابتسم لأصحابه، ثم قال: «لا تضربوا الحجر بغضب... الحجر يفهم اليد الهادئة أكثر من اليد الغاضبة.»

ضحك العمال. وقال أحدهم: «بل أنت الذي يفهم الحجارة يا عمران.»

اقترب عمران من الصخرة، ووضع راحة يده عليها.

أغمض عينيه لحظة. ثم طرقها طرقات خفيفة. كان يصغي إلى صوتها. وبعد لحظات، ابتسم.

وقال: «فيها شق خفي... لو استعملناها في الأساس، انهار الجدار بعد سنين.»

نظر العمال إلى بعضهم باستغراب. أما كبير البنائين، فقد اقترب، وضرب الصخرة بالمطرقة.

وما إن فعل، حتى انشقت من الداخل فعلًا.

ساد الصمت. ثم قال كبير البنائين وهو ينظر إلى عمران بإعجاب: «لو لم تكن هنا، لضاع شهر كامل من العمل.»

ابتسم عمران، وأجاب في تواضع: «لم أنقذ شهرًا من العمل... بل أنقذت بيتًا سيسكنه أناس لا أعرف أسماءهم.»

في تلك اللحظة، شعر آصف أنه لم يعد يقرأ عن عمران.

بل أصبح يقف إلى جواره. يسمع أنفاسه. ويرى العرق ينحدر من جبينه. ويسمع صوت المطارق يملأ القدس كلها.

وفجأة...

انطلق صوت بوق من أعلى التل. توقفت المطارق دفعة واحدة. رفع الجميع رؤوسهم نحو المدينة.

كان فارس يهبط مسرعًا من الطريق المؤدي إلى القصر.

ترجل عن حصانه قبل أن يتوقف تمامًا، وصاح بصوت سمعه جميع العمال: «أمرٌ من الملك سليمان... يتوقف العمل في الجهة الشرقية فورًا.»

ساد الصمت.

تبادل الرجال النظرات. أما عمران، فقد وضع مطرقته على الأرض ببطء، وحدق في وجه الفارس. لم يكن في الأمر ما يدعو إلى التوقف عادة. فالبناء لم يكن يتوقف إلا إذا وقع أمر جلل.

اقترب كبير البنائين، وسأل: «ماذا حدث؟»

نظر الفارس إلى الوجوه الملتفة حوله، ثم قال: «لقد اكتشف العمال أثناء الحفر... شيئًا لم يكن أحد يتوقع وجوده تحت أساسات المدينة القديمة.»

ولم ينطق بكلمة أخرى.

ساد الصمت في الورشة، ولم يعد يُسمع سوى صوت أنفاس الرجال الذين تركوا أدواتهم حيث كانت. نظر بعضهم إلى بعض في حيرة، بينما أسرع كبير البنائين نحو الفارس، وقال بصوت خافت كأنه يخشى أن يسمعه الحجر نفسه: «أتقصد أن أحدًا أصيب؟»

هز الفارس رأسه نافيًا.

«ليس الأمر كذلك. لقد انهارت طبقة من الأرض أثناء الحفر، فانكشف مدخل قديم منحوت في الصخر. أمر الملك بإيقاف العمل حتى يحضر بنفسه، فلا يمس أحد المكان، ولا تُنقل منه قطعة واحدة.»

انتشر الخبر بين العمال انتشار النار في الهشيم. فمنذ بدأت أعمال البناء، اعتاد الناس أن يجدوا حجارة قديمة أو آبارًا مطمورة أو بقايا جدران اندثرت، أما أن يظهر بناء كامل تحت الأرض، فذلك أمر لم يشهده أحد منهم.

تقدم عمران بخطوات هادئة، وحمل مطرقته، ثم أعادها إلى صندوق الأدوات بدل أن يتركها على الأرض.

نظر إليه أحد العمال وقال ضاحكًا: «ولِمَ تعيدها إلى مكانها؟ لعلنا نعود بعد ساعة.»

ابتسم عمران وهو يغلق الصندوق.

«الرجل لا يعرف متى ينتهي يومه، لكنه يعرف أين يضع أمانته.»

لم تكن تلك أول مرة يقول فيها عبارة تبدو بسيطة، ثم يكتشف من حوله أنها تحمل معنى أعمق مما ظنوا.

سار الرجال خلف الفارس حتى بلغوا موضع الحفر في الجهة الشرقية من المدينة. كانت الأرض قد انخفضت في جزء منها، واصطف الحراس حول المكان يمنعون الناس من الاقتراب. وقف العمال على مسافة، بينما كان الغبار لا يزال يتصاعد من الحفرة، وقد امتزج برائحة التراب الرطب الذي لم تمسه الشمس منذ زمن بعيد.

اقترب عمران قليلًا، لكنه توقف قبل أن يتجاوز الحبل الذي نصبه الحراس.

لم يكن فضوليًا بطبعه، وكان يؤمن أن لكل أمر وقته.

وبينما هو واقف، لمح شيخًا طاعنًا في السن يجلس على صخرة غير بعيدة، يراقب المكان بعينين غارقتين في الذكريات.

اقترب منه، وسلم عليه. رفع الشيخ رأسه، ورد السلام، ثم قال: «كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي.»

نظر إليه عمران في دهشة. «أتعرف هذا المكان؟»

أجاب الشيخ وهو يشير بعصاه إلى الحفرة: «كنت صغيرًا حين كان جدي يحدثني عن مدينة أقدم من هذه، قال إنها كانت تقوم هنا قبل أجيال بعيدة، ثم ابتلعها الزمن، حتى ظن الناس أنها لم تكن يومًا.»

ساد بينهما صمت قصير. ثم أضاف الشيخ: «كان يقول لي دائمًا: الأرض تحفظ أكثر مما يحفظ البشر.»

وصلت كلمات الشيخ إلى قلب عمران، لكنها وصلت أيضًا إلى قلب آصف، الذي كان يشعر وكأنه يقف إلى جوارهما، يسمع الحديث ويرى المشهد بعينيه.

ولم تمض دقائق حتى ارتفع غبار آخر في الطريق المؤدي من القصر.

شق موكب صغير طريقه بين الناس، ولم يكن يشبه مواكب الملوك التي تملأ الطرق صخبًا. تقدم الفرسان أولًا، ثم جاء رجال من أهل العلم والكتبة، يتبعهم عدد من القضاة، وفي وسطهم سار سليمان عليه السلام بهدوء، تحيط به هيبة لا تصنعها الثياب ولا التيجان، وإنما يصنعها الوقار.

تنحى الناس جانبًا في صمت. ولم ينحنِ أحد خوفًا، بل احترامًا. وقف الملك عند حافة الحفرة، ولم يتكلم.

ظل ينظر إلى الصخور المنهارة طويلًا، ثم طلب حبلًا ومصباحًا زيتيًا. تقدم أحد القادة وقال: «يا نبي الله، دع أحدنا ينزل أولًا.» فأجابه سليمان عليه السلام بهدوء: «***إذا حمل الرجل أمانة الناس، وجب أن يرى بعينه قبل أن يحكم بلسان غيره.***»

ربط الحبل حول وسطه، ونزل برفقة رجلين من البنائين، كان أحدهما عمران. شعر عمران بشيء من الرهبة، لكنه لم يظهرها. كان المصباح يبدد الظلام شيئًا فشيئًا، حتى بدأت ملامح المكان تتضح.

ظهرت درجات حجرية منحوتة بإتقان، تنزل إلى ممر ضيق، تغطي جدرانه طبقة سميكة من الغبار. وعلى جانبي الممر نقوش قديمة لم يعرف أحد ممن معهم لغتها.

توقف سليمان عليه السلام عند أول نقش، وأمر الكتبة ألا يلمسه أحد. ثم التفت إلى عمران وسأله: «أأنت أول من رأى هذا الموضع؟»

أجاب في احترام: «لا يا سيدي، لقد كشفته المعاول، أما نحن فلم نر منه إلا ما أذن الله أن يظهر.»

ابتسم سليمان عليه السلام، وقال: «حسنًا أجبت.»

ثم رفع المصباح نحو السقف، فرأى الجميع أن الممر لا ينتهي عند هذا الحد، بل يمتد إلى عمق أكبر، وكأن الأرض ما زالت تخفي أسرارًا لم يحن وقت ظهورها بعد.

وفي تلك اللحظة، أدرك عمران أنه لم يعد يقف في ورشة بناء فحسب، بل على عتبة قصة ستظل تُروى طويلًا، وأن ما سيجري في هذا المكان لن يصبح جزءًا من تاريخ المدينة وحدها، بل سيجد طريقه إلى المجلد الذي سيحمله الأمناء جيلًا بعد جيل، حتى يقرؤه رجل لم يولد بعد، كما يقرؤه آصف الآن بعد مئات السنين.

تقدم الرجال في الممر الحجري بخطوات حذرة. كان الهواء في الداخل باردًا على غير عادة صيف القدس، حتى إن شعلة المصباح أخذت ترتجف كلما مروا بمنعطف ضيق. لم يكن المكان يشبه المغارات التي عرفها البناؤون من قبل، بل بدا كأنه جزء من بناء متقن، شُيد بعناية ثم غطته طبقات الأرض عبر أزمان طويلة.

كانت الجدران ملساء، نُحتت من الصخر نفسه، وعلى امتدادها ظهرت رسوم هندسية متكررة، تتخللها كتابات لم يعرفها أحد من الحاضرين. اقترب أحد الكتبة، وأخرج ألواحًا من الرق، ثم جلس على ركبتيه يرسم تلك النقوش كما هي، دون أن يغير فيها خطًا أو يزيد عليها علامة.

نظر إليه سليمان عليه السلام وقال: «لا تكتب ما تظنه... اكتب ما تراه.»

أطرق الكاتب رأسه احترامًا، ثم أعاد النظر إلى الجدار، وأخذ ينقل الخطوط بدقة أكبر.

وقف عمران غير بعيد يراقب المشهد. كان قد أمضى عمره بين الحجارة، لكنه لم يرَ في حياته بناءً احتفظ بكل هذا التماسك بعد أن مرت عليه قرون لا يعلم عددها إلا الله. مد يده نحو أحد الأعمدة، ثم تراجع قبل أن يلمسه. التفت إليه سليمان عليه السلام وقال: «ما الذي منعك؟»

أجاب عمران في أدب: «خشيت أن أفسد أثرًا بقي محفوظًا كل هذه السنين.»

ابتسم سليمان عليه السلام ابتسامة هادئة، وقال: «ومن عرف قيمة الأثر، عرف قيمة الزمن.»

تابعوا السير حتى انتهى الممر إلى قاعة واسعة تتوسطها منصة حجرية منخفضة، لا نقش عليها ولا زينة، كأن من بناها أراد لها أن تؤدي غرضًا لا أن تجذب الأنظار. وعلى أطراف القاعة تراكمت أوانٍ فخارية تحطم أكثرها، وبقي بعضها سليمًا رغم مرور السنين.

انحنى أحد البنائين ليلتقط قطعة من الفخار، فأوقفه سليمان عليه السلام بإشارة من يده، ثم قال: «دعها في مكانها.»

استغرب الرجل، فسأله: «يا نبي الله، إنها مكسورة، ولن ينتفع بها أحد.»

أجابه: «قد لا تنفعنا هي، لكن موضعها قد يخبر من يأتي بعدنا بما لا تخبره ألف كلمة.»

نظر عمران إلى موضع القطعة المكسورة، ثم إلى الكتبة الذين أخذوا يرسمون القاعة كما هي، حجرًا بعد حجر، وشعر أن حفظ الذاكرة لا يكون بجمع الأشياء فقط، بل بحفظ سياقها أيضًا.

وفي أثناء انشغال الجميع بتدوين ما وجدوه، لفت انتباه عمران شيء صغير عند أسفل الجدار الشرقي. كان خيطًا من الضوء يتسلل من شق ضيق لا يكاد يُرى. اقترب منه، وجثا على ركبتيه، ثم أزاح بيده قليلًا من التراب المتراكم.

ظهر طرف صندوق خشبي، اسودّ لونه من الرطوبة، لكنه بقي متماسكًا على نحو يثير الدهشة.

لم يمد عمران يده إليه، بل نادى بهدوء: «يا نبي الله... أظن أن في هذا الموضع شيئًا.»

اقترب سليمان عليه السلام، وانحنى يتأمل المكان، ثم أمر بإزالة التراب برفق، مستخدمين ألواحًا خشبية صغيرة بدل المعاول، حتى لا يتلف ما قد يكون مدفونًا.

استغرق العمل وقتًا طويلًا، فلم يكن أحد يستعجل. وكلما انكشف جزء جديد من الصندوق، ازداد حرص الرجال على ألا تمسه أداة حادة. وأخيرًا، ظهر الصندوق كاملًا.

كان صغير الحجم، تحيط به أشرطة نحاسية علاها الصدأ، ولا يحمل أي زخرفة تميزه. نظر أحد القادة إلى سليمان عليه السلام وقال: «أنفتحه؟»

ظل سليمان عليه السلام صامتًا لحظات، ثم قال: «قبل أن نفتح ما تركه من سبقنا، علينا أن نثبت كيف وجدناه.»

فأمر الكتبة أن يرسموا موضع الصندوق، ويقيسوا المسافة بينه وبين الجدران، وأن يدونوا كل ما يتعلق بالمكان قبل أن يتحرك شيء واحد.

وقف عمران يتابع ذلك بإعجاب.

لقد أدرك أن الحكمة لا تظهر في سرعة الاكتشاف، بل في الصبر الذي يسبق الاكتشاف. وبعد أن انتهى الكتبة من عملهم، أذن سليمان عليه السلام برفع الصندوق. حمله عمران مع اثنين من رفاقه، ووضعوه فوق المنصة الحجرية في وسط القاعة. ساد المكان صمت عميق. حتى أنفاس الرجال بدت مسموعة. تقدم سليمان عليه السلام، ووضع يده على الغطاء الخشبي، ثم قال بهدوء: «بسم الله.»

ورفع الغطاء ببطء...

فتعلقت أبصار الجميع بما كان يخفيه الصندوق، بينما بقي عمران واقفًا لا يدري أهو على وشك أن يرى كنزًا من ذهب، أم أثرًا من علم، أم سرًا سيغير فهمهم لتاريخ هذه الأرض.

ارتفع الغطاء ببطء، وانحنى الرجال جميعًا ينظرون إلى داخل الصندوق. لم يكن فيه ذهب يلمع، ولا أحجار كريمة، ولا تيجان ملوك كما تخيل بعضهم. كان يحتوي على لفائف من الرق، وألواح صغيرة من الخشب، وخاتم نحاسي بسيط، وسكين للكتابة، ومحبرة جف حبرها منذ زمن بعيد.

ساد صمت طويل.

نظر بعض العمال إلى بعضهم في دهشة، فقد كانوا ينتظرون كنزًا يملأ الأبصار، فإذا بهم يجدون أدوات رجل مجهول.

أما سليمان عليه السلام، فقد علت وجهه ابتسامة هادئة، وقال: «هذا أعظم مما ظننتم.»

اقترب أحد الكتبة وسأل في أدب: «وكيف يكون هذا أعظم من الذهب يا نبي الله؟»

فأجاب: «لأن الذهب يخبرك بما كان يملكه الناس، أما هذه الرقوق فقد تخبرك كيف كانوا يعيشون.»

أمر بإخراج اللفائف واحدة بعد أخرى، ووضعها على قماش نظيف، ثم جلس الكتبة حولها في دائرة، بينما وقف البناؤون بعيدًا يراقبون في صمت. كانت بعض الرقوق قد أكلتها الرطوبة، وبعضها الآخر بقي صالحًا للقراءة، وإن بهتت حروفه بفعل السنين.

فتح الكاتب الأكبر أول لفافة بحذر شديد، وأخذ يقرأ بصوت خفيض.

لم تكن رسالة من ملك، ولا معاهدة حرب، بل سجلًا كتبه رجل عرف نفسه بأنه «كاتب مخزن الغلال». كان يدون مقدار القمح الذي دخل المدينة، وما خرج منها في سنوات الخصب، وما وزع على الفقراء في سنوات القحط، وعدد العمال الذين شاركوا في إصلاح قنوات الماء.

توقف الكاتب عن القراءة، وقال متعجبًا: «هذا الرجل لم يكتب اسمه كاملًا.»

فأجاب سليمان عليه السلام: «لأنه أراد أن يبقى العمل، لا أن يبقى اسمه.»

ثم فُتحت لفافة ثانية، فإذا فيها أسماء صناع وحرفيين، وإلى جانب كل اسم نوع العمل الذي أتقنه وعدد من تعلموا الصنعة على يديه. قرأ الكاتب: «إليعازر النجار... علم سبعة فتيان. حنان الحداد... علم خمسة. عمران بن شالوم... لم يرد اسمه بعد.»

ابتسم عمران في حياء، وقال: «الحمد لله، فما زلت حيًا.»

فضحك الرجال، وانكسر شيء من رهبة المكان.

لكن سليمان عليه السلام بقي ينظر إلى الرقوق في تأمل عميق، ثم قال: «الأمم لا تبقى لأن ملوكها كانوا أقوياء، بل لأنها تحفظ العلم، وتورث الخبرة، ولا تدع عمل الرجل ينتهي بموته.»

كانت تلك الكلمات تستقر في قلب عمران كما تستقر في قلب آصف، الذي شعر أن المسافة بين زمنه وزمن المجلد قد اختفت تمامًا.

وبينما كان الكتبة يرتبون الرقوق، التقط عمران اللوح الخشبي الصغير الذي كان في قاع الصندوق. قلبه بين يديه، ثم ناوله إلى الكاتب الأكبر.

قال: «على هذا شيء لم أنتبه إليه.»

أخذ الكاتب اللوح، ومسح عنه ما علق به من غبار، ثم قربه من ضوء المصباح.

كانت عليه كلمات قليلة، لكنها كُتبت بخط واضح ومتقن:

«إذا وجدتَ هذا الصندوق، فلا تبحث عمن دفنه، بل احفظ ما فيه لمن يأتي بعدك، كما حفظناه نحن لمن بعدنا.»

ساد الصمت مرة أخرى.

لم يعرف أحد من كتب تلك العبارة، ولا متى كتبت، لكن الجميع شعر أنها لم تكن موجهة إلى رجال ذلك العصر وحدهم، بل إلى كل من سيأتي بعدهم.

نظر سليمان عليه السلام إلى عمران، ثم إلى الكتبة، وقال: «سيبقى هذا الصندوق حيث وجد، بعد أن تُنسخ هذه الرقوق حرفًا حرفًا. أما الأصل، فلا يخرج من موضعه إلا إذا خيف عليه الضياع.»

رفع عمران رأسه في دهشة، فقد تذكر على الفور ما كان يفعله هو مع الحجارة؛ لا ينقلها من مكانها حتى يعرف سبب وجودها. وأدرك أن حفظ الماضي لا يكون بالاستيلاء عليه، بل بصيانته واحترام موضعه.

أما آصف، فقد أغلق عينيه لحظة وهو يقرأ آخر السطور، وشعر بقشعريرة تسري في جسده. لم يكن السبب ما وجدوه داخل الصندوق، بل تلك الجملة الأخيرة التي بدت وكأنها تخاطبه هو شخصيًا، بعد مئات السنين.

لقد فهم الآن لماذا ظل الأمناء يتنقلون بالمجلدات من عصر إلى عصر، ولماذا كانوا ينسخونها دون أن يغيروا حرفًا واحدًا. لم يكونوا مجرد كتبة، بل كانوا الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة بدأت قبلهم بقرون، وربما ستستمر قرونًا أخرى بعد أن يرحلوا جميعًا.

استغرقت عملية نسخ الرقوق ثلاثة أيام كاملة. لم يغادر خلالها أحد من الكتبة القاعة إلا لساعات قليلة، يتناوبون على العمل حتى لا ترهق أعينهم، بينما بقي البناؤون في الخارج يواصلون أعمالهم في الأجزاء الأخرى من المدينة. أما عمران، فقد كان ينزل كل صباح إلى الموضع القديم، يجلس في طرف القاعة الحجرية، ويراقب الكتبة بصمت، ثم يعود إلى ورشته قبل الظهيرة.

كان يشعر أن المكان لم يعد مجرد بناء قديم، بل صار أمانة تشارك في حملها المدينة كلها.

وفي صباح اليوم الرابع، دخل أحد الكتبة يحمل آخر الرقوق التي انتهى من نسخها، ووضعها أمام سليمان عليه السلام، ثم قال: «تم الأمر كما أمرت يا نبي الله، ولم نهمل حرفًا واحدًا.»

تناول سليمان النسخة الجديدة، وقلب صفحاتها بتمهل، ثم ناولها إلى الكاتب الأكبر.

وقال: «احفظوها في دار السجلات، وأعيدوا الأصول إلى موضعها.»

ولم يكن في كلامه ما يدل على اهتمام بامتلاك تلك الرقوق أو عرضها على الناس، بل كان همه أن تبقى محفوظة، وأن يعرف من يأتي بعدهم كيف وجدت وأين وجدت.

خرج الرجال من القاعة، ولم يبق فيها إلا عمران وعدد قليل من العمال الذين أعادوا الصندوق إلى مكانه، ثم أغلقوا الفتحة بالحجارة نفسها التي رفعت منها، حتى لا يختلف شكل الأرض عما كان عليه من قبل.

وقبل أن يغادر عمران، التفت إلى الموضع مرة أخيرة، ثم قال في نفسه: «سيأتي يوم ينسى الناس أننا كنا هنا، لكنهم سيجدون ما تركناه إن كانوا أمناء.»

عادت الحياة إلى طبيعتها في القدس.

دوت المطارق من جديد في الورش، وامتلأت الأسواق بالتجار، وعادت القوافل تدخل المدينة وتغادرها كما كانت من قبل. حتى إن كثيرًا من الناس لم يعلموا أصلًا بما اكتشف تحت الأرض، فقد رأى سليمان عليه السلام أن يبقى الأمر في دائرة من شاركوا فيه، حتى لا تتحول الأخبار إلى شائعات تزيدها الألسن أو تنقصها.

ومع ذلك، لم يكن كل شيء كما كان.

ففي إحدى الأمسيات، وبينما كان عمران يغلق ورشته، لاحظ رجلًا غريبًا يقف في الجهة المقابلة من الطريق. كان يرتدي ثوبًا يدل على أنه مسافر، إلا أنه لم يكن ينظر إلى الدكاكين ولا إلى البضائع، بل كان يراقب البنائين واحدًا واحدًا، وكأنه يبحث عن شخص بعينه.

لم يلتفت عمران كثيرًا إلى الأمر، وحمل أدواته متجهًا إلى بيته.

لكن الرجل الغريب تبعه من بعيد.

لم يكن اقترابه سريعًا، ولم يحاول الحديث إليه، وإنما اكتفى بالسير على مسافة ثابتة، حتى دخل عمران أحد الأزقة المؤدية إلى منزله.

هناك تقدم الرجل أخيرًا.

وقال بصوت هادئ: «أأنت عمران بن شالوم؟»

توقف عمران. نظر إليه مليًا، ثم أجاب: «نعم.»

ابتسم الغريب ابتسامة خفيفة، وقال: «كنت أبحث عنك منذ أيام.»

سأله عمران: «وهل بيننا معرفة؟»

هز الرجل رأسه. «لا... لكن بيننا أمانة.»

انعقد حاجبا عمران. «أي أمانة؟»

نظر الرجل حوله ليتأكد أن الزقاق خالٍ، ثم أخرج من داخل عباءته قطعة فخار صغيرة، لا يزيد حجمها على كف اليد.

ناولها إلى عمران.

كانت القطعة تحمل العلامة نفسها التي رآها على أحد جدران البناء القديم تحت الأرض.

ارتفع بصر عمران إلى وجه الرجل.

وقبل أن يسأله، قال الغريب: «هناك مواضع أخرى... ليست في القدس وحدها.»

ثم استدار، ومضى في الزقاق المظلم، حتى ابتلعه الليل قبل أن يتمكن عمران من اللحاق به.

بقي عمران واقفًا مكانه، ينظر إلى قطعة الفخار في يده، بينما كانت عشرات الأسئلة تتزاحم في رأسه.

من يكون ذلك الرجل؟

وكيف عرف العلامة؟

وهل كان اكتشاف القاعة الحجرية نهاية الحكاية... أم بدايتها؟

وفي تلك الليلة، لم يستطع عمران أن ينام.

أما في الدير القديم، وبعد مئات السنين، فقد أغلق آصف المجلد عند الصفحة نفسها، وأخذ يتأمل الرسم المنقوش على قطعة الفخار التي نسخها أول أمناء الذاكرة في هامش الصفحة.

رفع رأسه نحو عبد الرحيم، وقال بصوت خافت: «أشعر أن هذا الاكتشاف سيغير كل ما سيأتي بعده.»

ابتسم عبد الرحيم، وأجاب: «بل سيغير عمران نفسه... ومنذ هذه اللحظة تبدأ حكايته الحقيقية.»

لم يغادر عمران مكانه إلا بعد أن اختفى الرجل الغريب تمامًا. بقيت قطعة الفخار بين يديه، وكانت خشونتها تشهد على قدمها، أما العلامة المنقوشة عليها، فلم تكن زخرفة ولا كتابة، بل رمزًا هندسيًا بسيطًا، يتكون من ثلاثة خطوط تتلاقى عند دائرة صغيرة في الوسط. لقد رأى الرمز نفسه على أحد أحجار القاعة التي اكتشفت تحت الأرض، ورآه مرة ثانية على اللوح الخشبي الذي وجد داخل الصندوق، لكنه لم يخطر بباله أن يظهر خارج ذلك المكان.

عاد إلى بيته وقد أثقل التفكير خطاه. كانت زوجته قد أعدت العشاء، وكان ولداه ينتظرانه كعادتهما عند الباب، يركضان نحوه كلما سمعا وقع خطواته في الزقاق. ابتسم لهما، وربت على رأسيهما، لكنه لم يستطع أن يخفي شروده. جلست الأسرة حول المائدة، وتحدث الطفلان عن يومهما، وعن حمامة بنت عشًا فوق شجرة التين في فناء الدار، وعن صديق جديد تعرفا إليه في السوق، بينما كان عمران يصغي إليهما في صمت، وكأنه يتشبث بتلك اللحظات البسيطة التي تمنح الإنسان طمأنينة لا يجدها في أي مكان آخر.

ولما نام الجميع، أشعل سراجًا صغيرًا، وأخرج قطعة الفخار من جرابه، ثم وضعها إلى جانب لوح خشبي كان يرسم عليه قياسات الأحجار التي يعمل عليها كل يوم. ظل يقارن بين الرمزين اللذين حفظهما في ذاكرته، حتى أيقن أنهما متطابقان تمامًا.

في صباح اليوم التالي، توجه إلى الورشة مبكرًا، لكنه لم يبدأ العمل كعادته. قصد دار السجلات، حيث كان الكاتب الأكبر يراجع النسخ التي أُخذت من الرقوق القديمة. استأذن في الدخول، ثم وضع قطعة الفخار أمامه.

رفع الكاتب رأسه، وحدق فيها طويلًا. قال عمران: «هل تعرف هذا الرمز؟»

لم يجب الرجل مباشرة، بل نهض، واتجه إلى رف مرتفع، وأنزل لفافة قديمة. أخذ يقلب صفحاتها حتى توقف عند رسم صغير، ثم وضعها بجوار قطعة الفخار. كان الرسم هو نفسه. تنهد الكاتب، وقال: «رأيته من قبل، لكنني لا أعرف معناه.»

سأله عمران: «وأين رأيته؟»

أجاب: «في سجل قديم نُسخ عن وثيقة أقدم منه بكثير. لم يشرح الناسخ الرمز، وإنما كتب تحته جملة واحدة.»

اقترب عمران.

قرأ بصوت منخفض: "تُعرف الأمانة بأهلها، لا بعلامتها."

كرر الجملة في نفسه أكثر من مرة، لكنها لم تقدم له جوابًا، بل زادته حيرة.

وفي تلك اللحظة، دخل أحد الحراس مسرعًا، وانحنى أمام الكاتب، ثم قال: «يا سيدي، جاء رسول من القصر.»

أُذن للرجل بالدخول.

كان شابًا يلبس ثوبًا بسيطًا، ويحمل في يده رقعة مختومة بخاتم الملك. سلمها إلى الكاتب، ثم انصرف دون أن يزيد كلمة.

كسر الكاتب الختم، وقرأ الرسالة بصمت، ثم رفع بصره إلى عمران.

قال: «يطلب الملك حضورك بعد صلاة الظهر.» انعقد حاجبا عمران. «أنا؟» «نعم.»

ساد الصمت لحظة.

لم يكن استدعاء بنّاء بسيط إلى مجلس الملك أمرًا معتادًا، ولذلك بدأت الأسئلة تتزاحم في ذهنه. هل أخطأ في شيء أثناء العمل؟ هل يتعلق الأمر بالقاعة القديمة؟ أم أن الرجل الغريب ترك وراءه أثرًا لم يكن يتوقعه؟

خرج من دار السجلات، وقد أصبح وقع خطواته أثقل مما كان. مر بالسوق، فرأى الحياة تمضي كما كانت بالأمس؛ الباعة ينادون على بضائعهم، والنساء يشترين حاجات بيوتهن، والأطفال يركضون بين الأزقة، ولم يكن أحد يعلم أن قلب رجل واحد امتلأ بأسئلة قد تغير مسار حياته.

وحين مالت الشمس إلى وسط السماء، اتجه عمران نحو القصر. لم يكن قصرًا متكلفًا، بل بناءً واسعًا تحيط به ساحات وأروقة، يدخل إليه الناس في قضاياهم، ويخرجون منه بعد أن تُقضى مظالمهم. كان الجنود يقفون عند الأبواب في نظام، لكنهم لم يمنعوا أحدًا من الدخول ما دام له موعد أو حاجة.

قاد أحد الحجاب عمران عبر ممر طويل حتى انتهى إلى فناء داخلي تظلله أشجار الرمان. وهناك طُلب منه أن ينتظر قليلًا.

جلس على مقعد حجري، وأخذ يتأمل المكان. لم تكن هيبة القصر في زخرفته، بل في السكينة التي تملؤه. لم يسمع صراخًا، ولا رأى أحدًا يركض بين الممرات، بل كان كل شيء يسير بنظام يبعث الطمأنينة في النفس.

وبينما هو ينتظر، لمح من بعيد الرجل الغريب نفسه الذي سلمه قطعة الفخار في الليلة الماضية. كان يعبر الفناء بخطوات ثابتة، ويتحدث مع أحد الكتبة، ثم اختفى خلف باب جانبي قبل أن يلتفت إليه.

قبض عمران على طرف ثوبه دون أن يشعر.

لقد تأكد الآن أن ما حدث لم يكن مصادفة، وأن استدعاءه إلى القصر، وظهور ذلك الرجل، واكتشاف القاعة القديمة... ليست أحداثًا متفرقة، بل خيوط حكاية واحدة بدأت تنسج نفسها بصمت.

لم يطل الانتظار. خرج أحد الحجاب من الرواق الداخلي، وأشار إلى عمران أن يتبعه. نهض في هدوء، وسار خلفه عبر ممرات واسعة تتخللها أعمدة من الحجر الأبيض، حتى وصلا إلى قاعة يغمرها ضوء الشمس المتسلل من نوافذ مرتفعة. لم تكن القاعة مزدحمة كما تصور، بل كان فيها عدد قليل من الكتبة، ورجال من أهل العلم، وبعض المسؤولين عن أعمال البناء. وفي صدر المجلس جلس سليمان عليه السلام، يصغي إلى رجل يعرض عليه أمرًا يتعلق بقناة ماء انقطع جريانها إلى إحدى القرى.

وقف عمران عند الباب ينتظر الإذن، ولم يتقدم خطوة واحدة حتى انتهى الحديث. أصدر سليمان عليه السلام حكمه بعد أن استمع إلى الطرفين، ثم أمر بإرسال من يعاين القناة قبل غروب الشمس، حتى لا يُظلم أحد، ولا تُبنى الأحكام على الظنون.

بعد انصراف أصحاب القضية، التفت إليه أحد الحجاب وقال: «تقدم يا عمران.»

تقدم بخطوات ثابتة، ثم وقف في موضعه وألقى السلام.

رد سليمان عليه السلام السلام، ثم نظر إليه نظرة هادئة وقال: «بلغني أنك كنت أول من انتبه إلى الصندوق الذي وجد في القاعة القديمة.»

أجاب عمران: «لقد رأيت طرفه بين التراب يا نبي الله، ولولا توجيهكم ما تجرأ أحد على إخراجه.»

ابتسم سليمان عليه السلام ابتسامة خفيفة، ثم قال: «الفضل لله، ثم للصبر. كثير من الأشياء تضيع لأن أصحابها يستعجلونها.»

أشار إلى الكاتب الأكبر، فتقدم وهو يحمل لفافة صغيرة.

قال سليمان عليه السلام: «لقد راجعنا ما نُسخ من الرقوق، ووجدنا فيها أسماء رجال حفظوا أعمال الناس، ولم يحفظوا أعمال الملوك وحدهم. وقد سرني أن أرى في البنائين من يفهم أن الحجر قد يحمل شهادة كما تحملها الرقوق.»

ثم سكت لحظة، قبل أن يضيف: «لهذا أردت أن أسألك سؤالًا.»

رفع عمران رأسه.

قال سليمان عليه السلام: «لو خُيرت بين أن تُنهي بناء باب المدينة قبل موعده، أو أن تتوقف أيامًا حتى تتأكد من سلامة أساساته، فأيهما تختار؟»

لم يجب عمران سريعًا.

ظل يفكر، ثم قال: «أتوقف، ولو غضب الناس.»

سأله أحد الحاضرين: «ولِمَ تتحمل غضبهم؟»

أجاب عمران بصوت هادئ: «لأن الباب الذي ينهار بعد سنوات سيقتل أبرياء لا يعرفون أن من بناه استعجل عمله. أما غضب الناس اليوم، فيزول إذا عرفوا الحقيقة.»

ساد المجلس صمت قصير.

ثم قال سليمان عليه السلام: «هذا هو الجواب الذي كنت أرجوه.»

وأشار إلى الكاتب الأكبر، وقال: «اكتب أمرًا إلى كبير البنائين، ألا يُقبل حجر في البناء حتى يفحصه عمران أو من يختاره من أهل الخبرة.»

بدت الدهشة على وجه عمران. لم يكن ذلك تكريمًا، بقدر ما كان تكليفًا ثقيلًا.

فحص كل حجر يعني أن العمل سيزداد، وأن المسؤولية ستصبح مضاعفة.

قرأ سليمان عليه السلام ما دار في نفسه، فقال: «كل أمانة تزيد صاحبها تعبًا، لكنها تنقص عنه الندم.»

انحنى عمران احترامًا، ثم استأذن في الانصراف.

ولما خرج من القاعة، كان الرجل الغريب ينتظره في الرواق نفسه.

اقترب منه هذه المرة دون تردد، وقال: «الآن عرفت لماذا وقع عليك الاختيار.»

قطب عمران حاجبيه، وقال: «أي اختيار؟»

أجاب الرجل: «حين يظهر في كل جيل من يقدّم الأمانة على السرعة، يعرف أمناء الذاكرة أنهم وجدوا من يستطيع أن يحمل جزءًا من حملهم.»

نظر إليه عمران طويلًا.

ثم قال: «ما زلت لا أعرف اسمك.»

ابتسم الرجل للمرة الأولى.

وقال: «اسمي عزريا... وأنا ناسخ، أتنقل بين المدن، أجمع ما يخشى الناس أن يضيع، ثم أعيده إلى أصحابه بعد أن أستنسخه. هذه مهنتي التي يعرفها الناس.»

سكت لحظة، ثم خفض صوته وأضاف: «أما مهمتي الحقيقية... فسأحدثك عنها عندما يحين وقتها.»

تركه ومضى، ولم يحاول عمران هذه المرة أن يتبعه.

لقد أدرك أن بعض الأبواب لا تُفتح بالقوة، وإنما يفتحها الزمن في أوانه.

وقف في فناء القصر يتأمل السماء، ثم قبض بيده على قطعة الفخار التي ما تزال في جرابه. شعر أن حياته، التي كانت تدور بين المطرقة والإزميل والحجارة، بدأت تتسع شيئًا فشيئًا، وأن الله ساقه إلى طريق لم يكن يبحث عنه، لكنه أصبح الآن جزءًا منه.

وفي تلك اللحظة، دوّى صوت المطارق من ورش البناء القريبة، فعاد عمران إلى عمله. كان يعرف أن الأمانة الكبرى لا تبدأ بالأسرار، بل بإتقان الواجب الذي بين يدي الإنسان، وأن كل حجر يضعه اليوم قد يشهد، بعد مئات السنين، أن رجلًا مر من هنا، فأخلص في عمله ثم مضى في صمت.

عاد عمران إلى ورشة البناء قبل أن تميل الشمس إلى الغروب. كانت المطارق لا تزال تدوي بين الجدران، والعمال منشغلين في نقل الحجارة وتسويتها، لكن شيئًا في داخله لم يعد كما كان. لقد خرج من القصر وهو يحمل مسؤولية جديدة، ولم يعد مجرد نحات ماهر يعرف طبائع الصخور، بل أصبح مسؤولًا عن فحص كل حجر سيدخل في البناء، وكأن سلامة المدينة كلها وضعت بين يديه.

استقبله كبير البنائين بابتسامة عريضة وقال: «بلغني أمر الملك قبل أن تعود. يبدو أن أيام راحتك انتهت.»

ابتسم عمران في هدوء، ثم أجاب: «لو كانت الأمانة راحة، لحملها كل الناس.»

ضحك الرجال، وعاد كل واحد إلى عمله.

تقدم عمران نحو أول عربة محملة بالحجارة القادمة من المحجر، وأخذ يتفحصها واحدة تلو الأخرى. كان يطرق كل حجر طرقات خفيفة، ثم يصغي إلى صداه، ويقلبه بين يديه، وينظر إلى عروقه الدقيقة التي لا يميزها إلا أصحاب الخبرة. كان بعض العمال يظنون أنه يضيع الوقت، حتى أشار إلى حجر ضخم وقال: «أعيدوا هذا.»

نظر إليه صاحب العربة متعجبًا. «لكنه من أفضل ما استخرجناه اليوم.»

اقترب عمران، وأشار إلى خط رفيع يكاد لا يرى في أحد أطرافه، ثم قال: «هذا الشق ولد في قلب الصخرة قبل سنوات طويلة. لن يظهر أثره اليوم، لكنه سيتسع مع الشتاء، وبعد أعوام سينهار ما بني عليه.»

هز الرجل رأسه في شك، لكن كبير البنائين أمر بإعادة الحجر إلى المحجر. وما إن حاول أربعة رجال رفعه، حتى انقسم إلى نصفين أمام أعين الجميع.

ساد الصمت.

ثم قال كبير البنائين وهو يربت على كتف عمران: «الآن فهمت لماذا اختارك الملك.»

لم يشعر عمران بالفخر، بل ازداد شعوره بثقل المسؤولية.

وفي الأيام التالية، انتشر الخبر بين البنائين، حتى صار كل من يكتشف حجرًا مشكوكًا فيه يحمله إليه قبل أن يضعه في البناء. لم يضق عمران بذلك، بل كان يجلس معهم، ويعلم الفتيان كيف يميزون بين الحجر السليم والحجر المعيب، ويشرح لهم أن البناء المتين لا يقوم على القوة وحدها، وإنما على الصبر والدقة.

وذات صباح، جاءه غلام صغير يعمل في نقل الأدوات، يحمل بين يديه حجرًا لا يزيد حجمه على كف الإنسان.

قال الغلام في حياء: «وجدته عند أطراف الحفرة القديمة، وخشيت أن يرميه أحد مع الردم.»

أخذ عمران الحجر، وإذا به يحمل الرمز نفسه الذي رآه على قطعة الفخار.

رفع رأسه بسرعة. «أين وجدته؟»

أشار الغلام إلى طرف السور الشرقي، حيث كانت أعمال الردم قد أوشكت على الانتهاء.

ذهب عمران بنفسه إلى الموضع، فلم يجد إلا أكوامًا من التراب والحجارة. أخذ يقلبها بهدوء، حتى لمح زاوية لوح حجري صغير دفن نصفه في الأرض. أزاح التراب عنه، فإذا هو جزء من لوحة قديمة تحطم أكثرها، ولم يبق منها إلا سطر واحد.

لم يستطع قراءة الكتابة، فقد كانت بلغة لا يعرفها، لكن الرمز المنقوش في أعلاها كان واضحًا.

لم يلمس اللوحة. تركها في مكانها، ثم أسرع إلى دار السجلات.

كان الكاتب الأكبر جالسًا بين رفوف الرقوق، يراجع نسخة جديدة من سجلات المدينة. رفع رأسه عندما رأى عمران يدخل على غير عادته. قال: «ما الذي جاء بك بهذه العجلة؟»

أخرج عمران الحجر الصغير من جرابه، ووضعه أمامه. ثم قال: «وجدت هذا عند موضع الحفرة.»

تأمل الكاتب الرمز طويلًا، ثم نهض دون أن يتكلم. اتجه إلى صندوق خشبي قديم، وأخرج منه رقعة مهترئة، لم تكن تشبه بقية السجلات. بسطها على المنضدة

كانت تحتوي على رسوم لعلامات ورموز، وإلى جانب كل واحد منها ملاحظات بخط ناسخ قديم.

راح الكاتب يتتبع السطور بإصبعه، حتى توقف فجأة.

قرأ بصوت منخفض: «هذا الرمز كان يستعمله الكتبة الذين يتولون حفظ سجلات المدن... يوضع على النسخة الأصلية، ويميزها عن بقية النسخ.»

رفع عمران بصره إليه. «إذن... لم يكن على الصندوق مصادفة.»

أجاب الكاتب: «لا.»

ثم أضاف بعد صمت قصير: «ويبدو أن من دفن تلك الرقوق، لم يكن يخفي كنزًا، بل كان يحمي ذاكرة مدينة كاملة.»

لم يتكلم عمران.

عاد بذاكرته إلى كلمات الرجل الغريب، وإلى اللوح الخشبي الذي وجد في الصندوق، وإلى وصية سليمان عليه السلام بعدم نقل الأصول من مواضعها.

بدأت الخيوط تتصل أمامه ببطء.

لم يكن أمناء الذاكرة جماعة سرية تبحث عن النفوذ، ولا رجالًا يخفون أسرارًا غامضة، بل كانوا أناسًا أدركوا أن الحروب، والفيضانات، والزلازل، وتقلب الدول، قد تمحو المدن، لكن ما يُكتب بصدق، ويُحفظ بأمانة، يستطيع أن يعيد للمدن ذاكرتها مهما طال عليها الزمن.

ولأول مرة منذ بدأت هذه الأحداث، شعر عمران أن ما بين يديه ليس مجرد عمل يقوم به في سنوات حياته، بل رسالة ستعبر القرون، وقد تصل يومًا إلى رجل لا يعرف اسمه، يجلس في زمن آخر، ويقرأ هذه الصفحات كما لو أنها كُتبت بالأمس.

خرج عمران من دار السجلات وقد ثقلت خطاه. لم يكن يحمل في يده سوى الحجر الصغير الذي أعاده إليه الكاتب، لكن ذهنه كان يحمل أسئلة لم يجد لها جوابًا بعد. سار في أزقة القدس دون أن يشعر بالناس من حوله، حتى انتهى به الطريق إلى السور الشرقي، حيث كانت أعمال البناء قد توقفت مع اقتراب الغروب. جلس فوق كتلة حجرية ضخمة، وأخذ يتأمل المدينة التي بدأت تكتسي بلون الشمس الأخير.

من ذلك الموضع كانت القدس تبدو مدينة واحدة، لا يميز الناظر فيها بين بيت غني وبيت فقير. كانت الأدخنة تتصاعد من البيوت في وقت واحد، ويعلو صوت الأمهات وهن ينادين أبناءهن للعودة، بينما يعود الرجال من الحقول والورش والأسواق، يحمل كل منهم تعب يوم كامل، لكنهم جميعًا يعودون إلى المدينة نفسها، ويحتمون بالأسوار نفسها.

مر إلى جواره شيخ مسن كان يقود حمارًا يحمل سلتين من التين، فلما رأى عمران جالسًا وحده، توقف وقال مبتسمًا: «أراك تحدث الحجارة أكثر مما تحدث الناس.»

ابتسم عمران، وأفسح له مكانًا إلى جواره. جلس الشيخ، ووضع عصاه بين ركبتيه، ثم قال:

«أعرف هذا الوجه... أنت البنّاء الذي اختاره الملك ليفحص الحجارة.»

أجاب عمران في تواضع: «أنا رجل تعلم من الحجر أكثر مما تعلم من الكتب.»

ضحك الشيخ وقال: «وهذا حسن. فالحجر لا يكذب.»

ظل الرجلان صامتين برهة، ثم قال الشيخ وهو ينظر إلى الأسوار: «أتدري ما الذي يجعل المدينة تبقى؟»

أجاب عمران: «العدل... والعمل.»

هز الشيخ رأسه.

«وهما أساس كل شيء، لكن هناك أمرًا آخر.»

التفت إليه عمران.

فقال الشيخ: «أن يعرف كل جيل ما الذي تركه الجيل الذي قبله. المدينة التي تنسى آباءها، تضيع ولو بقيت أسوارها قائمة.»

لم تكن الكلمات جديدة على عمران، لكنه شعر هذه المرة أنها جاءت في وقتها، كأن الله يبعث إليه من يثبت ما بدأ يتشكل في قلبه.

نهض الشيخ، وربت على كتفه، ثم مضى في طريقه، بينما بقي عمران يتابع خطواته حتى غاب بين الأزقة.

في صباح اليوم التالي، اجتمع البناؤون في الساحة الكبرى قبل توزيع الأعمال. وقف كبير البنائين يحمل لوحًا خشبيًا دونت عليه أسماء الورش، ثم أخذ يوزع الرجال على المواقع المختلفة. ولما انتهى، التفت إلى عمران وقال:

«ستشرف اليوم على الجهة الشمالية. لقد وصلت أحجار جديدة من المحجر.»

مضى عمران إلى هناك، فوجد عشرات الكتل الحجرية مصطفة في صفوف طويلة. بدأ يفحصها واحدة بعد الأخرى، حتى توقف عند حجر متوسط الحجم، لم يكن فيه شق ظاهر، لكن صوته حين طرقه بالمطرقة بدا مختلفًا.

طلب من العمال إبعاده. قال أحدهم معترضًا: «هذا الحجر سليم، وقد فحصه رجال المحجر.»

ابتسم عمران، ولم يجادله، بل رفع المطرقة وضرب الحجر ضربة واحدة في موضع محدد. فانشق إلى نصفين.

خرج من داخله تجويف صغير، كانت الرطوبة قد أكلت قلبه، بينما بقي ظاهره متماسكًا.

ساد الصمت بين العمال.

ثم قال عمران بهدوء: «ليست كل العيوب ترى بالعين. بعضها يختبئ حتى تأتي اللحظة التي ينهار فيها كل شيء.»

لم يكن يقصد الحجر وحده.

وقد فهم كبير البنائين ذلك، فاكتفى بالنظر إليه في صمت.

وفي المساء، بينما كان عمران يهم بالعودة إلى منزله، لمح الغلام نفسه الذي عثر على الحجر المنقوش.

كان يركض نحوه وهو يلهث.

قال: «يا سيدي... وجدت شيئًا آخر.»

توقف عمران. «أين؟»

أشار الغلام إلى بيت قديم يقع عند أطراف الورشة، كان أصحابه قد أخلوه مؤقتًا بسبب أعمال البناء.

دخل عمران خلفه. كانت الغرفة خالية إلا من صندوق خشبي مكسور، وبعض الأدوات القديمة التي نسيها أهل الدار. انحنى الغلام، وأخرج من بين ألواح الصندوق رقعة جلدية ملفوفة بعناية.

ناولها إلى عمران. فتحها بحذر.

لم تكن وثيقة رسمية، ولا سجلًا من سجلات المدينة. بل رسالة.

بدأت بكلمات قليلة: "إلى ابني الذي سيكمل عملي من بعدي..."

شعر عمران أن قلبه خفق بقوة.

لم يكن يعرف صاحب الرسالة، لكنه أحس منذ السطر الأول أنها لم تكتب لتبقى في صندوق، بل لتصل إلى من يفهم معناها.

طوى الرقعة برفق، ثم قال للغلام: «لن أقرأها هنا.»

خرج بها من البيت، وأعاد إغلاق الباب كما وجده.

كان الغروب قد ألقى بظلاله على المدينة، وبدأت المآذن تدعو الناس إلى الصلاة.

رفع عمران بصره نحو السماء، ثم ضم الرقعة إلى صدره، وشعر أن الأيام القادمة لن تكون امتدادًا لما مضى، بل بداية لطريق جديد، طريق لن يغير حياته وحده، بل سيغير الطريقة التي سينظر بها إلى كل حجر يبنيه، وكل كلمة يكتبها، وكل أثر يتركه الإنسان وراءه قبل أن يرحل.

لم يفتح عمران الرقعة في الطريق. ظل يمسكها بين يديه كما يمسك الإنسان شيئًا لا يعرف قيمته بعد، لكنه يشعر أن التفريط فيه سيكون خطأ لا يمكن تداركه. عبر الأزقة المؤدية إلى بيته، وكانت القدس تستعد لليل جديد؛ أصحاب الدكاكين يطفئون مصابيحهم واحدًا بعد آخر، وصوت الأطفال يخفت شيئًا فشيئًا، حتى لم يبق في الطرقات إلا العائدون من أعمالهم، وخطوات الحراس الذين أخذوا مواقعهم عند أبواب المدينة.

ولما دخل داره، استقبلته زوجته كعادتها بابتسامة هادئة، وسألته إن كان يومه قد طال أكثر من المعتاد. أجابها بكلمات قليلة، ثم جلس مع ولديه يتناول العشاء، محاولًا أن يخفي ما يدور في نفسه. كان الطفلان يتحدثان عن يومهما، وعن لوح خشبي صنعاه مع جار لهما، بينما كان عمران ينظر إليهما ويفكر في الرسالة التي يحملها. لقد أدرك أن بعض الأمانات تبدأ بكلمة مكتوبة، ثم تصبح مع الأيام مسؤولية تعيش في قلب صاحبها.

وبعد أن نام أهل البيت، جلس في فناء الدار تحت شجرة التين، وأشعل سراجًا صغيرًا، ثم فك الرباط الجلدي الذي جمع أطراف الرقعة. كانت الكتابة واضحة، وإن دل لون الحبر على أن سنوات طويلة مرت منذ خطت تلك الكلمات.

قرأ السطر الأول:

"إلى ابني الذي سيأتي بعدي... إن وصلت هذه الرقعة إلى يديك، فاعلم أن الله لم يجعل البناء في الحجر وحده، بل في الإنسان أيضًا."

توقف عمران لحظة، ثم تابع القراءة.

"لقد أمضيت عمري أبني البيوت، حتى ظننت أن الجدران هي التي تحفظ المدن. ثم رأيت مدينة أحرقتها النار، فلم يبق من بيوتها حجر فوق حجر، ومع ذلك عاد أهلها بعد أعوام، فأعادوا بناءها كما كانت، لأن الذي بقي حيًا في صدورهم كان أكبر من الذي احترق أمام أعينهم."

بدأت الكلمات تستقر في قلب عمران كما يستقر المطر في الأرض العطشى.

"فاحفظ أسماء الرجال الأمناء، وأسماء المعلمين، وأصحاب الحرف، ومن عرفوا بالعدل بين الناس، فإن المدينة لا تقوم بالملوك وحدهم، بل تقوم بمن يوقظونها كل صباح، ثم يرحلون في المساء دون أن ينتظروا ثناء أحد."

ولم يكن في آخر الرقعة اسم صاحبها، بل توقيع بسيط:

"رجل أدى ما استطاع، ثم سلم القلم لمن بعده."

ظل عمران ينظر إلى السطر الأخير طويلًا. كان غريبًا أن يخفي الكاتب اسمه، لكنه شعر أن الرجل قصد ذلك عن عمد، وكأنه أراد أن تكون القيمة فيما كتب، لا في شخصه.

في صباح اليوم التالي حمل الرقعة إلى دار السجلات. كان الكاتب الأكبر قد سبق الجميع إلى عمله، يجلس بين الرفوف يراجع سجلات الأراضي التي كتبت في الأسبوع الماضي. رفع رأسه عندما دخل عمران، ثم لاحظ الرقعة في يده. قال مبتسمًا: «يبدو أن النوم لم يزر بيتك الليلة.»

ابتسم عمران ابتسامة خفيفة، ثم ناوله الرقعة.

قرأها الكاتب في صمت، ولم يرفع رأسه حتى بلغ آخر سطر. وبعد أن انتهى، أعاد لفها بعناية، ثم قال:

«هذا الرجل لم يكن كاتبًا عاديًا.» سأله عمران: «هل تعرفه؟»

هز رأسه نافيًا.

«لا أعرف اسمه، لكنني أعرف طريقته. لقد تعلم عند من كانوا يؤمنون أن المعرفة أمانة، لا وسيلة إلى الشهرة.»

ثم نهض من مكانه، واتجه إلى إحدى الخزائن، وأخرج سجلًا كبيرًا أثقلته السنين. فتحه عند صفحة قديمة، وأشار إلى فقرة قصيرة كتبها ناسخ مضى عليه زمن طويل.

قرأ عمران:

"إذا مات العالم، بقي علمه في تلاميذه. وإذا مات الصانع، بقي أثره في صنعته. وإذا مات العادل، بقي ذكره في قلوب الناس. أما إذا اجتمع العلم والإتقان والعدل في رجل واحد، فقد ترك لأمته ميراثًا لا يقدر بمال."

أغلق الكاتب السجل، وقال: «لهذا نحفظ هذه الأوراق.»

وفي تلك اللحظة دخل غلام صغير يحمل صندوقًا من الخشب. وضعه على المنضدة، وقال إن أحد الرعاة وجده قرب أطراف الوادي أثناء إصلاح مجرى الماء، وظن أن مكانه دار السجلات.

فتح الكاتب الصندوق.

كان فارغًا إلا من لوح خشبي صغير، حفرت عليه أسماء أربعة رجال.

لم يعرف عمران أي اسم منها.

لكن الكاتب الأكبر تغير وجهه فجأة.

اقترب من اللوح، ومرر أصابعه على الأسماء كما لو أنه يحيي أصحابها.

ثم قال بصوت امتزج فيه التأثر بالإجلال:

«هؤلاء... كانوا أول من جمع سجلات القرى المتفرقة بعد سنوات القحط الكبرى. لولاهم لضاعت حقوق مئات الأسر.» رفع عمران اللوح بحذر، وسأل: «ولماذا لم أسمع بأسمائهم من قبل؟»

ابتسم الكاتب ابتسامة حزينة.

«لأنهم لم يطلبوا أن يسمع الناس بهم.»

ثم أخذ اللوح من يده، ووضعه في مكان مخصص داخل الخزانة، وأغلق الباب برفق، وقال:

«من اليوم ستبدأ بمساعدتي بعد انتهاء عملك في الورشة. ليس في النسخ فقط، بل في ترتيب السجلات، ومعرفة كيف تحفظ، وكيف تراجع، وكيف تميز الأصل من النسخة. فالبناء الذي تقوم به في النهار يحفظ المدينة من السقوط، أما هذا العمل فيحفظها من النسيان.»

خرج عمران من دار السجلات مع انتصاف النهار، وكانت كلمات الكاتب لا تزال تتردد في ذهنه. شعر أن حياته انقسمت بهدوء إلى طريقين؛ طريق يبدأ مع شروق الشمس بين الحجارة والمعاول، وطريق يبدأ مع الغروب بين الرقوق والأسماء والذكريات. ولم يكن يدري أن هذين الطريقين سيلتقيان قريبًا في امتحان عسير، سيجبره على أن يختار أي الأمانتين أثقل في الميزان.

مضت أسابيع، وانقسمت أيام عمران بين الورشة ودار السجلات. كان يبدأ نهاره بين أصوات المطارق والإزميل، وينهيه بين الرقوق والدفاتر وروائح الجلد والحبر. وفي كل مساء كان يكتشف أن العملين، على اختلافهما، يقومان على المبدأ نفسه؛ ففي الورشة كان يستبعد الحجر المعيب قبل أن يدخل في الجدار، وفي دار السجلات كان يستبعد الخطأ قبل أن يستقر في الوثيقة. كلاهما يبني، غير أن أحدهما يبني بالحجر، والآخر يبني بالصدق.

ولم تمض مدة طويلة حتى أصبح الكاتب الأكبر يعتمد عليه في أعمال كثيرة. كان يرسله إلى القرى القريبة لمراجعة سجلات الأراضي، أو يطلب إليه مقابلة شيخ كبير ليصحح اسمًا أو نسبًا اختلف الناس فيه. وكان عمران يندهش كلما اكتشف أن خلافًا صغيرًا في كلمة واحدة قد يحرم أسرة من أرض ورثتها عن آبائها، أو يضيع حق يتيم لا يملك غير وثيقة تثبت ملكيته.

وفي أحد الأيام، جاء إلى دار السجلات رجلان يختلفان على قطعة أرض تقع بين بستانين. أحضر كل واحد منهما شاهدين يؤيدان قوله، وارتفعت الأصوات حتى امتلأ المكان بالتوتر. ولم يتعجل الكاتب الأكبر إصدار حكم، بل طلب السجلات القديمة، ثم التفت إلى عمران وقال:

«أحضر سجل السنة الخامسة عشرة.»

أسرع عمران بين الرفوف، حتى وجد المجلد المطلوب، ووضعه أمام الكاتب.

فتح الرجل الصفحات بحذر، ثم توقف عند خريطة صغيرة رسمها ناسخ قديم. لم تكن الخريطة دقيقة كما يرسمها المهندسون، لكنها كانت كافية لتحديد موضع العين، وشجرة السدر، وحدود البستانين.

رفع الكاتب رأسه وقال للرجلين:

«من رسم هذه الخريطة مات منذ ثلاثين عامًا، لكنه أنصفكما اليوم.»

ساد الصمت.

نظر الرجلان إلى السجل، ثم إلى بعضهما، وأقرا بالحقيقة دون جدال.

خرجا من الدار وقد انتهى النزاع، بينما بقي عمران واقفًا يتأمل الصفحة القديمة.

قال في نفسه: «رجل رحل منذ عقود... وما زال يمنع الظلم.»

في تلك الليلة، لم يستطع النوم سريعًا. ظل يفكر في الناسخ الذي لم يعرف اسمه، وكيف استطاع بخطوط قليلة أن يحفظ حق رجلين لم يكونا قد وُلدا حين أمسك قلمه لأول مرة.

وفي صباح اليوم التالي، خرج قبل الجميع إلى الورشة. كان الضباب يغطي سفوح التلال، ولم يكن في المكان إلا عدد قليل من العمال. أخذ يتفقد الحجارة الجديدة التي وصلت ليلًا، حتى سمع وقع حوافر حصان يقترب مسرعًا.

التفت، فرأى أحد فرسان الحراسة يقفز عن جواده قبل أن يتوقف تمامًا.

كان وجهه متعبًا، وثوبه مغطى بالغبار.

قال بصوت متقطع: «أين كبير البنائين؟»

أشار إليه عمران.

اقترب الفارس منهما، ثم قال:

«وصلت أنباء من القرى الغربية. الأمطار الغزيرة رفعت منسوب الوادي، والسيل جرف الجسر الخشبي المؤدي إلى ثلاث قرى. وهناك خوف على دار السجلات الصغيرة القائمة عند ضفة الوادي.»

تغير وجه الكاتب الأكبر، الذي كان قد وصل إلى الورشة في تلك اللحظة يحمل بعض الوثائق.

قال بهدوء، رغم القلق الذي بدا في عينيه:

«في تلك الدار سجلات أربع قرى.»

أجاب الفارس: «والماء يرتفع كل ساعة.»

لم ينتظر عمران أمرًا.

نظر إلى كبير البنائين وقال: «أحتاج إلى عشرة رجال، وحبال، وعربتين.»

ثم التفت إلى الكاتب الأكبر: «وأنت... دلني على أهم ما يجب إنقاذه أولًا.»

أمسك الكاتب بذراع عمران، ونظر إليه نظرة طويلة، ثم قال:

«اسمعني جيدًا. إذا لم تستطع إنقاذ كل شيء، فلا تحاول حمل الدار كلها على كتفيك. ابدأ بالسجل الأكبر، ثم سجلات الأوقاف، ثم سجلات الأنساب. أما بقية النسخ، فيمكن أن تعاد كتابتها.»

هز عمران رأسه. لم يكن أمامه وقت لطرح الأسئلة.

وخلال دقائق، كانت العربتان قد أعدتا، وربط الرجال الحبال، وانطلقت المجموعة نحو الوادي بأقصى ما تستطيع الخيول أن تجري.

كانت السماء قد اسودت، وبدأ الرعد يتردد بين الجبال، بينما أخذت قطرات المطر الأولى تضرب وجوههم.

نظر عمران إلى الطريق الممتد أمامه، وشعر لأول مرة أن الأمانة التي حملها لم تعد حبرًا على رق، ولا كلمات في وصية قديمة، بل أصبحت سباقًا مع الزمن نفسه.

ولم يكن يعلم أن الساعات القادمة ستضعه أمام أصعب اختيار في حياته؛ اختيار لن يختبر قوته، بل سيختبر قلبه، وسيحدد إن كان جديرًا بأن يصبح أول من يحمل لقب ***حارس الذاكرة*** في ذلك العصر.

لم تستغرق القافلة وقتًا طويلًا حتى غادرت أسوار القدس، لكن الطريق إلى الوادي لم تعد تشبه الطريق التي سلكها عمران عشرات المرات من قبل. كانت السماء قد أثقلت بالغيوم، والريح تعصف بأغصان الزيتون حتى كادت تقتلعها، بينما أخذ المطر يشتد شيئًا فشيئًا، يحول التراب إلى طين لزج يبطئ حركة العربات.

كان الفارس يسير في المقدمة، يلتفت بين حين وآخر ليتأكد أن الرجال ما زالوا خلفه. أما عمران، فقد كان يقود العربة الأولى بنفسه، وقد ربط الحبال حول الصناديق الخشبية الفارغة التي أعدها لنقل السجلات. لم يكن أحد يتحدث، فكل رجل منهم كان يدرك أن الوقت أصبح عدوهم الأول.

وقبل أن يبلغوا الوادي بميل واحد، سمعوا هدير الماء.

لم يكن هديرًا مألوفًا، بل صوتًا عميقًا يشبه زئيرًا متصلًا، حتى إن الخيول بدأت تضرب الأرض بحوافرها في اضطراب.

قال أحد العمال وهو ينظر إلى الأفق: «لقد سبقنا السيل.»

لكن عمران لم يجب. كان بصره معلقًا بالطريق، وكأن عينيه تبحثان عن منفذ لم يعد موجودًا.

وحين وصلوا إلى حافة التل المطل على الوادي، توقف الجميع دفعة واحدة.

كان الجسر الخشبي قد اختفى تمامًا، ولم يبق منه إلا بعض الأعمدة المكسورة التي تصارع تيار الماء. أما النهر الصغير الذي اعتاد الناس عبوره مشيًا في أكثر أيام السنة، فقد تحول إلى سيل جارف يحمل الأشجار والصخور وكل ما يعترض طريقه.

وفي الضفة الأخرى، بدت دار السجلات قائمة، لكنها لم تعد آمنة. كان الماء قد وصل إلى عتبة الباب، وكل موجة جديدة ترتفع أكثر من سابقتها.

وقف الرجال صامتين. قال أحدهم: «لا سبيل إلى العبور.»

ظل عمران يراقب المكان، ثم لمح شيئًا جعله يشد قبضته.

كان شيخ دار السجلات يقف عند الباب، وقد تجاوز السبعين من عمره، يحاول وحده رفع صندوق خشبي إلى رف مرتفع داخل الغرفة. كان يدرك أن الماء سيدخل بعد لحظات، ومع ذلك لم يغادر.

قال عمران بحزم: «هناك سبيل.» نظر الرجال إليه.

وأشار إلى مجموعة من أشجار الدلب التي نبتت على امتداد الضفة. «اربطوا الحبال بها.»

لم يفهموا قصده في البداية، لكنه كان قد بدأ بالفعل يثبت أحد الحبال حول جذع شجرة ضخمة.

قال كبير البنائين: «حتى لو عبرنا، فقد يجرفنا الماء.»

أجابه عمران دون أن يرفع رأسه: «وربما يجرف السجلات إن بقينا هنا نتحدث.»

لم يحتج الرجال إلى مزيد من الكلام.

توزعوا بسرعة، وربطوا الحبال بين الأشجار، ثم شدوها بأقصى ما يستطيعون. وبعد جهد طويل، امتد الحبل فوق الماء، يهتز بعنف مع قوة التيار، لكنه بقي ثابتًا. خلع عمران عباءته الثقيلة، وربط طرف الحبل حول خصره.

تقدم أحد العمال، وأمسك بذراعه. «دعني أعبر بدلًا منك.»

ابتسم عمران ابتسامة قصيرة، وقال: «أنت أقوى مني في حمل الحجارة... أما تلك السجلات، فأعرف قيمتها كما أعرف خطوط كفي.»

ثم نزل إلى الماء.

كان التيار أعنف مما توقع. ضربته أول موجة حتى كاد يفقد توازنه، لكن الحبل منعه من الانجراف. تشبث به بكلتا يديه، وأخذ يتقدم ببطء، بينما كانت الأمواج ترتطم بجسده، وتحمل معها أغصانًا وصخورًا صغيرة.

كان الرجال على الضفة الأخرى يراقبونه في صمت، لا يملكون إلا الدعاء.

استغرقت رحلته دقائق بدت كأنها ساعات. وأخيرًا، بلغ الضفة المقابلة.

أسرع الشيخ العجوز نحوه، وقد امتلأت ثيابه بالماء. قال وهو يلهث: «ظننت أنكم لن تصلوا.»

أجاب عمران وهو يلتقط أنفاسه: «لم يبق وقت للكلام... أين السجل الأكبر؟»

قاد الشيخ إلى غرفة داخلية.

كانت المياه قد بدأت تتسلل من أسفل الباب، وارتفع منسوبها حتى غمر أرجل الرفوف الخشبية.

أشار الشيخ إلى صندوق كبير موضوع في أعلى الخزانة. «هناك.»

صعد عمران فوق مقعد خشبي، وأنزل الصندوق بحذر.

كان ثقيلًا إلى حد أنه أدرك في اللحظة نفسها أنه لن يستطيع حمله مع بقية السجلات دفعة واحدة.

وفي تلك اللحظة، دوى صوت ارتطام عنيف. اهتزت الدار كلها.

نظر الشيخ من النافذة، ثم قال بصوت اختلط فيه الخوف بالحزن: «لقد انهار الجدار الشرقي... لن يصمد المكان طويلًا.»

تبادل الرجلان نظرة قصيرة. ثم قال عمران: «إذن... ليس أمامنا إلا فرصة واحدة.»

وحمل الصندوق بين ذراعيه، متجهًا نحو الباب، بينما كانت مياه الوادي تواصل ارتفاعها، كأنها تسابقه إلى آخر صفحة من صفحات الذاكرة التي أقسم أن يحفظها.

اندفع عمران نحو الباب وهو يضم الصندوق إلى صدره بكلتا ذراعيه. لم يكن الصندوق مجرد خشب وجلد، بل كان يحمل أسماء القرى، وحدود الأراضي، وحقوق الأرامل، وأوقاف المساجد، وأنساب الأسر التي عاشت على هذه الأرض جيلاً بعد جيل. وكان يعلم أن ضياع تلك الصفحات لن يمحو الحبر وحده، بل سيمحو جزءًا من حياة أناس لن يجدوا شاهدًا ينصفهم إذا اختلفوا يومًا.

ما إن بلغ العتبة حتى ارتطمت موجة عاتية بجدار الدار، فاهتز البناء كله، وتساقط غبار كثيف من السقف. تراجع الشيخ العجوز خطوة إلى الوراء، وهو ينظر إلى العوارض الخشبية التي بدأت تصدر أصواتًا تنذر بالخطر.

قال بصوت مرتجف: «اذهب أنت... سأبقى حتى أخرج ما أستطيع.»

التفت إليه عمران، وقد علت المياه حتى بلغت ركبتيهما. «لن أخرج وحدي.»

أجاب الشيخ في حزم: «إن بقيت هنا ضاع الصندوق، وضعت أنا معه. أما إذا خرجت به، فقد بقي للناس ما يرجعون إليه.»

لم تكن الكلمات سهلة على عمران، لكنه أدرك أن الشيخ لم يكن يفكر في نفسه، وإنما في الأمانة التي عاش عمره يحرسها.

ربط الصندوق بالحبل الذي يحيط بخصره، ثم شد العقدة مرتين ليتأكد من ثباتها. بعد ذلك التفت إلى الشيخ، وأمسك بيده.

قال: «تعال معي.»

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة، وقال: «ما زلت لا تعرف الشيوخ يا عمران.»

ثم أشار إلى الرفوف التي بقيت عليها عشرات السجلات.

«إن خرجت الآن، ستبتل هذه كلها. دعني أرفعها إلى الأعلى، فلعل الماء ينحسر قبل أن يصل إليها.»

لم يجد عمران ما يقوله. كان يعرف أن كل لحظة يقضيها في النقاش تقرب السيل من ابتلاع الدار.

هز رأسه في صمت، ثم خرج إلى الفناء.

في الضفة المقابلة، كان الرجال قد ثبتوا الحبال مرة أخرى، وأخذوا ينادونه بأعلى أصواتهم، لكن هدير الماء كان يبتلع كلماتهم.

وضع عمران الصندوق على كتفه هذه المرة، وربط ذراعه بالحبل، ثم ألقى بنفسه في التيار.

كانت العودة أشد قسوة من الذهاب.

فوزن الصندوق كان يشده إلى الأسفل، بينما كانت المياه تدفعه نحو الصخور. ارتطم كتفه بإحدى الجلاميد حتى شعر بألم حاد، وكادت يداه تفلتان من الحبل، لكنه استجمع ما بقي فيه من قوة، وأخذ يزحف فوق الحبل شبرًا بعد شبر.

على الضفة الأخرى، اصطف الرجال يشدون الحبل بكل ما أوتوا من قوة. صرخ كبير البنائين:

«لا تتركوه يرتخي... إن انقطع انتهى كل شيء.»

ازدادت الأمطار غزارة، وتحول النهار إلى ما يشبه الغسق. لم يعد أحد يرى عمران بوضوح، إلا عندما كانت موجة تنخفض فيظهر رأسه، ثم تختفي صورته من جديد بين زبد الماء.

وأخيرًا، امتدت يد قوية من الضفة، وأمسكت بذراعه. ثم لحقتها أيدٍ أخرى.

وجذب الرجال عمران والصندوق معًا حتى استقرا على الأرض.

ظل عمران ملقى على ظهره لحظات، يلهث، بينما كان المطر يغسل الطين عن وجهه. أما أول ما فعله كبير البنائين، فلم يكن الاطمئنان على عمران، بل الانحناء على الصندوق. فك الرباط بسرعة. فتح الغطاء.

كانت الرقوق في الداخل جافة. تنفس الرجال الصعداء، وارتفعت من بينهم همهمات الحمد.

لكن عمران نهض فجأة، والتفت إلى الضفة الأخرى.

كانت دار السجلات لا تزال قائمة، إلا أن الماء بلغ منتصف جدرانها، ورأى الشيخ العجوز من خلال الباب الموارب يرفع آخر السجلات إلى أعلى رف في الغرفة، ثم يغلق النافذة الخشبية بإحكام.

قال عمران بصوت اختلط فيه القلق بالعزم: «ما زال هناك.»

أمسكه كبير البنائين من كتفه. «لقد أنقذت الأمانة.»

نظر عمران إلى الرجل، ثم أعاد بصره إلى الضفة الأخرى.

وقال بهدوء حاسم: «الأمانة ليست الصندوق وحده... الأمانة أيضًا ذلك الرجل الذي ظل يحرسه حتى آخر لحظة.»

ولأول مرة منذ بداية الرحلة، شعر الرجال أن المهمة لم تنتهِ بعد، وأن أصعب اختبار لم يكن إنقاذ السجلات، بل اتخاذ القرار الذي سيأتي بعده، بينما كان السيل يواصل ارتفاعه، والسماء لا تزال تمطر بلا توقف.

لم ينتظر عمران جوابًا. نزع الحبل عن خصره، وأعاد لفه حول جذع الشجرة الكبرى، ثم نظر إلى الرجال المجتمعين حوله. كانت علامات التردد بادية على وجوههم؛ فالسيل ازداد عنفًا، وأصبح عبوره أصعب مما كان قبل دقائق.

قال كبير البنائين بصوت خافت: «إذا عدت الآن، فقد لا تستطيع الرجوع مرة أخرى.»

أجاب عمران وهو يشد الحبل بين يديه: «ولهذا لن أعود وحدي.»

ثم التفت إلى الرجال وقال: «من يعرف السباحة في التيارات؟»

تقدم رجلان دون تردد. كان أحدهما راعيًا اعتاد عبور الأودية في مواسم الأمطار، والآخر شابًا يعمل في نقل الأخشاب عبر النهر في أيام الفيضان. لم يقولا شيئًا، وإنما وقفا إلى جوار عمران، وكأن القرار قد اتخذ قبل أن يُسأل عنه.

ربط الثلاثة الحبل حول خصورهم، وربطوا بينهم بحبل أقصر، حتى إذا جرف الماء أحدهم، بقي الآخران قادرين على جذبه.

وقف كبير البنائين أمامهم، ونظر إلى عمران طويلًا، ثم قال: «إن عجزتم عن الوصول إليه، فلا تغامروا حتى تهلكوا جميعًا.»

أومأ عمران برأسه، ثم نزل الرجال الثلاثة إلى الماء.

كان السيل قد ابتلع المكان الذي وقفوا فيه قبل قليل، وأصبحت الأمواج تضرب الأشجار بعنف حتى أخذت الأغصان تتكسر وتسقط في مجرى الوادي. ومع كل خطوة كانوا يخطونها، كان الحبل المشدود إلى الضفة يئن تحت الضغط، بينما يشد الرجال الواقفون خلفه بكل ما أوتوا من قوة.

وبعد جهد مرهق، بلغوا الدار.

كانت المياه قد دخلت معظم الغرف، ولم يبق من الجدران الجافة إلا الجزء العلوي. دفع عمران الباب بكلتا يديه، فلم يتحرك.

أعاد المحاولة.

ثم جاءت موجة قوية، فدفعت الباب إلى الداخل، وانفتح على صوت ارتطام الماء بالأثاث المبعثر.

دخل مسرعًا.

كان الشيخ العجوز لا يزال في الداخل، وقد جلس فوق الطاولة الخشبية بعد أن ارتفع الماء إلى خصره. حوله كانت السجلات موضوعة فوق الرفوف العليا كما استطاع أن يرتبها، بينما كان يحمل بين يديه مجلدًا صغيرًا، يضمه إلى صدره كأنه يخشى أن تبتل صفحاته.

ما إن رأى عمران حتى ابتسم ابتسامة متعبة. وقال: «كنت أعلم أنك ستعود.»

اقترب عمران منه، وقد امتزج صوته بالقلق: «لماذا بقيت؟»

نظر الشيخ إلى المجلد الذي بين يديه، ثم قال: «هذا سجل المواليد والوفيات. لم يكن له نسخة ثانية.»

ساد الصمت لحظة.

أدرك عمران أن الشيخ لم يخاطر بحياته من أجل أوراق، بل من أجل أسماء الأطفال الذين ولدوا، والآباء الذين رحلوا، والنساء اللواتي تركن خلفهن أبناء لا يملكون شاهدًا على أنسابهم إلا هذه الصفحات.

أخذ عمران المجلد، ولفه داخل قطعة من القماش المشمع التي كان يحملها معه، ثم قال: «حان وقت الرحيل.»

ساعد الرجلان الشيخ على الوقوف، لكن خطواته كانت بطيئة، فقد أنهكه التعب والبرد.

خرج الأربعة إلى الباب.

وفي اللحظة التي تجاوزوا فيها العتبة، دوى صوت مكتوم، ثم سقط جزء من سقف الغرفة التي كانوا فيها قبل ثوانٍ قليلة.

التفت الشيخ إليها، وتنهد قائلًا: «لو تأخرتم قليلًا... لبقيت هناك إلى الأبد.»

لم يجب أحد.

كان عليهم أن يعبروا الوادي قبل أن ينهار ما بقي من الحبال.

بدأت رحلة العودة.

هذه المرة، كان الشيخ في الوسط، يمسك بالحبل بكلتا يديه، بينما أحاط به عمران والرجلان الآخران. كان التيار يدفعهم بعنف، لكنهم كانوا يتحركون كجسد واحد؛ إذا تعثر أحدهم، شده الآخران، وإذا ارتفعت موجة، انحنوا جميعًا حتى تمر فوق رؤوسهم.

على الضفة المقابلة، كان الرجال قد شكلوا صفًا طويلًا، يتناوبون على شد الحبل حتى لا يرهق أحدهم.

وما إن اقتربت المجموعة من الشاطئ حتى اندفع الجميع لمساعدتهم.

امتدت الأيدي، وارتفعت الأصوات بالتكبير والحمد، حتى خرج آخرهم من الماء.

جلس الشيخ العجوز على الأرض، وهو يلتقط أنفاسه، ثم نظر إلى المجلد الملفوف بالقماش.

طلبه من عمران.

فتناوله بيدين مرتجفتين، وفتح طرف القماش قليلًا.

كانت الصفحات جافة.

أغمض الشيخ عينيه، وانحدرت دمعة صامتة على خده.

لم تكن دمعة خوف، ولا دمعة نجاة.

كانت دمعة رجل أفنى عمره يحرس ذاكرة الناس، ثم رأى بعينيه أن تلك الذاكرة وجدت من يحملها بعده.

اقترب الكاتب الأكبر، ووضع يده على كتف عمران، لكنه لم يقل كلمة.

لم يكن في ذلك الموقف كلام يليق بما حدث.

أما عمران، فقد رفع بصره نحو الدار التي بدأ السيل يقتلع جدرانها حجرًا بعد حجر.

ورأى، لأول مرة في حياته، بناءً ينهار أمام عينيه، دون أن يشعر بالعجز.

لقد أدرك أن الحجارة يمكن أن تسقط، وأن البيوت يمكن أن تجرفها المياه، لكن ما دام هناك رجال ينسخون الحقيقة، ويحفظونها، ويسلمونها لمن بعدهم، فإن المدينة تستطيع أن تقوم من جديد، حتى وإن بدأ بناؤها من أول حجر.

ظل الرجال واقفين على ضفة الوادي حتى هدأ اضطراب أنفاسهم. لم يكن أحد منهم ينظر إلى الدار التي أخذت المياه تلتهم جدرانها حجرًا بعد حجر، فقد أدركوا أن محاولة إنقاذها أصبحت مستحيلة.

وبعد دقائق، سُمع صوت تصدع عميق، ثم انحنى الجدار الشرقي ببطء قبل أن ينهار في مجرى السيل، فارتفعت موجة كبيرة حملت معها أخشاب السقف، وأجزاء من الأبواب، وبعض الأواني التي لم يجد أصحابها وقتًا لإخراجها.

خفض الشيخ العجوز رأسه، وتمتم بصوت يكاد لا يسمع: «رحمك الله... لقد خدمت الناس سنين طويلة.»

لم يكن يرثي البناء، بل يرثي المكان الذي قضى فيه نصف عمره بين السجلات والدفاتر.

اقترب منه عمران، وقال في هدوء: «سنبني دارًا أخرى.»

ابتسم الشيخ ابتسامة امتزج فيها الحزن بالأمل. «نعم... سنبنيها بالحجارة.»

ثم رفع المجلد الصغير بين يديه، وأضاف: «أما هذا، فلا يستطيع أحد أن يبنيه من جديد إذا ضاع.»

كانت تلك الكلمات كافية لأن يفهم الرجال جميعًا لماذا خاطر شيخ في مثل سنه بحياته من أجل مجموعة من الرقوق.

حين انحسر المطر مع اقتراب المساء، بدأت القافلة رحلة العودة إلى القدس. ساروا ببطء، فقد أثقلهم التعب، وكانت العربتان تمتلئان بالصناديق التي نجت من الماء، بينما جلس الشيخ العجوز إلى جوار عمران، يضم المجلد الصغير إلى صدره كما تضم الأم طفلها.

لم يتحدثا طويلًا.

كان الطريق نفسه يتكلم.

الأشجار المقتلعة، وجذوع الزيتون التي حملها السيل إلى أماكن لم تعرفها من قبل، والحقول التي غمرها الطين، كلها كانت تروي قصة يوم لن ينساه أحد ممن عاشه.

وبعد مسيرة ساعات، ظهرت أسوار القدس من بعيد. كانت الشمس قد خرجت أخيرًا من بين السحب، فألقت ضوءًا ذهبيًا على حجارة المدينة، حتى بدت كأنها ولدت من جديد بعد ليلة طويلة من العاصفة.

عند البوابة، كان عدد من الناس ينتظرون أخبار القرى.

ما إن رأوا القافلة حتى أحاطوا بها يسألون عن أهلهم، وعن الجسر، وعن البيوت التي جرفها السيل.

لم يرفع عمران صوته.

ترك الشيخ العجوز يتحدث.

قال الشيخ: «خسرنا دار السجلات... لكننا لم نخسر سجلات الناس.»

ساد الصمت بين الواقفين.

ثم ارتفعت أصوات الحمد والدعاء، ولم يكن أحد يسأل عن قيمة الصناديق التي نجت، لأنهم كانوا يعلمون أن ما بداخلها أثمن من الخشب الذي يحملها.

في صباح اليوم التالي، دعا سليمان عليه السلام إلى اجتماع في دار القضاء، حضره كبار الكتبة، والقضاة، ومسؤولو البناء، وعدد من شيوخ القرى التي أصابها الفيضان.

وُضعت الصناديق في وسط المجلس.

فتح الكاتب الأكبر أول صندوق، وأخرج السجل الكبير.

قلب صفحاته أمام الحاضرين، فإذا بها سليمة لم يمسها الماء.

ثم أخرج سجل الأوقاف.

ثم سجلات الأراضي.

وأخيرًا، رفع الشيخ العجوز المجلد الصغير الذي أنقذه من الغرق.

قال بصوت متأثر: «وهذا... آخر ما خرج من الدار.»

نظر سليمان عليه السلام إلى المجلد طويلًا، ثم قال: «لقد سقط البناء، وبقيت الأمانة.»

ثم التفت إلى عمران. «من علمك أن تعود بعد إنقاذ الصندوق؟»

أجاب عمران في هدوء: «لم أستطع أن أترك رجلًا بقي يحرس ما أمرنا بحفظه.»

سكت المجلس.

ثم قال الشيخ العجوز: «بل أنا الذي أصررت على البقاء.»

ابتسم سليمان عليه السلام، وقال: «وكلاكما أدى ما عليه.»

ثم نهض من مجلسه، وسار حتى وقف إلى جوار الصناديق. وضع يده على غلاف السجل الأكبر، وقال:

«اسمعوا جميعًا...»

رفعت الوجوه نحوه.

«إن البناء الذي يهدمه المطر نستطيع أن نعيد تشييده، والزروع التي تذهبها السيول يعوضها موسم آخر، أما إذا ضاعت حقوق الناس، أو اختلطت أنسابهم، أو نُسيت عهودهم، فإن ظلمًا عظيمًا يقع، وقد لا يجد من يأتي بعدنا سبيلًا إلى إصلاحه.»

ثم نظر إلى الكاتب الأكبر، وقال: «من هذا اليوم، لا يبقى لأي سجل نسخة واحدة.»

نظر الحاضرون بعضهم إلى بعض.

وتابع: «تنسخ كل سجلات المدن المهمة في نسختين؛ تبقى الأولى في موضعها، وتحفظ الثانية في القدس. فإذا أصاب إحداهما بلاء، شهدت الأخرى بالحق.»

شعر عمران أن الكلمات التي يسمعها ستغير طريقة حفظ المعرفة إلى الأبد.

ولم يكن يدرك أن ذلك القرار سيكون البداية الحقيقية للعهد الذي سيعرفه الناس بعد قرون باسم عهد حراس الذاكرة، حيث لم تعد مهمة الكتبة أن يكتبوا فقط، بل أن يحفظوا، وينسخوا، ويسلموا الأمانة جيلاً بعد جيل، حتى لا يكون النسيان أقوى من الحقيقة.

وفي زاوية المجلس، كان الكاتب الأكبر يراقب عمران في صمت. وحين انتهى الاجتماع، اقترب منه، وقال بصوت لا يسمعه غيره: «لقد جاء الوقت... لأريك الغرفة التي لا يدخلها إلا من حمل الأمانة بحق.»

توقف عمران عن السير. لم يسأل أين تقع الغرفة. ولم يسأل ماذا يوجد فيها.

لأنه أدرك من نظرة الشيخ أن بابًا جديدًا من حياته قد فُتح، وأن كل ما عاشه حتى اليوم... لم يكن سوى بداية الطريق.

تبع عمران الكاتب الأكبر عبر ممرات دار القضاء حتى وصلا إلى نهاية رواق ضيق لم يكن قد دخله من قبل. توقف الشيخ أمام باب من خشب الزيتون، علاه أثر السنين، لكنه بقي متينًا كما لو صنع بالأمس. لم يكن الباب مزينًا بالنقوش، ولا تحرسه حراسة خاصة، حتى إن من يمر بجواره يظنه مخزنًا كسائر المخازن.

أخرج الكاتب مفتاحًا صغيرًا من جرابه، وأدار القفل برفق، ثم دفع الباب ببطء.

فاحت رائحة الجلد والحبر والخشب المعتق، واختلطت برائحة المكان الذي لم تنقطع عنه العناية منذ أعوام طويلة.

دخل عمران، فتوقفت قدماه عند العتبة.

لم تكن الغرفة كبيرة، لكنها امتلأت برفوف خشبية متينة، رتبت عليها مئات اللفائف والدفاتر والصناديق الصغيرة. وعلى كل رف لوحة خشبية كتب عليها اسم مدينة أو قرية، وتحتها تاريخ آخر مراجعة للسجلات.

اقترب عمران من أحد الرفوف، فقرأ أسماء يعرفها جيدًا: القدس، أريحا، بيت لحم، الخليل، غزة، والرملة. ثم رأى أسماء قرى صغيرة لم يسمع بها إلا من الفلاحين والرعاة.

قال الكاتب الأكبر وهو يراقب دهشته: «هذه ليست مكتبة.»

التفت إليه عمران. فأضاف: «المكتبة تجمع العلم، أما هذا المكان فيجمع حياة الناس.»

اقترب من أحد الصناديق، وأخرجه بعناية، ثم وضعه فوق منضدة عريضة تتوسط الغرفة.

فتح الصندوق. كان داخله سجلان متشابهان. قال: «أيُّهما الأصل؟»

نظر عمران إليهما طويلًا. قلب صفحاتهما.

تفحص لون الحبر، ونوعية الرق، وحتى طريقة الخياطة. ثم رفع رأسه مبتسمًا. «لا أستطيع أن أعرف.»

ابتسم الشيخ في رضا. «وهذا ما أردناه.»

نظر إليه عمران باستغراب.

قال الكاتب:

«حين ننسخ سجلًا، لا نترك في النسخة ما يدل على أنها نسخة، ولا نضع في الأصل ما يميزه عن غيره. فإذا سرق أحدهما، أو احترق، أو ضاع، بقي الآخر شاهدًا يقوم مقامه دون أن يختلف عنه في حرف.»

ثم أغلق الصندوق، وأعاده إلى مكانه.

وسارا بين الرفوف حتى وصلا إلى جدار في آخر الغرفة، لم يكن عليه شيء سوى لوح من خشب السرو.

رفع الشيخ اللوح، فإذا بتجويف صغير داخل الجدار. أخرج منه لفافة ملفوفة بقماش كتاني أبيض.

ناولها إلى عمران.

وقال: «افتحها.»

حل عمران العقدة بحذر. كانت اللفافة تحتوي على رقعة واحدة فقط. وفي أعلاها كتب بخط واضح:

"عهد الحافظ."

بدأ يقرأ:

"أقسم بالله العظيم أن لا أغير في شهادة سمعتها، ولا في وثيقة نسختها، ولا في حق علمت أنه لصاحبه. وألا أجعل الخوف يحذف كلمة، ولا الطمع يزيد كلمة، وأن أسلم ما حفظته لمن بعدي كما تسلمته ممن قبلي، فإن قصرت، فأنا مسؤول أمام الله، ثم أمام الناس، ثم أمام التاريخ."

انتهى عمران من القراءة، وبقيت عيناه معلقتين بالرقعة. لم تكن كلمات كثيرة، لكنها حملت ثقلًا لم يشعر بمثله من قبل. قال في هدوء: «ومن كتب هذا العهد؟»

أجاب الكاتب الأكبر: «لا نعلم.»

سكت قليلًا، ثم أردف:

«وصل إلينا من رجل سبقنا بأجيال، وأضاف إليه كل من جاء بعده كلمة واحدة فقط.»

سأل عمران: «وما هي؟»

اقترب الشيخ، وأشار إلى السطر الأخير. قرأ عمران: ***"وتذكر أن الحقيقة لا تحتاج إلى من يجملها، وإنما تحتاج إلى من يحميها."***

أعاد الرقعة إلى مكانها، ثم لفها كما كانت.

في تلك اللحظة، شعر أن الصندوق الذي أنقذه من السيل، والرسالة التي وجدها، والرقوق القديمة، لم تكن أحداثًا متفرقة، بل كانت تقوده خطوة بعد خطوة إلى هذه الغرفة.

جلس الكاتب الأكبر على المقعد الخشبي، وأشار إلى عمران أن يجلس قبالته.

وقال: «منذ سنوات طويلة وأنا أبحث عمن يستطيع أن يحمل هذا العمل بعدي. لم أكن أبحث عن أفضل الناس خطًا، ولا أكثرهم علمًا، بل عن رجل إذا خير بين راحته والأمانة، اختار الأمانة.»

ساد الصمت.

ثم تابع الشيخ بصوت امتزجت فيه الحكمة بالتعب:

«يخطئ كثير من الناس حين يظنون أن الذاكرة تحفظها الكتب وحدها. الكتب تحفظ إذا وجد من يصونها، ومن يصونها قد يضعف أو يمرض أو يموت. لذلك لا نحفظ الرقوق فقط، بل نربي الرجال الذين يحملونها.»

خفض عمران بصره.

كان يسمع الكلمات، لكنه كان يرى أمامه وجه الشيخ العجوز وهو يجلس وسط الماء، يرفع السجلات إلى الرفوف العالية، ويرى أيضًا الفلاح الذي قال له إن الأرض تسمع أصحابها، والنجار الذي كان ينحت الحجر لطفل لم يولد بعد.

أدرك أن جميع أولئك الرجال، وإن اختلفت أعمالهم، كانوا يشتركون في شيء واحد؛ كانوا يعيشون لأنفسهم، لكنهم يعملون لمن سيأتي بعدهم.

عندها نهض الكاتب الأكبر، ووضع يده على كتف عمران، وقال بهدوء:

«ابتداءً من الغد، لن تكون مساعدًا لي... بل ستكون شريكًا في حمل هذه الأمانة. وسيأتي يوم تسلمها أنت أيضًا إلى رجل آخر، كما أسلمت إليك اليوم.»

خرج عمران من الغرفة وقد تغيرت نظرته إلى المدينة كلها. لم تعد القدس في عينيه مجرد أسوار وأسواق وورش بناء، بل أصبحت سجلًا حيًا، يكتب فيه كل إنسان سطرًا من عمره، ثم يمضي، ويبقى ما كتبه شاهدًا عليه ما بقيت الذاكرة حية.

مرّت الشهور، وأصبحت حياة عمران تسير وفق نظام لم يألفه من قبل. فما إن ينتهي من عمله في الورشة حتى يتجه إلى دار السجلات، حيث يقضي بقية النهار بين الرقوق والدفاتر، يراجع ما ينسخه الكتبة، ويقارن النسخ بالأصول، ويتأكد من أن اسمًا لم يسقط، أو تاريخًا لم يتغير، أو حدًا من حدود أرض لم يُنقل من موضعه. وقد كان الكاتب الأكبر شديد الدقة، حتى إنه كان يعيد نسخ صفحة كاملة إذا وجد فيها حرفًا مائلًا عن موضعه.

وفي إحدى الأمسيات، بينما كان عمران يراجع سجلًا يخص قرية صغيرة تقع جنوب القدس، لاحظ اختلافًا بين النسخة الجديدة والأصل القديم. لم يكن الاختلاف كبيرًا، بل اقتصر على سطر واحد يحدد حدود بستان يعود إلى أسرة عرفت في تلك الناحية منذ زمن بعيد.

ظن في البداية أن الناسخ أخطأ دون قصد، لكنه حين أعاد قراءة الأصل مرة ثانية، تأكد أن السطر قد غُيّر عمدًا.

أغلق السجل، وحمله إلى الكاتب الأكبر.

قرأ الشيخ الصفحتين، ثم رفع رأسه ببطء.

لم يقل شيئًا.

أعاد القراءة مرة ثالثة، ثم تنهد وقال: «هذا ليس خطأ.»

سأله عمران: «إذن ماذا يكون؟»

أجاب الشيخ: «هذه يد تعرف ما تفعل.»

ساد الصمت بينهما.

ثم نهض الكاتب، وأخرج سجلًا آخر يعود إلى العام نفسه، وقارن بينه وبين الوثيقة. كانت الحدود في السجل القديم مطابقة لما في الأصل، أما النسخة الجديدة فقد نُقلت فيها العلامة الحجرية التي تفصل بين البستانين مسافة تكفي لتغيير الملكية كلها.

قال عمران في دهشة: «ولماذا يفعل أحد هذا؟»

أجاب الكاتب الأكبر وهو يغلق السجل: «لأن تغيير كلمة واحدة قد يمنح رجلًا أرضًا ليست له، ويحرم آخر من حق ورثه عن أبيه وجده.»

ولم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من التفكير.

فالعبث بالسجلات لم يكن اعتداءً على الورق، بل على العدل نفسه.

وفي صباح اليوم التالي، استدعى الكاتب جميع من شاركوا في نسخ ذلك السجل. حضر أربعة رجال، جلسوا في هدوء، وكل واحد منهم يظن أن الأمر يتعلق بمراجعة عادية.

وضع الكاتب السجلين أمامهم. ثم قال: «بين هاتين الصفحتين اختلاف.»

تبادل الرجال النظرات.

وأضاف: «ولا يمكن أن يكون هذا الاختلاف قد وقع مصادفة.»

ساد المجلس صمت ثقيل.

كان عمران يراقب الوجوه بصمت. لم يكن يبحث عن الخوف، بل عن الدهشة. فالذي يخطئ بغير قصد يندهش قبل غيره، أما من تعمد، فإنه يخشى أن يلتقي بصره ببصر من حوله.

وبينما كان الجميع يراجعون الصفحتين، لاحظ عمران أن أحد الكتبة ظل يضم يديه إلى صدره، ويتجنب النظر إلى السجل.

لم يتكلم.

لكنه حفظ ذلك في ذهنه.

انتهى الاجتماع دون اتهام أحد، وأمر الكاتب الأكبر بإعادة نسخ السجل من الأصل، ثم حفظ الأصل في مكان آخر إلى حين انتهاء المراجعة.

ولما خرج الرجال، بقي عمران مع شيخه.

قال في هدوء: «أظن أن أحدهم يعرف الحقيقة.»

ابتسم الكاتب الأكبر ابتسامة خفيفة. «وأنا أيضًا.»

سأله عمران: «فلِمَ لم تسأله؟»

اقترب الشيخ من النافذة، وأخذ ينظر إلى ساحة الدار، حيث كان الناس يدخلون ويخرجون في قضاياهم اليومية.

ثم قال: «لأن الحارس لا يتهم حتى يملك الدليل. ولو ظلمنا رجلًا بريئًا، لكنا نحن أول من خان الأمانة.»

كانت تلك الكلمات درسًا جديدًا لعمران.

لقد أدرك أن حماية الذاكرة لا تكون فقط من الحريق والفيضان، بل أيضًا من التسرع، ومن إصدار الأحكام قبل اكتمال الحقيقة.

وفي تلك الليلة، عاد إلى بيته متأخرًا. جلس في فناء الدار، يتأمل السماء وقد امتلأت بالنجوم، بينما كان السكون يلف المدينة. وأخذ يفكر في أمر لم يخطر بباله من قبل؛ إذا كان هناك من يحاول إنقاذ السجلات من الماء، فلا بد أن هناك أيضًا من يحاول تغييرها لمصلحة نفسه.

وعندها فهم أن أخطر أعداء الذاكرة ليس الزمن... بل الإنسان حين يبيع ضميره.

وفي اللحظة نفسها، كان رجل مجهول يقف في زقاق قريب من دار السجلات، يراقب الباب المغلق من بعيد. لم يقترب، ولم يحاول الدخول، لكنه بقي واقفًا حتى انطفأ آخر مصباح في الدار، ثم استدار واختفى في ظلام الليل، وكأنه ينتظر الفرصة التي يظن أنها ستأتي قريبًا.

لم ينم عمران تلك الليلة إلا ساعات قليلة. لم يكن الرجل المجهول الذي وقف خارج دار السجلات هو ما أقلقه، بل الفكرة التي استقرت في ذهنه منذ اكتشاف الاختلاف بين النسختين. كان يعلم أن الحجر إذا تصدع ظهر أثره سريعًا، أما الكلمة إذا حُرِّفت، فقد تمر عليها سنوات قبل أن يكتشف أحد ما أحدثته من ظلم.

وقبل طلوع الفجر، خرج من بيته كعادته، وسلك الطريق المؤدي إلى الورشة. كانت المدينة لا تزال تغفو تحت ضوء الصباح الباهت، ولم يكن في الأزقة إلا الخبازون يشعلون أفرانهم، وحراس الليل يستعدون لتسليم مواقعهم إلى حراس النهار. وما إن اقترب من السور الشرقي حتى لمح الكاتب الأكبر واقفًا وحده، يتأمل العمال وهم يتهيؤون لبدء يوم جديد.

اقترب منه، وألقى السلام.

رد الشيخ السلام، ثم قال دون مقدمات: «كنت أعلم أنك ستأتي مبكرًا.»

ابتسم عمران وقال: «لم يتركني الأمر أنام.»

هز الكاتب رأسه، ومضى يسير ببطء بمحاذاة السور، فلحق به عمران.

قال الشيخ بعد لحظات من الصمت: «أتدري لماذا كنت أصر على أن تتعلم البناء قبل النسخ؟»

نظر إليه عمران مستغربًا.

وتابع الشيخ: «لأن البنّاء يعرف أن أساس الجدار أهم من آخر حجر يوضع فيه. وكذلك السجل؛ الناس يقرؤون الصفحة الأخيرة، أما الحارس فيبدأ من الأولى.»

توقفا عند موضع مرتفع يشرف على جزء كبير من المدينة. كانت الشمس قد بدأت تطل من خلف الجبال، فأضاءت أسطح البيوت، ولامست أشعتها قباب المساجد وأشجار الزيتون التي أحاطت بالقدس من جهاتها.

أشار الشيخ إلى المدينة، وقال: «انظر إليها جيدًا.»

فنظر عمران.

قال الشيخ: «كم بيتًا ترى؟»

ابتسم عمران وقال: «لا أستطيع عدها.»

قال الشيخ: «ولا أنا. لكن لكل بيت قصة، ولكل أسرة نسب، ولكل أرض حد، ولكل وقف شاهد. فإذا ضاعت هذه الشهادات، بدأ الناس يختلفون، ثم يتحول الخلاف إلى خصومة، والخصومة إلى ظلم، والظلم إلى فتنة. ولهذا لا نحفظ الورق، بل نحفظ السكينة بين الناس.»

بقي عمران صامتًا، فقد شعر أن الشيخ لم يكن يحدثه عن عمل يؤديه، بل عن رسالة سترافقه ما بقي حيًا.

ومع ارتفاع الشمس، بدأت الورشة تضج بالحركة. حمل العمال أدواتهم، واصطفت العربات المحملة بالحجارة القادمة من المحاجر. وما إن شرع عمران في فحصها حتى أقبل إليه غلام من دار السجلات، تبدو على وجهه علامات الاضطراب.

قال وهو يلهث: «يا عمران... يطلبك الكاتب الأكبر حالًا.»

لم يسأله عن السبب، بل ترك مطرقته في مكانها، واتجه مسرعًا إلى الدار.

وجد الشيخ واقفًا أمام المنضدة الكبيرة، وقد نشر عليها ثلاثة سجلات تعود إلى أعوام مختلفة.

قال وهو يشير إليها: «انظر بنفسك.»

اقترب عمران، وأخذ يقلب الصفحات. كانت كلها تتعلق بالبستان نفسه الذي اكتشف فيه الاختلاف بالأمس.

قرأ السجل الأول، ثم الثاني، ثم الثالث. وفجأة توقف.

رفع رأسه ببطء.

قال: «ليس سطرًا واحدًا فقط...»

ابتسم الشيخ ابتسامة حزينة.

«بل ثلاث محاولات.»

أعاد عمران النظر إلى الصفحات، فاكتشف أن أحدهم حاول في كل مرة تغيير الحد الفاصل بطريقة مختلفة، حتى لا يثير الشك. مرة بدّل اسم الصخرة التي تبدأ عندها الأرض، ومرة غيّر اتجاه مجرى الماء، ومرة حذف اسم شجرة زيتون كانت تُعرف بها الحدود.

قال عمران: «لقد كان يعرف أن السجل سيُراجع.»

أجاب الكاتب الأكبر: «بل كان يعرف أيضًا أن أكثر الناس يراجعون الصفحة التي ينسخونها فقط، ولا يقارنونها بما قبلها وما بعدها.»

ساد الصمت.

ثم أخرج الشيخ صندوقًا صغيرًا من تحت المنضدة، ووضعه أمام عمران.

فتح الصندوق، فإذا بداخله أقلام من القصب، ومحابر مختلفة، وقطع من الرق كتب على كل واحدة منها أسماء الكتبة العاملين في الدار.

قال الشيخ: «لكل كاتب يد تختلف عن غيره، كما تختلف بصمات الأصابع. بعضهم يضغط على القلم، وبعضهم يميله، وبعضهم يطيل الألفات، وآخرون يقصرونها.»

أخذ رقعة، ووضعها إلى جانب السجل.

«انظر هنا.»

انحنى عمران فوق المنضدة. كانت هناك نقطة صغيرة فوق أحد الحروف، تكاد لا ترى.

قال الشيخ: «الناس يظنون أن الناسخ يستطيع أن يخفي أثره إذا قلد خط غيره.»

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

«لكن القلم يفضح صاحبه، كما تفضح المطرقة البنّاء الذي أمسك بها.»

ظل عمران يقارن بين الرقاع والسجل طويلًا، حتى استقرت عيناه على اسم واحد.

لم ينطق به.

ورفع بصره إلى الشيخ.

فوجده ينظر إليه، وقد أدرك أنه توصل إلى النتيجة نفسها.

لكن الكاتب الأكبر قال بهدوء: «لا تتعجل.»

أغلق الصندوق، ثم جمع السجلات بعناية، وأعادها إلى أماكنها.

وأضاف:

«اليوم عرفنا كيف وقع التغيير... وغدًا سنعرف لماذا وقع. واعلم يا عمران أن معرفة اليد أسهل من معرفة القلب، والحارس لا يكتفي بأن يعرف الفاعل، بل يبحث عن السبب أيضًا، لأن علاج الخطأ يبدأ من جذره، لا من أثره.»

خرج عمران من دار السجلات وهو يشعر أن الطريق الذي اختاره لم يعد طريقًا لحفظ الماضي فقط، بل أصبح طريقًا لحماية العدل نفسه. وكان يدرك، للمرة الأولى، أن المعركة الحقيقية لا تكون دائمًا في ساحات القتال، فقد تبدأ أحيانًا من حرف صغير كُتب في غير موضعه، ثم يمتد أثره حتى يغير حياة أناس لم يرهم الكاتب يومًا.

خرج عمران من دار السجلات، لكن حديث الكاتب الأكبر ظل يتردد في ذهنه طوال ذلك اليوم. لم يعد ينظر إلى الرقوق على أنها أوراق تحفظ في الرفوف، بل أصبح يرى في كل صفحة حياة كاملة، قد تتبدل بسبب كلمة واحدة، أو نقطة زادت في غير موضعها، أو اسم محي من سطر قديم. ولأول مرة، شعر أن البناء الذي يقيمه بالحجارة أيسر من البناء الذي يقيمه بالحبر، فالحجر إذا انكسر أمكن استبداله، أما الحقيقة إذا كسرت، فقد تحتاج أعوامًا طويلة حتى تستقيم من جديد.

مضت الأيام التالية هادئة في ظاهرها، لكنها كانت تموج بحركة لا يلحظها إلا من يعرف دار السجلات من الداخل. فقد أمر الكاتب الأكبر بإعادة مراجعة جميع النسخ التي أعدت خلال الأشهر الماضية، دون أن يعلن سبب ذلك لأحد. جلس الكتبة في أماكنهم المعتادة، ينسخون الوثائق كما اعتادوا، بينما كان عمران ينتقل بينهم في هدوء، يحمل سجلًا ويعيده، أو يناول أحدهم رقعة جديدة، حتى ظن الجميع أنه يؤدي عملًا عاديًا لا أكثر.

غير أن الحقيقة كانت غير ذلك.

كان عمران يراقب الأيدي أكثر مما يراقب الوجوه.

يرى كيف يمسك كل ناسخ قلمه، وكيف يغمسه في الحبر، وكيف يرسم الحروف الأولى من كل سطر. ولم يكن يبحث عن خط جميل أو رديء، بل عن عادة صغيرة لا يستطيع صاحبها التخلص منها. فهناك من يميل الألف قليلًا إلى اليمين، وآخر يجعل آخر الكلمة يرتفع عن السطر، وثالث يترك مسافة أوسع بين الكلمات. وقد أدرك أن الكاتب الأكبر كان محقًا؛ فالقلم يحمل أثر صاحبه كما تحمل الأقدام أثر السائر في الرمل.

وفي مساء أحد الأيام، دخل الناسخ الذي اشتبه فيه عمران إلى الغرفة متأخرًا على غير عادته. اعتذر بأن أمه مريضة، وأنه اضطر إلى البقاء معها، فقبل الكاتب الأكبر عذره دون تعليق، ثم سلمه سجلًا جديدًا ليباشر نسخه.

جلس الرجل إلى منضدته، وأخذ يكتب في صمت.

أما عمران، فكان في الطرف الآخر من الغرفة يراجع سجلًا قديمًا، لكنه لم يغفل عنه لحظة واحدة.

وبينما كان الناسخ يقلب إحدى الصفحات، سقط من بين الرقوق شيء صغير لم ينتبه إليه.

قطعة جلد لا يتجاوز حجمها راحة اليد.

انحنى الرجل مسرعًا ليلتقطها، لكن عمران كان أقرب إليه.

التقطها قبله، ثم ناولها إليه مبتسمًا.

قال الناسخ في ارتباك: «شكرًا لك... إنها لا قيمة لها.»

ابتسم عمران، لكنه لم يتركها من يده.

قال بهدوء: «إن كانت لا قيمة لها، فلماذا تغير لونك حين سقطت؟»

ساد الصمت. مد الناسخ يده ببطء، وقال: «إنها ملاحظة كتبتها لنفسي.»

ناولها إليه عمران، ثم عاد إلى مكانه، كأنه لم يشك في شيء.

لكن عينيه كانتا قد التقطتا ما يكفي.

فقد رأى على الرقعة رسمًا صغيرًا يحدد حدود البستان نفسه الذي دار حوله الخلاف.

ولم يكن الرسم نسخة من السجل، بل نسخة معدلة.

عند انصراف الكتبة مع غروب الشمس، بقي عمران في الغرفة يرتب الرفوف كما اعتاد كل مساء.
وبعد قليل، دخل الكاتب الأكبر، وأغلق الباب خلفه.

لم يتبادلا السلام هذه المرة.

اقترب عمران من المنضدة، ورسم بإصبعه على الخشب شكل الحدود التي رآها على الرقعة.

رفع الشيخ رأسه، ولم يسأله كيف عرف.

بل قال بهدوء: «إذن لم نكن مخطئين.»

جلس الاثنان متقابلين، ولم يكن بينهما سوى ضوء مصباح صغير.

قال عمران: «أظن أن الرجل لا يعمل وحده.»

ظل الكاتب الأكبر صامتًا، ثم قال: «وأنا أخشى ذلك.»

قطب عمران حاجبيه.

«ولماذا؟»

أجاب الشيخ وهو يفتح سجلًا قديمًا يعود إلى سنوات بعيدة:

«لأن تغيير حد أرض واحدة لا يستحق كل هذا العناء. من يخاطر بأمانته من أجل بستان صغير، لا بد أن وراءه من ينتظر شيئًا أكبر.»

ثم قلب صفحات السجل حتى توقف عند حادثة مضى عليها أكثر من عشرين عامًا.

قرأ بصوت هادئ:

«في هذا العام اكتشف الناسخ سالم محاولة لتغيير سجل وقف يعود إلى مسجد القرية. ولم يُعرف الفاعل، لأن الناسخ توفي بعد ثلاثة أيام من اكتشاف الأمر.»

رفع عمران رأسه في دهشة.

«أتوفي؟»

أجاب الشيخ: «قال الناس إنه مرض فجأة.»

ثم أغلق السجل ببطء، وأضاف: «لكنني كنت حاضرًا يومها... ولم أقتنع قط بأن الأمر كان مجرد مرض.»

ساد الصمت في الغرفة.

كان المطر قد بدأ يهطل خارج النوافذ، وارتطمت قطراته بالألواح الخشبية في إيقاع هادئ، بينما شعر عمران أن القضية التي بين يديه لم تعد تتعلق ببستان أو وثيقة، بل بتاريخ طويل من المحاولات الخفية التي سعت إلى العبث بالسجلات.

نهض الكاتب الأكبر، واتجه نحو النافذة، ثم قال دون أن يلتفت: «من هذه الليلة، لن تبقى السجلات في مكان واحد.»

استدار ونظر إلى عمران.

«سنبدأ بنقل النسخ المهمة إلى أماكن مختلفة داخل المدينة، ولن يعرف مواضعها إلا عدد قليل من الأمناء.»

توقف لحظة، ثم أردف بصوت امتزج فيه الحزم بالحكمة:

«لقد أنقذنا السجلات من السيل... وحان الوقت لأن ننقذها من أيدي البشر أيضًا.»

لم يبدأ نقل السجلات في الليلة نفسها، بل انتظر الكاتب الأكبر حتى انقضى أسبوع كامل، حتى لا يربط أحد بين ما جرى في دار السجلات وبين ما عزم عليه. وخلال تلك الأيام، ظل العمل يسير على صورته المعتادة؛ يدخل الناس صباحًا ليثبتوا بيع أرض، أو يحرروا وقفًا، أو يسجلوا مولودًا جديدًا، ويخرجون مطمئنين إلى أن حقوقهم قد حفظت في السجلات كما حفظت من قبل.

أما في الداخل، فقد كانت الأمور تختلف عما يراه الزائرون.

جلس الكاتب الأكبر مع عمران بعد انصراف الكتبة، وأخرج رقعة صغيرة رسم عليها خريطة للقدس. لم تكن خريطة للطرقات والأسواق، بل لخزائن الحفظ التي يمكن الوثوق بها. أشار إلى مسجد عند

الطرف الجنوبي من المدينة، ثم إلى دار قاضٍ عرف بالأمانة، ثم إلى غرفة صغيرة في أحد الأديرة القديمة التي حفظ فيها الرهبان كتبهم منذ سنين طويلة.

قال الشيخ وهو يطوي الرقعة بعد أن حفظها عمران عن ظهر قلب:

«إذا اجتمع كل شيء في مكان واحد، ضاع كل شيء بضربة واحدة. أما إذا تفرقت الأمانة بين رجال يعرف بعضهم بعضًا، فإن ضياعها يصبح أصعب.»

هز عمران رأسه موافقًا، ثم سأل:

«وهل يعلم هؤلاء جميعًا بما نحفظ؟»

ابتسم الكاتب الأكبر.

«يعلمون أنهم يحفظون أمانة، ولا يحتاجون إلى معرفة كل ما فيها. فالأمانة لا تزداد قيمة بكثرة من يعرفها، بل بقلة من يخونها.»

وفي الليلة التالية، خرج عمران مع الشيخ بعد أن خلت الطرقات إلا من حراس الليل. لم يحملا صناديق كبيرة تثير الانتباه، وإنما حمل كل واحد منهما جرابًا جلديًا لا يختلف عن جراب أي كاتب يعود إلى بيته بعد يوم طويل من العمل. كان كل جراب يحتوي على سجل واحد فقط، هو نسخة من أكثر السجلات أهمية.

سارا في صمت حتى وصلا إلى بيت القاضي عبدون، وهو رجل جاوز الستين من عمره، اشتهر بين الناس بأنه لا يوقع حكمًا حتى يقرأه مرتين. فتح لهما الباب بنفسه، ولم يسأل عن سبب الزيارة، بل قادهما إلى غرفة داخلية، فيها خزانة خشبية بنيت داخل الجدار.

أخرج الكاتب الأكبر السجل، ووضعه في الخزانة، ثم أغلقها بالمفتاح.

قال القاضي: «أسأل الله أن يأتي يوم لا نحتاج فيه إلى إخراج هذه النسخة.»

فأجابه الكاتب الأكبر:

«وأنا أسأل الله ذلك أيضًا، لكن الحارس يعد العدة قبل أن تأتي الحاجة.»

غادرا البيت، وسلكا زقاقًا ضيقًا يؤدي إلى المسجد. كانت المدينة تغط في نوم عميق، حتى إن وقع أقدامهما كان يُسمع بوضوح بين الجدران الحجرية. وما إن بلغا ساحة المسجد، حتى خرج إليهما الإمام يحمل مصباحًا صغيرًا.

رحب بهما، ثم قادهما إلى غرفة ملاصقة للمحراب، لا يدخلها إلا هو ومؤذن المسجد. وهناك وضعت نسخة أخرى داخل صندوق من خشب السرو، ثم أعيد ترتيب الكتب فوقه، حتى بدا المكان طبيعيًا لا يلفت النظر.

ولما خرج الثلاثة إلى صحن المسجد، رفع الإمام بصره إلى السماء وقال:

«غريب أمر الإنسان... يحرس الذهب بالحراس، ويحرس العلم بالثقة.»

ابتسم الكاتب الأكبر وقال: «ولولا الثقة، لما بقي علم ولا عدل.»

وبينما كانوا يتحدثون، لمح عمران من طرف الساحة ظل رجل يعبر مسرعًا بين الأعمدة. لم يستطع أن يرى وجهه، لكن الرجل توقف لحظة، كأنه يراقب المسجد، ثم اختفى في أحد الأزقة.

لم يلتفت عمران إليه مباشرة، حتى لا يشعره بأنه انتبه لوجوده، لكنه حفظ هيئته في ذاكرته؛ كان متوسط القامة، يضع على كتفيه عباءة داكنة، ويعرج عرجًا خفيفًا في قدمه اليسرى.

وحين ابتعد، التفت إلى الكاتب الأكبر وقال بصوت خافت: «أظن أننا لسنا وحدنا في هذه الليلة.»

نظر الشيخ في الاتجاه الذي أشار إليه، فلم ير أحدًا.

لكنه لم يستخف بكلام عمران.

بل قال بهدوء: «إذن سنغير الطريق.»

ولم يعودا إلى دار السجلات عبر الزقاق المعتاد، وإنما سلكا طريقًا أطول يمر بين البساتين المحيطة بالسور. كان القمر قد خرج من بين السحاب، فألقى ضوءه على أشجار الزيتون، بينما أخذت الريح تحرك أغصانها في همس يشبه حديثًا قديمًا.

وبعد مسيرة طويلة، توقف الكاتب الأكبر عند شجرة زيتون ضخمة، تبدو أقدم من كل ما يحيط بها. وضع يده على جذعها، ثم قال:

«انظر إليها يا عمران. هذه الشجرة شهدت رجالًا رحلوا قبل أن نولد، وستشهد رجالًا يأتون بعد أن نرحل. لا تخشى الريح، لأنها ضاربة بجذورها في الأرض.»

ثم التفت إليه، وأضاف بصوت هادئ:

«وحارس الذاكرة يجب أن يكون مثلها؛ قد تهزه الأيام، لكنها لا تقتلع جذوره، لأنه يعرف أن ما يحمله ليس ملكًا له، بل أمانة لمن سيأتي بعده.»

عاد عمران والكاتب الأكبر إلى دار السجلات قبيل الفجر بقليل. كانت المدينة لا تزال غارقة في السكون، ولم يكن يسمع سوى وقع أقدام حراس الليل وهم يتبادلون المواقع عند أبواب القدس. فتح الشيخ الباب الخشبي، ثم دخلا الغرفة الكبيرة التي اعتاد الكتبة العمل فيها، وأشعل مصباحًا صغيرًا وضعه في وسط المنضدة.

نظر عمران إلى الرفوف الممتدة على الجدران، ولاحظ أن الفراغ الذي تركته السجلات المنقولة لم يكن ظاهرًا. فقد حرص الكاتب الأكبر على إعادة ترتيب بقية المجلدات بحيث لا يشعر أحد أن شيئًا قد تغير.

قال عمران وهو يتأمل الرفوف: «لن ينتبه أحد إلى أن بعض النسخ لم تعد هنا.»

ابتسم الشيخ ابتسامة رضا، ثم قال: «الحارس الناجح هو الذي ينجز عمله دون أن يترك خلفه أثرًا يثير الأسئلة.»

جلسا بقية الليل يراجعان ما بقي من السجلات، حتى ارتفع أذان الفجر، فطوى كل واحد منهما ما بين يديه، وخرجا إلى المسجد. وبعد الصلاة، عاد الناس إلى أعمالهم، وامتلأت الطرقات بالحركة، وعادت دار السجلات تستقبل أصحاب القضايا كما في كل يوم.

دخل فلاح من إحدى القرى يحمل عقد بيع أرض، وجاءت امرأة تريد تسجيل وقف تركه زوجها لأبنائه، ثم تبعهما شيخ يطلب استخراج نسخة من وثيقة قديمة تثبت حق أسرته في بئر تقع خارج المدينة. كان عمران يراقب وجوه الناس وهم يغادرون وقد ارتسمت الطمأنينة على ملامحهم، فأدرك أن أكثرهم لا يعلم كم من الجهد يبذل حتى تبقى تلك الطمأنينة حاضرة في حياتهم.

ومع اقتراب الظهيرة، دخل رجل لم يسبق لعمران أن رآه. كان في منتصف العمر، حسن الهندام، يتحدث بهدوء، ويضع في إصبعه خاتمًا من الفضة نقش عليه رسم كرمة عنب. تقدم إلى المنضدة، ثم قال إنه يريد مراجعة سجل يتعلق بأرض اشتراها أبوه قبل أعوام.

لم يكن طلبه غريبًا، فقد اعتاد الكتبة مثل هذه المراجعات، إلا أن عمران لاحظ أن الرجل لم يسأل عن رقم السجل، ولا عن تاريخ العقد، بل ذكر اسم الناسخ الذي كتبه، وكأنه يعرف تفاصيل لا يعرفها إلا من اطلع على السجلات من قبل

أحضر له أحد الكتبة الوثيقة المطلوبة، فأخذ يقلب صفحاتها ببطء، وكانت عيناه تتوقفان عند هوامش الصفحات أكثر مما تتوقفان عند متنها. ثم أعاد السجل، وشكرهم، وغادر دون أن يطلب نسخة أو يصحح معلومة.

ظل عمران يتابعه بعينيه حتى خرج من الباب.

ثم التفت إلى الكاتب الأكبر وقال: «ذلك الرجل لم يأت من أجل الأرض.»

رفع الشيخ بصره عن الرقعة التي كان يكتب فيها، وسأله:

«وما الذي جاء من أجله في رأيك؟»

أجاب عمران: «كان يبحث عن شيء آخر... أو يتأكد من شيء يعرفه.»

أطرق الكاتب الأكبر رأسه قليلًا، ثم قال:

«لقد رأيت ما رأيته أنا.»

مر يومان دون أن يحدث ما يثير الريبة، حتى جاء الغلام المسؤول عن تنظيف القاعة مسرعًا، وفي يده قطعة صغيرة من الشمع الأحمر.

قال وهو يلهث: «وجدتها تحت الرف الثالث.»

أخذها الكاتب الأكبر، وتأملها مليًا.

لم تكن قطعة شمع عادية، بل بقايا ختم استعمل لإغلاق رسالة أو لفافة. قلبها بين أصابعه، ثم ناولها إلى عمران.

قال: «هل ترى هذا الأثر؟»

اقترب عمران، فرأى نقشًا غير مكتمل، لكنه تذكر فورًا خاتم الفضة الذي كان في إصبع الرجل الغريب.

كان رسم كرمة العنب نفسه ظاهرًا على الشمع.

نظر إلى الشيخ، وقال بصوت خافت: «لقد عاد بعد انصراف الجميع.»

أعاد الكاتب الأكبر قطعة الشمع إلى المنضدة، ولم يظهر على وجهه اضطراب، بل نهض بهدوء، وأغلق باب الغرفة، ثم سار إلى الرف الثالث. أخذ يتفقد السجلات واحدًا واحدًا، حتى توقف عند مجلد متوسط الحجم.

أخرجه بحذر، ووضعه أمام عمران.

فتحاه معًا.

كانت جميع صفحاته في مكانها، ولم يظهر فيها أي تغيير.

غير أن الكاتب الأكبر لم يكتف بذلك، بل قلب الغلاف الجلدي من الداخل.

وهناك، بين الجلد والرق، وجد رقعة صغيرة جدًا، مطوية بعناية، حتى كادت تلتصق بالغلاف.

نظر عمران إليها في دهشة.

وقال:«لم أرها من قبل.»

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة، وقال: «لأنها ليست من السجل.»

فتح الرقعة ببطء، فإذا هي بيضاء تمامًا، لا كتابة فيها، ولا علامة. تأملها عمران متعجبًا. ثم رفعها نحو ضوء النافذة.

عندها فقط ظهرت خيوط باهتة رسمت على الرق بمادة لا تكاد ترى، تمثل مخططًا مختصرًا لدار السجلات، مع دوائر صغيرة تشير إلى أماكن محددة داخل الغرفة.

ساد الصمت.

ثم قال الكاتب الأكبر بصوت امتزج فيه القلق بالحزم: «إذن لم يكن يبحث عن وثيقة... بل كان يرسم الطريق إليها.»

وفي تلك اللحظة، أدرك عمران أن الخطر لم يعد احتمالًا بعيدًا، بل أصبح قريبًا من أبواب دار السجلات، وأن الأيام المقبلة ستفرض عليه امتحانًا جديدًا، لا يتعلق بإنقاذ الوثائق من الماء، بل بحمايتها من عقول تعرف قيمتها، وتسعى للوصول إليها مهما كان الثمن.

أعاد الكاتب الأكبر طي الرقعة بعناية، ثم وضعها فوق المنضدة، وظل ينظر إليها طويلًا دون أن يتكلم. كان الصمت الذي خيم على الغرفة أثقل من أي حديث، حتى إن عمران أخذ يسمع صوت احتراق فتيل المصباح وهو يلتهم آخر قطرات الزيت.

وأخيرًا قال الشيخ: «لقد أخطأ صاحبها.»

نظر إليه عمران متعجبًا.

وأضاف:

«من يراقب مكانًا طويلًا، يعتاد أن يرى ما فيه. أما من يحاول أن يرسمه من الذاكرة، فلا بد أن ينسى تفصيلًا صغيرًا.»

اقترب عمران من الرقعة مرة أخرى.

أخذ يقارنها بالغرفة التي يقفان فيها.

كانت أماكن الرفوف صحيحة، والباب في موضعه، والنوافذ كذلك، غير أن إحدى العلامات تشير إلى تجويف في الجدار الغربي.

ابتسم عمران وقال: «ولا يوجد في هذا الجدار أي تجويف.»

هز الكاتب الأكبر رأسه. «كان يوجد... قبل خمسة عشر عامًا.»

ثم اتجه إلى الجدار نفسه، ووضع يده على أحد الأحجار الكبيرة.

وقال: «حين رممنا الدار بعد الزلزال الصغير الذي أصاب المدينة، نقلنا موضع الخزانة إلى الجهة الأخرى، لكن يبدو أن من رسم هذه الرقعة لم يعد إلى هنا منذ ذلك الحين.»

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم أضاف الشيخ: «وهذا يعني أن من يبحث عن السجلات يعتمد على معلومات قديمة.»

تنفس عمران بارتياح. «إذن نحن نسبقه بخطوة.» لكن الشيخ لم يشاركه ذلك الارتياح.

بل قال بهدوء: «اليوم فقط.»

في اليوم التالي، أمر الكاتب الأكبر بإجراء مراجعة عامة لجميع الخزائن دون أن يلفت انتباه الكتبة إلى السبب الحقيقي. كان كل شيء يبدو طبيعيًا؛ تُفتح الصناديق، وتُراجع الأختام، وتُقارن السجلات بقوائمها، ثم تعاد إلى أماكنها.

وبينما كان عمران يراجع أحد الصناديق، لاحظ أن قفله النحاسي يحمل خدشًا دقيقًا لم يكن موجودًا من قبل.

نادَى الكاتب الأكبر.

فلما رآه الشيخ، مرر إصبعه على الخدش، ثم قال: «جرب أحدهم مفتاحًا لا يخص هذا القفل.»

لم يكن الأثر كبيرًا، لكنه كان واضحًا لمن اعتاد فحص الأشياء بعين لا تغفل التفاصيل.

ولم يعثروا على نقص في أي سجل.

غير أن عمران خرج من تلك المراجعة وهو يشعر بأن الخطر لم يعد مجرد ظن، بل أصبح حقيقة تقترب يومًا بعد يوم.

ومع انشغال الجميع بذلك، كانت الحياة في القدس تمضي كما اعتادت.

عاد البناؤون إلى أعمالهم، وازدحمت الأسواق بالقوافل القادمة من المدن المجاورة، وامتلأت الساحات بالتجار والحرفيين. وكان عمران، كلما خرج من دار السجلات إلى الورشة، يشعر أنه يعيش حياتين مختلفتين؛ إحداهما بين الحجارة، والأخرى بين الكلمات.

وفي إحدى الأمسيات، جاء إلى الورشة رجل فقير يحمل بين يديه حجرًا صغيرًا.

قال لعمران: «وجدت هذا أثناء إصلاح سور بستاني.»

تناول عمران الحجر.

كان يحمل كتابة قديمة، لكنها لم تكن واضحة بسبب ما علق بها من تراب.

غسلها بالماء، ثم تأملها طويلًا.

لم يكن عليها الرمز الذي اعتاد رؤيته، وإنما كلمات قليلة محفورة بعناية: ***"العدل أساس العمران."***

ابتسم عمران.

لم يكن يعرف من نحتها، ولا متى نحتت، لكنه شعر أن صاحبها كان يعرف جيدًا ما يريد أن يتركه لمن يأتي بعده.

سأل الرجل: «أين وجدتها؟» أشار الفلاح إلى طرف البستان. «كانت جزءًا من سور قديم انهار مع الأمطار.»

أعاد عمران الحجر إليه، وقال: «أعده إلى مكان ظاهر في السور بعد أن تصلحه.»

تعجب الرجل. «ألا تريد الاحتفاظ به؟»

ابتسم عمران وقال:

«لا... فالحجر يشهد للمكان الذي ولد فيه، كما تشهد الوثيقة لأهلها. إذا جمعنا كل الآثار في مكان واحد، فقدنا قصتها.»

شكر الرجل عمران، وانصرف. وكان الكاتب الأكبر قد سمع الحوار كله.

اقترب منه بعد أن ابتعد الفلاح، وقال: «الآن فهمت لماذا اختارك الله لهذا الطريق.»

خفض عمران بصره حياءً، فقال الشيخ: «لأنك لا ترى قيمة الشيء في امتلاكه، بل في بقائه حيث يؤدي رسالته.»

ثم رفع نظره إلى المدينة الممتدة أمامهما، وأضاف:

«تذكر هذا جيدًا يا عمران. سيأتي على القدس زمان يطمع فيه الغزاة بكل شيء؛ بحجارتها، وبكتبها، وحتى بأسماء أهلها. وعندما يأتي ذلك اليوم، لن يكون النصر لمن يملك القوة وحدها، بل لمن يحفظ الحقيقة حتى لا يستطيع أحد أن يكتب تاريخًا غير الذي وقع.»

كانت الريح تمر بين أسوار المدينة وهي تحمل رائحة الزيتون والتراب المبتل، وشعر عمران أن كلمات الشيخ لم تكن تتحدث عن الحاضر وحده، بل عن قرون طويلة لم تأتِ بعد، قرون ستتعاقب فيها الأمم على هذه الأرض، ويبقى فيها رجل، في كل جيل، يحمل القلم بالأمانة نفسها، ويسلم المجلد إلى من يليه، حتى لا تنقطع ذاكرة فلسطين مهما تبدلت الأزمنة.

مرت الأعوام، ولم تعد القدس تعرف عمران بوصفه أمهر البنائين فحسب، بل بوصفه الرجل الذي لا يوقع على سجل حتى يراجعه مرتين، ولا يقبل شهادة حتى يسمعها من أصحابها، ولا يفرق في معاملته بين غني وفقير. وكان كلما ازدادت مسؤوليته، ازداد تواضعًا، حتى صار الناس يقصدونه مطمئنين إلى أن حقوقهم ستجد عنده أذنًا تسمع، وقلمًا لا يجامل.

أما الكاتب الأكبر، فقد أخذت السنون تثقل خطواته شيئًا فشيئًا. لم يعد يقوى على الجلوس ساعات طويلة كما كان يفعل من قبل، وصارت يداه ترتجفان كلما أطال النسخ، لكنه ظل يراجع كل سجل يخرج من الدار، ويبتسم كلما رأى عمران يعيد صفحة كاملة لأن حرفًا واحدًا لم يطمئن إليه.

وفي إحدى الليالي، وبعد أن انصرف الكتبة جميعًا، دعا الشيخ عمران إلى الغرفة الداخلية التي دخلاها أول مرة قبل أشهر. جلس إلى المنضدة الخشبية، وأخرج من صندوق صغير سجلًا قديمًا يختلف عن بقية السجلات.

كان غلافه من جلد داكن، وقد بهتت أطرافه من كثرة ما لامسته الأيدي.

وضعه أمام عمران، ثم قال: «أتدري ما هذا؟» هز عمران رأسه نافيًا.

قال الشيخ: «هذا ليس سجل أراضٍ، ولا سجل أوقاف، ولا سجل أنساب.»

ثم فتح الصفحة الأولى.

لم تكن فيها عقود ولا حدود أملاك، بل كانت تبدأ بجملة واحدة:

"في هذا المجلد تُكتب الأحداث التي غيرت حياة الناس، ليقرأها من يأتي بعدنا كما وقعت، دون زيادة أو نقصان."

قلب الشيخ الصفحات ببطء.

كانت كل صفحة تحمل حادثة واحدة؛ سنة جفاف اشتد فيها البلاء، أو فيضان جرف قرية ثم أعيد بناؤها، أو صلح أنهى خصومة بين قبيلتين، أو وباء مر بالمدينة ثم انقشع.

لم تكن الصفحات كثيرة، لكنها كانت مكتوبة بعناية بالغة.

قال عمران وهو يتأملها: «إذن... هذا سجل للذاكرة.»

ابتسم الشيخ ابتسامة ملؤها الرضا.

«نعم.»

ثم أضاف:

«أما بقية السجلات، فهي تحفظ حقوق الناس. وهذا المجلد يحفظ تجاربهم، حتى لا يكرر الأبناء أخطاء الآباء، ولا ينسوا ما علمتهم الأيام.»

ظل عمران يقلب الصفحات في صمت، حتى توقف عند الصفحة الأخيرة.

كانت بيضاء.

سأل في دهشة:

«ولماذا تركت فارغة؟»

أجاب الشيخ: «لأنها تنتظر من يكتب فيها.»

رفع عمران بصره إليه. فقال الكاتب الأكبر:

«أخبرني... لو طلبت منك أن تكتب حادثة السيل الذي جرف دار السجلات، فمن أين تبدأ؟»

فكر عمران طويلًا، ثم قال: «لن أبدأ بالسيل.»

ابتسم الشيخ. «ومن أين تبدأ إذن؟»

قال عمران: «سأبدأ بالرجل الذي بقي داخل الدار يرفع السجلات إلى الرفوف، لأن الحكاية لم تبدأ بالماء، بل بدأت يوم قرر شيخ عجوز أن الأمانة أثمن من حياته.»

أطرق الكاتب الأكبر رأسه، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة.

قال: «ولهذا اخترتك.»

ثم دفع المجلد نحوه.

«اكتب.»

أمسك عمران بالقلم، لكنه لم يباشر الكتابة.

ظل ينظر إلى الصفحة البيضاء طويلًا، حتى شعر أن ثقلها يفوق ثقل أكبر الصخور التي حملها في حياته.

غمس القلم في الحبر.

ثم كتب السطر الأول:

"في العام الذي فاض فيه الوادي، تعلمنا أن البيوت يمكن أن تنهار، أما الأمانة فلا تنهار ما دام هناك من يحملها بصدق."

توقف.

قرأ ما كتب.

ثم أكمل يصف ما جرى، فلم يذكر اسمه إلا مرة واحدة، ولم يصف نفسه بطلًا، بل ذكر أسماء الرجال جميعًا؛ الراعي الذي عبر السيل، والعمال الذين شدوا الحبال، والشيخ الذي رفض مغادرة السجلات، والناس الذين فتحوا بيوتهم لأهل القرى بعد الفيضان.

ولما انتهى، ناول القلم إلى الشيخ.

قرأ الكاتب الأكبر الصفحة كاملة دون أن يقاطعه.

ثم أغلق المجلد برفق.

وقال بصوت اختلط فيه التأثر بالفخر: «الآن... أصبح لهذا المجلد صاحب يعرف كيف يكتب الحقيقة.»

وفي تلك اللحظة، شعر عمران أن الطريق الذي بدأه يوم حمل المطرقة لأول مرة قد قاده إلى مكان لم يكن يتخيله. فقد أدرك أن البناء الحقيقي لم يكن في الجدران التي ترتفع فوق الأرض، بل في الكلمات التي تحفظ ذاكرة الناس من أن يبتلعها النسيان، وأن الحجر الذي يبنيه البنّاء قد يبقى مئات السنين، لكن الكلمة الصادقة قد تبقى ما بقي الإنسان يقرأ ويتذكر.

مرَّت أشهر بعد أن دوَّن عمران أولى صفحات ***مجلد الذاكرة***، وأصبح الكاتب الأكبر يكلِّفه بكتابة الوقائع التي يرى أنها ستبقى ذات أثر في حياة الناس. ولم يكن يقبل أن تُكتب حادثة لأنها عجيبة، أو لأن الناس أكثروا الحديث عنها، وإنما كان يسأل سؤالًا واحدًا قبل أن يأذن بتدوينها: «هل سيتعلم منها من يأتي بعدنا؟»

فإن كان الجواب نعم، دوِّنت. وإن كان لا، بقيت في أفواه الناس حتى تنساها الأيام.

وكان عمران يزداد اقتناعًا بهذه القاعدة كلما تقدم به العمر. فقد رأى أحداثًا هزت المدينة أيامًا قليلة، ثم اختفت آثارها، ورأى مواقف صغيرة لم يلتفت إليها أحد، لكنها غيرت حياة أجيال كاملة.

وفي صباح أحد الأيام، دخل الرجل الذي اشتبه فيه عمران منذ أشهر. كان وجهه شاحبًا، وعيناه غائرتين من قلة النوم. تقدم بخطوات مترددة حتى وقف أمام الكاتب الأكبر، ثم قال: «أريد أن أتحدث إليكما وحدكما.»

نظر الشيخ إلى عمران، ثم أمر الكتبة بالخروج إلى الغرفة المجاورة.

وما إن أغلق الباب حتى جلس الرجل على الأرض، وخفض رأسه طويلًا.

لم يتعجل الكاتب الأكبر الحديث.

ظل ينتظر حتى تكلم الرجل بنفسه.

قال بصوت متهدج: «لقد أخطأت.»

ساد الصمت.

ثم تابع: «أنا الذي غيرت حدود البستان.»

لم يبدُ على عمران شيء من الدهشة، فقد كان ينتظر هذه اللحظة منذ زمن.

أما الكاتب الأكبر فقال بهدوء: «ولماذا؟»

رفع الرجل رأسه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

«لأن أخي غرق في الديون، وجاءني صاحب الأرض، ووعدني بمال يكفي لإنقاذه إن غيرت سطرًا واحدًا.»

نظر عمران إليه طويلًا.

لم يكن أمامه مجرم قاسٍ، بل إنسان ضعفت نفسه في لحظة خوف.

قال الشيخ: «وهل أنقذت أخاك؟»

أطرق الرجل رأسه. «مات قبل أن يأخذ المال.»

ساد الصمت مرة أخرى.

ولم يكن في الغرفة إلا صوت الرجل وهو يبكي في هدوء.

قال الكاتب الأكبر: «وهل تعلم ما الذي كنت ستفعله لو لم يُكتشف أمرك؟»

أجاب: «كنت سأظلم أسرة لا أعرفها.»

قال الشيخ: «بل كنت ستجعل أبناءهم وأحفادهم يتخاصمون عشرات السنين، لأن كلمة واحدة خرجت من يدك.»

أغلق الرجل عينيه، وكأن تلك الكلمات كانت أثقل عليه من أي عقوبة.

ثم مد يديه إلى الكاتب الأكبر، وقال: «أنا مستعد لكل ما تحكمون به.»

نظر الشيخ إلى عمران.

ثم قال: «ما رأيك؟»

لم يكن السؤال اختبارًا، بل مشاركة في تحمل المسؤولية.

فكر عمران طويلًا، ثم قال: «يعاقب على خيانته، لكن لا نمحو اسمه من السجلات، ولا نمحو ما أحسنه قبل خطئه.»

نظر إليه الشيخ باهتمام.

فسأله: «ولماذا؟»

قال عمران: «لأن العدل لا يعني أن ننسى الخير بسبب الشر، كما لا يعني أن ننسى الشر بسبب الخير.»

ابتسم الكاتب الأكبر.

وقال للرجل:

«ستغادر دار السجلات، ولن تمسك قلم النسخ بعد اليوم. لكننا سنكتب في محضرنا أنك اعترفت بخطئك قبل أن يُظلم أحد، وأن الوثيقة أُصلحت قبل أن يعمل بها.»

انحنى الرجل باكيًا.

ولم يجد كلمة يقولها.

خرج من الغرفة وهو يعلم أنه فقد أشرف عمل عرفه في حياته، لكنه خرج أيضًا وقد سقط عن صدره حمل ثقيل ظل يحمله منذ أشهر.

ولما أغلق الباب خلفه، التفت الكاتب الأكبر إلى عمران.

وقال: «اليوم تعلمت درسًا لن تجده في أي كتاب.»

سأله عمران: «أي درس؟»

قال الشيخ: «***أن الحارس لا يحمي الوثائق فقط... بل يحمي العدل أيضًا. ولو جعلنا العقوبة انتقامًا، لخنا الأمانة كما خانها غيرنا.***»

اقترب من الرف الذي وضع عليه مجلد الذاكرة. أخرجه، وفتحه عند الصفحة الأخيرة.

ثم قال: «اكتب هذه الحادثة.»

تعجب عمران.

«أأكتب محاولة التزوير؟»

أجاب الشيخ: «نعم.»

«لكنها تسيء إلى دار السجلات.»

هز الشيخ رأسه.

«بل تحميها.»

سكت قليلًا، ثم قال:

«إذا أخفى الأمناء أخطاءهم، فلن يثق بهم أحد. أما إذا سجلوها كما وقعت، وعرف من يأتي بعدهم كيف أصلحوها، بقيت الثقة حية.»

أخذ عمران القلم.

وغمس رأسه في الحبر.

ثم كتب:

"في هذا العام حاول رجل أن يغير حقًا ليس له، فحفظ الله الحق برجال راجعوا ما كتبوا، ثم تاب الرجل قبل أن يقع الظلم، فعوقب بعدل، وسجلت قصته لتكون عبرة لكل من يظن أن الكلمة الصغيرة لا تغير مصائر الناس."

قرأ الكاتب الأكبر السطور ببطء.

ثم أغلق المجلد، وربت على غلافه بيده المرتجفة.

وقال بصوت خافت: «الآن... اطمأن قلبي.»

ولم يفهم عمران يومها تمامًا معنى تلك العبارة.

لكنه لاحظ للمرة الأولى أن يد الشيخ كانت ترتجف أكثر من المعتاد، وأن خطواته أصبحت أبطأ، وأن التعب الذي كان يخفيه عن الجميع بدأ يظهر في ملامحه.

وأدرك، دون أن ينطق بكلمة، أن الزمن الذي حمل فيه الكاتب الأكبر الأمانة يقترب من نهايته، وأن ساعة التسليم أصبحت أقرب مما كان يتصور.

حل الشتاء التالي أكثر هدوءًا من سابقه، وكأن المدينة أرادت أن تمنح أهلها فرصة لالتقاط أنفاسهم بعد أعوام امتلأت بالعمل والابتلاءات. كانت الأمطار تنزل برفق، فتغسل حجارة القدس، وتملأ الآبار، وتبعث الحياة في مدرجات الزيتون المحيطة بالمدينة. أما داخل دار السجلات، فقد بقي كل شيء يسير بالنظام نفسه الذي أرساه الكاتب الأكبر منذ سنوات طويلة.

غير أن عمران كان يرى ما لا يراه غيره.

كان يلاحظ أن الشيخ يتوقف بين الحين والآخر ليلتقط أنفاسه، وأنه لم يعد يقوى على حمل الصناديق الثقيلة، وأنه كلما انتهى من مراجعة سجل، بقيت يده فوق غلافه لحظات أطول من المعتاد، كأنما يودعه في صمت.

وذات مساء، وبعد انصراف الكتبة، أغلق الكاتب الأكبر أبواب الدار بنفسه، ثم دعا عمران إلى الجلوس في الفناء الداخلي، حيث تتوسط المكان شجرة رمان زرعت قبل عشرات السنين.

جلس الشيخ تحتها، وأسند ظهره إلى جذعها.

وقال وهو ينظر إلى الأغصان التي تمايلت مع الريح: «أتعرف من زرع هذه الشجرة؟»

أجاب عمران: «لا.»

ابتسم الشيخ. «ولا أنا.»

ثم أضاف:

«زرعها رجل رحل قبل أن أولد، لكنه لم يغرسها ليأكل من ثمرها، بل غرسها لمن سيأتي بعده.»

نظر عمران إلى الأغصان الممتدة فوقهما.

كانت تحمل ثمارًا حمراء ناضجة، يلتقط منها العصافير ما تشاء، بينما تتساقط أخرى على الأرض، فتترك بذورًا جديدة في التراب.

قال الشيخ: «كل عمل صالح يشبه هذه الشجرة. يبدأ ببذرة صغيرة، ثم يكبر، وقد لا يرى صاحبه ثمرته أبدًا.»

ظل عمران صامتًا، فقد أحس أن الحديث لم يكن عن الشجرة وحدها.

أخرج الكاتب الأكبر من جيبه مفتاحًا نحاسيًا صغيرًا، اسود لونه من كثرة ما استعمل. وضعه في يد عمران.

تعجب عمران، وقال: «هذا مفتاح الغرفة الداخلية.»

هز الشيخ رأسه.

«نعم.»

ثم أغلق يد عمران على المفتاح، وأضاف: «ومن هذه الليلة... لن يبقى في حوزتي.»

حاول عمران أن يعيده إليه.

لكن الشيخ منعه.

وقال في هدوء: «لا يحمل المفتاح رجلان في وقت واحد.»

شعر عمران بثقل لم يشعر بمثله من قبل.

لم يكن المفتاح قطعة من النحاس، بل كان يحمل معه أعوامًا من الثقة، والسهر، والمسؤولية.

قال بصوت خافت: «ما زلت أحتاج إلى علمك.»

ابتسم الشيخ ابتسامة ملؤها الأبوة.

«وستجده ما دمت حيًا. أما الأمانة، فقد آن لها أن تستقر في يد تستطيع أن تواصل السير بها.»

مرر بصره على جدران الدار، ثم قال: «حين دخلت هذا المكان أول مرة، كنت تظن أن الحارس هو من يحفظ السجلات. أما اليوم، فقد عرفت أن الحارس الحقيقي هو من يحفظ العدل الذي كتب فيها.»

وساد بينهما صمت طويل.

لم يكن صمتًا يملؤه الحزن، بل الامتنان.

امتنان رجل أفنى عمره في خدمة الناس، ورأى بعينيه من سيواصل الطريق بعده.

وفي تلك الليلة، لم يعد عمران إلى بيته مباشرة.

فتح الغرفة الداخلية بالمفتاح لأول مرة وهو وحده.

دخل بخطوات بطيئة.

مر بين الرفوف، يلامس أغلفتها برفق، ويتوقف عند كل صندوق كما لو كان يحيي صاحبه.

ثم وقف أمام ***مجلد الذاكرة***.

رفعه بكلتا يديه.

ووضعه على المنضدة.

ولم يفتحه.

بل ظل ينظر إلى غلافه طويلًا، حتى أدرك أن هذا المجلد لم يعد سجلًا للحوادث فقط، بل أصبح عهدًا ينتقل من قلب إلى قلب، ومن يد إلى يد، وأن أعظم ما فيه ليس الحبر الذي ملأ صفحاته، وإنما الرجال الذين رفضوا أن يسمحوا للنسيان بأن ينتصر.

وفي الخارج، كانت أجراس المساء تمتزج بنداءات المصلين، بينما أخذت المدينة تستعد لليلة جديدة.

أما داخل دار السجلات، فقد بدأ فصل جديد من حياة عمران، دون احتفال، ودون إعلان، كما تبدأ أعظم المسؤوليات دائمًا؛ في صمت، وبين صفحات مفتوحة، وقلم ينتظر من يمسك به بأمانة.

لم يتغير شيء في صباح اليوم التالي، ومع ذلك شعر عمران أن كل شيء قد تغير. دخل دار السجلات قبل طلوع الشمس، وأخرج المفتاح من جرابه، ثم وقف لحظة أمام الباب الخشبي. تردد قبل أن يديره في القفل، فقد كان يسمع في ذاكرته صوت الكاتب الأكبر وهو يفتح الباب كل صباح بالدعاء نفسه:

«اللهم اجعل أقلامنا شاهدة للحق، ولا تجعلها سبيلًا إلى ظلم أحد.»

ردد عمران الدعاء بصوت خافت، ثم فتح الباب.

دخلت أشعة الصباح الأولى إلى القاعة، فأضاءت الرفوف الخشبية وصفوف السجلات المرتبة بعناية. مر بين المناضد واحدة تلو الأخرى، يتأكد أن كل شيء في موضعه، ثم أشعل المصابيح الزيتية القليلة التي اعتاد الكتبة استعمالها في الأيام الغائمة.

ولم تمض ساعة حتى بدأ الكتبة يتوافدون تباعًا. ألقوا السلام على عمران كما اعتادوا، لكنهم لاحظوا أن المفتاح لم يعد مع الكاتب الأكبر، بل مع تلميذه. تبادل بعضهم النظرات في صمت، ولم يسأل أحد سؤالًا، فقد كانت هيبة الشيخ تمنعهم من الخوض فيما لم يعلن بعد.

أما الكاتب الأكبر، فقد دخل بعدهم بقليل.

كان يسير متكئًا على عصاه، لكن وجهه ظل يحمل السكينة نفسها التي عرفها الجميع فيه. جلس في مكانه المعتاد، وأخذ يراقب الحركة داخل الدار دون أن يتدخل إلا إذا دعت الحاجة.

راقب عمران وهو يراجع الوثائق، ويقارن النسخ بالأصول، ويجيب عن أسئلة الناس بصبر، ويعيد أحد السجلات إلى كاتب شاب لأن تاريخًا فيه كتب على غير الصواب.

ابتسم الشيخ في هدوء.

لقد رأى بعينيه أن العمل يسير كما كان يسير بالأمس، ولم يعد وجوده شرطًا لاستمرار النظام الذي بناه طوال عمره.

وعند انتصاف النهار، دخل رجل مسن من أهل القرى، يحمل في يده وثيقة قديمة كادت أطرافها تتآكل.

قال وهو يناولها لعمران:

«هذه آخر ما بقي عندنا من أوراق جدي، وقد خفت عليها من الضياع.»

فتح عمران الوثيقة بحذر، ثم قرأها.

كانت عقد وقف مضى عليه أكثر من أربعين عامًا، وقد بهت الحبر في مواضع كثيرة.

رفع رأسه إلى الرجل، وقال: «سننسخها، ثم نعيد إليك الأصل كما هو.»

تدخل الكاتب الأكبر لأول مرة منذ الصباح، وقال: «بل نصنع لها ثلاث نسخ.»

نظر إليه عمران.

فقال الشيخ: «واحدة تبقى عند أهل الوقف، وواحدة في دار السجلات، وواحدة تحفظ في الخزانة الثانية.»

ثم التفت إلى الرجل المسن وأضاف: «أما الأصل، فلا يخرج من بيتكم مرة أخرى إلا إذا خيف عليه من الهلاك.»

امتلأت عينا الرجل بالامتنان، وقال:

«جزاكم الله خيرًا... لقد خشيت أن تضيع وصية آبائنا.»

ابتسم الكاتب الأكبر، وأجاب: «ما دام في هذه المدينة من يحفظ الأمانة، فلن تضيع بإذن الله.»

خرج الرجل وهو مطمئن، وبقي عمران ينظر إلى الوثيقة بين يديه.

ثم قال: «لقد أصبحنا ننسخ كل شيء تقريبًا.»

ابتسم الشيخ.

«لأننا تعلمنا من السيل، وتعلمنا من خطأ الناسخ، وتعلمنا من السنين أن الذاكرة لا يحرسها الحظ، بل حسن التدبير.»

وساد الصمت من جديد.

وبعد أن انصرف الناس مع غروب الشمس، بقي الشيخ جالسًا في مكانه، بينما أخذ عمران يغلق السجلات ويعيدها إلى الرفوف.

فجأة قال الكاتب الأكبر:

«تعال يا عمران.»

اقترب منه وجلس إلى جواره.

أخرج الشيخ من داخل ثوبه كيسًا صغيرًا من الكتان، مربوطًا بخيط أزرق قديم.

وضعه بين يدي عمران.

فتح عمران الكيس بحذر.

كان بداخله قلم من القصب، اسود طرفه من كثرة ما غمس في الحبر، وسكين صغيرة كانت تستعمل لبري الأقلام، ومحبرة نحاسية قديمة.

نظر عمران إلى الشيخ متسائلًا.

فقال بابتسامة هادئة: «هذا أول قلم أمسكته حين أصبحت كاتبًا في هذه الدار.»

سكت لحظة، ثم أردف:

«كنت أظنه يومها مجرد أداة للكتابة، ثم اكتشفت مع السنين أنه شاهد على ضميري. كل كلمة كتبتها به ستسألني عنها الأيام، قبل أن يسألني عنها الناس.»

ناول عمران القلم بكلتا يديه، كما يتناول المرء شيئًا نفيسًا.

ثم قال في خشوع: «أسأل الله أن يعينني على حمل هذه الأمانة.»

رفع الكاتب الأكبر بصره إلى السماء التي بدأت تتلون بألوان المغيب، وقال:

«لا تطلب من الله أن يجعل الطريق سهلًا... بل اطلب منه أن يجعلك أمينًا إذا اشتد الطريق.»

وسكت الرجلان.

كانت أشعة الشمس الأخيرة تنعكس على أغلفة المجلدات، فتبدو كأنها تودع يومًا مضى، وتستقبل يومًا جديدًا.

وفي تلك اللحظة، شعر عمران أن القلم الذي بين يديه أثقل من أي مطرقة حملها في حياته، لأنه لم يكن يصنع جدارًا من حجر، بل كان يبني جدارًا من الحقيقة، يحتمي به كل من سيأتي بعدهم، مهما تبدلت الأزمنة وتعاقبت الأمم.

انقضت أيام قليلة بعد ذلك، وأصبح عمران يباشر أعمال دار السجلات منذ الفجر، بينما يكتفي الكاتب الأكبر بالمراجعة وإبداء الرأي كلما احتاج الأمر. ولم يكن الشيخ يشعر بالحزن لأنه ترك كثيرًا من مهامه، بل كان يراقب تلميذه في صمت، وقد امتلأ قلبه طمأنينة كلما رأى النظام الذي أفنى عمره في بنائه يستمر كما كان، دون أن يختل منه شيء.

وذات صباح، دخل رسول من القصر يحمل رقعة مختومة.

فتحها الكاتب الأكبر، ثم ابتسم.

ناولها إلى عمران، وقال:

«اقرأ.»

قرأ عمران بصوت هادئ:

«بأمر من سليمان بن داود، تُجمع سجلات المدن والقرى مرة في كل عام، وتراجع نسخها وأصولها، ويشهد على صحتها أهل العلم والعدل، حتى لا يضيع حق، ولا يزاد في كتاب، ولا ينقص منه.»

أعاد عمران الرقعة إلى الشيخ.

وقال:

«سيصبح هذا العمل أكبر مما كان.»

أجابه الكاتب الأكبر: «وهذا ما كنا نرجوه.»

ثم أضاف:

«حين تتحول الأمانة إلى نظام، لا تبقى مرتبطة بعمر رجل واحد.»

كانت تلك الكلمات كافية ليشعر عمران بأن ما بدأ قبل سنوات قليلة داخل غرفة صغيرة، أصبح اليوم جزءًا من نظام المدينة كلها.

حل موعد المراجعة السنوية الأولى.

وفدت إلى القدس وفود من القرى المجاورة، يحمل كل منها نسخته من السجلات. امتلأت دار السجلات بالكتبة، والقضاة، وشيوخ القرى، وجلس الجميع حول مناضد طويلة، يقارنون كل نسخة بأصلها، حرفًا بحرف، وسطرًا بسطر.

كان العمل شاقًا، لكنه جرى في هدوء تام.

لم ترتفع الأصوات.

ولم يتعجل أحد.

فقد تعلم الجميع أن الخطأ الصغير قد يصبح ظلمًا كبيرًا إذا مر دون مراجعة.

وبعد ثلاثة أيام متواصلة، أعلن الكاتب الأكبر انتهاء المراجعة.

لم يعثروا إلا على أخطاء يسيرة في التواريخ، أو في طريقة كتابة بعض الأسماء، وقد صُححت جميعها بحضور الشهود.

وقف الشيخ أمام الحاضرين.

وقال بصوت هادئ، لكنه بلغ كل من في القاعة: «اليوم لا نحتفل بأن سجلاتنا خالية من الأخطاء، بل نحتفل لأننا وجدنا الأخطاء قبل أن تتحول إلى ظلم.»

هز الحاضرون رؤوسهم موافقين.

أما عمران، فقد شعر أن هذه الجملة وحدها تستحق أن تكتب في **مجلد الذاكرة**.

وفي مساء ذلك اليوم، خلا المكان إلا من الشيخ وعمران.

كان التعب ظاهرًا على وجه الكاتب الأكبر، لكنه طلب من عمران أن يرافقه إلى الفناء الداخلي.

جلسا تحت شجرة الرمان نفسها.

كانت أوراقها تتحرك مع نسيم المساء، بينما أخذت العصافير تعود إلى أعشاشها.

قال الشيخ: «أتذكر أول يوم دخلت فيه هذه الدار؟»

ابتسم عمران.

«كنت أخشى أن ألمس السجلات بيدي.»

ضحك الشيخ ضحكة خفيفة.

«واليوم أصبحت تخشى أن يلمسها غيرك.»

ساد بينهما صمت قصير.

ثم قال الكاتب الأكبر: «هذا حسن... لكن احذر من أمر واحد.»

رفع عمران رأسه.

«ما هو؟»

قال الشيخ: «لا تظن يومًا أنك أصبحت أعلم من الحقيقة.»

نظر إليه عمران في دهشة.

فأكمل الشيخ: «ستأتيك أيام يطلب منك أصحاب النفوذ تغيير كلمة، أو تأخير وثيقة، أو إخفاء حادثة، وسيقولون لك إنهم يفعلون ذلك لمصلحة الناس. فإذا صدقتهم، فقد ضاعت الأمانة.»

ثم وضع يده على كتف عمران.

وقال ببطء، وكأنه يريد أن يحفظها في قلبه قبل أذنه: «الحارس لا يكتب ما يرضي الناس... بل يكتب ما وقع. فإذا اختلف الناس بعد مائة سنة، وجدوا الحقيقة كما تركها أصحابها، لا كما أرادها الأقوياء.»

أطرق عمران رأسه. ولم يجد جوابًا.

فقد شعر أن هذه الكلمات لم تكن وصية ليومه فقط، بل لكل من سيحمل هذا المجلد بعده.

وفي تلك الليلة، عاد إلى الغرفة الداخلية.

فتح مجلد الذاكرة.

وقبل أن يكتب شيئًا، قلب صفحاته من أولها إلى آخرها.

قرأ قصة السيل.

وقصة الرجل الذي حاول تغيير السجل.

وقصة بناء المدينة.

ثم أغلق المجلد برفق.

وأمسك بالقلم الذي أهداه إليه الكاتب الأكبر.

وكتب في الصفحة التالية:

"إن الذاكرة لا تضيع حين تحترق الكتب، ولا حين تهدم الدور، وإنما تضيع يوم يخاف الأمين من قول الحق. فإذا بقي الصدق حيًا في قلب رجل واحد، بقي للتاريخ شاهد لا يموت."

ترك القلم جانبًا.

ثم نظر إلى الحبر الذي لم يجف بعد.

وأدرك أن الكلمات التي يكتبها اليوم، لن يقرأها أبناء عصره وحدهم، بل سيقرؤها رجال ونساء لم يولدوا بعد، وسيعرفون منها كيف عاش قوم مضوا، وكيف اختاروا أن تكون الحقيقة أمانة لا سلعة، ورسالة لا وسيلة.

وفي الخارج، كانت القدس تنام في هدوء، غير عالمة أن ما يكتب في تلك الغرفة الصغيرة سيبقى حيًا بعد أن تسقط أسوار، وتقوم أسوار، وتتبدل دول، ويعبر على هذه الأرض ملوك وجيوش لا يحصيهم العد، بينما تبقى الكلمة الصادقة، وحدها، قادرة على عبور الزمن.

لم تمض سوى أسابيع قليلة حتى بدأت ملامح التعب تظهر على الكاتب الأكبر بصورة لم يعد يستطيع إخفاءها. كان يحضر إلى دار السجلات مع شروق الشمس كما اعتاد طوال عمره، لكنه لم يعد يجلس إلا قليلًا، ثم ينهض متكئًا على عصاه، ويسير بين الرفوف ببطء، يمرر يده على أغلفة السجلات كأنما يسلم على رفاق رحلة امتدت عشرات السنين.

لاحظ عمران ذلك، لكنه لم يشأ أن يثقل على شيخه بكثرة السؤال.

وفي أحد الأيام، بينما كانا يراجعان سجلًا يعود إلى إحدى قرى الجنوب، سقط القلم من يد الكاتب الأكبر.

أسرع عمران ليلتقطه، ثم ناوله إليه.

ابتسم الشيخ وقال: «يبدو أن يدي سبقتني إلى الراحة.»

قال عمران وقد بدت في صوته مسحة قلق: «بل أرهقت نفسك أكثر مما ينبغي.»

هز الشيخ رأسه في هدوء.

«كل إنسان يود لو أطال الله في عمره ليكمل ما بدأه، لكن الحكمة ليست في طول العمر، بل في أن يجد الإنسان من يكمل الطريق بعده.»

ظل عمران صامتًا.

كان يشعر أن كل كلمة يقولها الشيخ تحمل معنى أبعد من ظاهرها.

وفي مساء اليوم نفسه، طلب الكاتب الأكبر أن يجتمع جميع الكتبة بعد انتهاء أعمالهم.

اجتمع الرجال في القاعة الكبرى، وجلس كل واحد منهم في مكانه المعتاد، بينما وقف الشيخ أمامهم متكئًا على عصاه.

ألقى ببصره على الوجوه التي عرفها سنوات طويلة، ثم قال: «لقد خدمت هذه الدار أعوامًا كثيرة، ورأيت فيها رجالًا دخلوا شبابًا، ثم خرجوا شيوخًا، ورأيت أطفالًا جاؤوا مع آبائهم يطلبون تسجيل أسمائهم، ثم عادوا بعد أعوام يحملون أبناءهم.»

ابتسم بعض الحاضرين، وقد عادت بهم الذاكرة إلى سنوات مضت.

ثم تابع الشيخ: «تعلمت من هذه الدار أن الوثيقة لا يحفظها القفل، بل يحفظها ضمير من كتبها. وأن العدل لا يبدأ في مجلس القضاء، بل يبدأ حين يمسك الكاتب قلمه.»

ساد الصمت.

ثم أشار إلى عمران.

«ومنذ سنوات، أخذ هذا الرجل يتعلم بينكم، حتى صار يحمل من الأمانة ما يجعله أهلًا لأن يتولى ما كنت أتولاه.»

التفتت الأنظار كلها نحو عمران.

لم يشعر بالفخر، بل شعر بثقل المسؤولية يزداد على كتفيه. قال الكاتب الأكبر:

«ومن هذا اليوم، يكون عمران المشرف على دار السجلات، وأنا له معين ما دمت قادرًا.»

نهض أحد الكتبة، وكان أكبرهم سنًا بعد الشيخ، وقال: «نشهد أمام الله أن عمران أهل لهذه الأمانة.»

ثم نهض آخر.

ثم ثالث.

حتى وقف جميع من في القاعة، وأعلنوا قبولهم لما اختاره الكاتب الأكبر.

لم يكن ذلك احتفالًا، ولم تصفق الأيدي، ولم ترتفع الأصوات.

بل كان عهدًا هادئًا، ينعقد بين رجال يعلمون أن ما يحملونه أثقل من المناصب وأبقى من الشهرة.

وبعد انصراف الجميع، بقي عمران وحده مع شيخه.

فتح الكاتب الأكبر باب الغرفة الداخلية للمرة الأخيرة وهو الذي يحمل المفتاح الاحتياطي.

ثم اتجه إلى الرف الأعلى، حيث وضع ***مجلد الذاكرة***.

أنزله بكلتا يديه، ووضعه فوق المنضدة.

مرر كفه على غلافه الجلدي، ثم قال: «حين بدأت الكتابة في هذا المجلد، كنت أظن أنني أحفظ الماضي.»

ابتسم ابتسامة هادئة، ثم أردف: «لكنني اكتشفت أنني كنت أحفظ المستقبل.»

نظر إليه عمران متعجبًا.

فقال الشيخ: «لأن الطفل الذي يولد اليوم، سيعرف بعد خمسين سنة كيف عاش أبوه، وسيعرف حفيده بعد مائة سنة كيف حفظ أجداده الأمانة. وهكذا لا يبدأ كل جيل من الصفر، بل يقف على أكتاف من سبقه.»

ثم حمل المجلد، ووضعه بين يدي عمران.

ولم يقل هذه المرة: «احتفظ به.»

بل قال: «لقد صار هذا المجلد أمانتك.»

ارتجفت يدا عمران وهو يتسلمه.

لم يكن يخشى ضياعه. بل كان يخشى ألا يكون أهلًا لما يحمله. نظر إلى شيخه، وقال بصوت خافت:

«أعدك أن يبقى كما وصل إلي، وأن لا أزيد فيه كلمة لترضيني، ولا أحذف منه كلمة خوفًا من أحد.»

ابتسم الكاتب الأكبر، وأغمض عينيه لحظة، ثم قال: «هذه هي البيعة الوحيدة التي أردت أن أسمعها قبل أن أرحل.»

وساد بينهما صمت طويل.

كان صمتًا امتلأ بالرضا أكثر مما امتلأ بالحزن، فقد أدرك الشيخ أن الرسالة التي حملها طوال عمره لن تنتهي بموته، وأن الذاكرة وجدت قلبًا جديدًا تسكن إليه، كما سكنت يومًا قلبه هو.

لم يعد الكاتب الأكبر يغادر بيته كل صباح كما اعتاد. اكتفى بأن يحضر إلى دار السجلات يومين في الأسبوع، ثم يومًا واحدًا، حتى صار عمران هو الذي يزوره بعد انتهاء العمل، يحمل إليه ما استجد من الوثائق، ويعرض عليه ما أشكل عليه من مسائل.

وكان الشيخ، على الرغم من ضعف جسده، ما يزال حاضر الذهن، قوي البصيرة. فما إن يفتح عمران سجلًا حتى ينظر إليه بعينيه الهادئتين، ويسأل السؤال الذي اعتاد أن يبدأ به كل مراجعة:

«هل تأكدت؟»

فإذا أجاب عمران: «نعم.»

قال له: «عد فاقرأه مرة أخرى.»

وكان عمران يبتسم كل مرة، لأنه عرف أن شيخه لم يكن يشك في علمه، وإنما كان يعلمه أن الإنسان قد يثق بنفسه أكثر مما ينبغي، وأن الأمانة تبدأ حين يشك المرء في كمال عمله، فيراجعه قبل أن يراجعه غيره.

وفي صباح ربيعي هادئ، جاء غلام من بيت الكاتب الأكبر، يطرق باب دار السجلات على عجل.

وقف أمام عمران، وقد احمر وجهه من شدة الركض. وقال بصوت خافت: «الشيخ يطلبك.»

ترك عمران ما في يده، وسار معه مسرعًا عبر أزقة القدس.

كانت المدينة تستقبل نهارًا جديدًا، والباعة يفتحون حوانيتهم، والنجارون يرفعون أبواب ورشهم، وأصوات الأطفال تتعالى في الطرقات، لكن عمران لم يكن يسمع شيئًا من ذلك.

كان يشعر أن ساعة طالما انتظرها، وحاول أن يؤخرها في قلبه، قد جاءت.

دخل بيت الشيخ.

كان بسيطًا كما عرفه دائمًا.

رفوف قليلة من الكتب، ومنضدة صغيرة، وسجادة قديمة، ونافذة تطل على شجرة زيتون غرسها بيده قبل سنوات طويلة.

وجد الكاتب الأكبر مستلقيًا، وقد بدا عليه أثر المرض، إلا أن وجهه ظل مضيئًا بالسكينة نفسها.

ابتسم عندما رأى عمران.

وأشار إليه أن يقترب.

جلس عمران إلى جواره، وأمسك بيده.

كانت باردة، لكنها ثابتة.

قال الشيخ بصوت خافت: «كيف حال دار السجلات؟»

أجاب عمران: «كما تحب أن تراها... كل شيء في موضعه.»

ابتسم الشيخ. «وهل راجعت النسخ الجديدة؟»

«ثلاث مرات.»

ضحك الشيخ ضحكة خفيفة، ثم قال: «الآن اطمأننت.»

وساد بينهما صمت قصير.

ثم قال الكاتب الأكبر: «أتدري ما أكثر ما أخشاه؟»

هز عمران رأسه.

قال: «لا أخشى أن تحترق الكتب... فقد تنسخ من جديد. ولا أخشى أن تهدم الدور... فقد تبنى مرة أخرى.»

توقف قليلًا، ثم تابع: «إنما أخشى أن يأتي زمن يرى فيه الناس الحقيقة عبئًا، فيتركونها من أجل منفعة عاجلة.»

اقترب عمران أكثر، وقال بثبات: «ما دام في هذه الأرض رجل واحد يحمل هذا المجلد بصدق، فلن تضيع الحقيقة بإذن الله.»

نظر الشيخ إليه طويلًا. ثم ضغط على يده ضغطًا خفيفًا.

وقال: «إذن... لقد انتهت مهمتي.»

وأغمض عينيه ليستريح قليلًا.

جلس عمران إلى جواره حتى مالت الشمس نحو الغروب.

وحين فتح الشيخ عينيه مرة أخرى، كانت أول نظرة وجهها إلى النافذة. كانت شجرة الزيتون تتحرك أغصانها مع نسيم المساء. ابتسم ابتسامة هادئة.

وتمتم: «الحمد لله... بقيت الشجرة.»

ثم استدار نحو عمران للمرة الأخيرة، وقال: «إذا سُئلت يومًا: من بنى هذا العمل؟ فلا تقل: رجل واحد. قل: رجال صدقوا، ثم سلم كل واحد منهم الأمانة لمن بعده.»

كانت تلك آخر كلماته.

وبعد لحظات، سكن الجسد الذي قضى عمره كله يكتب، ويراجع، ويصون حقوق الناس.

لم يصرخ عمران.

ولم يبكِ بصوت مرتفع.

بل انحنى، وقبّل يد شيخه، ثم أغلق عينيه برفق، كما كان يغلق آخر صفحة في كل سجل ينتهي من مراجعته.

وفي اليوم التالي، خرج أهل القدس جميعًا يشيعون الكاتب الأكبر.

تقدم الموكب القضاة، والكتبة، والبناؤون، والفلاحون، وأصحاب الحرف، وحتى الأطفال الذين لم يعرفوا الرجل إلا من ابتسامته حين كانوا يرافقون آباءهم إلى دار السجلات.

ولم يحمل الناس على قبره الذهب، ولا النقوش الفاخرة.

بل حمل عمران معه قلم القصب القديم الذي بدأ به الشيخ حياته كاتبًا.

نظر إليه طويلًا.

ثم أعاده إلى جرابه.

وقال في نفسه: «هذا القلم لم تنتهِ مهمته بعد.»

عاد بعد الغروب إلى دار السجلات.

فتح الغرفة الداخلية وحده.

ووضع ***مجلد الذاكرة*** فوق المنضدة.

ثم فتح الصفحة الأخيرة.

وغمس القلم في الحبر.

وكتب بخط ثابت: ***"في هذا العام، رحل أمين الذاكرة الذي علّمنا أن العدل يبدأ من كلمة، وأن التاريخ أمانة، وأن الرجل لا يخلد بطول عمره، بل بما يتركه من حق محفوظ. وقد سلم الأمانة كاملة، كما تسلمها كاملة، ليبقى هذا المجلد شاهدًا على أن الرجال يرحلون، أما الرسالة فتبقى ما بقي من يحملها بصدق."***

ترك الحبر يجف.

ثم أغلق المجلد ببطء.

ووضع كفه على غلافه.

وفي تلك اللحظة، شعر عمران أن الصمت الذي ملأ الغرفة لم يكن صمت الفقد، بل صمت البداية.

فقد انتهى عهد... وبدأ عهد جديد.

أغلق آصف المجلد ببطء، وبقيت يده فوق غلافه الجلدي كأنها تخشى أن تقطع الصلة بذلك الزمن البعيد. كانت الغرفة غارقة في سكون عميق، ولم يكن يسمع سوى صوت الريح وهي تمر بين حجارة الدير العتيق، فتدخل من النافذة الضيقة ثم تخرج حاملة معها رائحة المطر.

لم يتكلم عبد الرحيم.

كان يعرف أن بعض الصفحات لا ينبغي أن يعقب عليها أحد، لأن أثرها يبقى في القلب أطول من أثر الكلمات.

وبعد دقائق طويلة، رفع آصف رأسه وقال: «لقد كنت أظن أن عمران هو بطل هذا المجلد.»

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة.

وسأله: «وما الذي تراه الآن؟»

أجاب آصف وهو ينظر إلى المجلد: «أدركت أن عمران لم يكن سوى حلقة في سلسلة بدأت قبله، وستستمر بعده.»

هز عبد الرحيم رأسه موافقًا.

وقال: «***ولهذا بقيت المجلدات. لو ارتبطت برجل واحد، لماتت بموته. لكنها ارتبطت بالأمانة، والأمانة لا تموت ما دام في الأرض من يحملها.***»

نهض الشيخ ببطء، واتجه إلى الخزانة الحجرية التي حفظت فيها المجلدات قرونًا طويلة.

فتح بابها.

كانت الرفوف تمتد في الظلام، وقد اصطف فوقها عدد من المجلدات، يختلف لون كل واحد منها عن الآخر بحسب الجلد الذي غلف به في عصره.

أشار إلى المجلد الذي أعاده آصف.

وقال: «هذا هو المجلد الأول.»

ثم وضعه في مكانه بعناية، ولم يتركه حتى تأكد أنه استقر كما كان.

وبقيت يداه فوقه لحظة، كأنما يسلم على رجل قديم يعرفه منذ سنين.

بعد ذلك رفع بصره إلى الرف الذي يليه.

كان هناك مجلد أكبر حجمًا، وقد غلب على جلده اللون البني الداكن، بينما بهتت أطرافه من كثرة ما تداولته الأيدي.

تناوله بكلتا يديه.

لكن هذه المرة لم يناوله إلى آصف مباشرة.

بل جلس أولًا، ووضعه أمامه.

وقال: «بين إغلاق هذا المجلد وفتح الذي يليه... مضت قرون.»

نظر آصف إلى الغلاف في اهتمام.

وسأل: «هل بقي الأمناء يؤدون عهدهم؟»

ابتسم عبد الرحيم. «لو لم يبقوه، لما وصل هذا المجلد إلينا.»

ثم مرر يده على الغلاف، وأكمل:

«لقد مات عمران، كما مات من علمه، ثم مات من جاء بعده، لكن كل واحد منهم سلم الأمانة إلى الذي يليه. تغيرت الدول، وتعاقبت الملوك، وعبرت القوافل، واندثرت قرى، وشيدت مدن جديدة، غير أن القلم ظل ينتقل من يد إلى يد، والمجلد من صدر أمين إلى صدر أمين.»

ساد الصمت.

كان آصف يشعر أن الزمن نفسه يقف بين يديه.

قال بصوت خافت: «كم مضى منذ آخر صفحة كتبها عمران؟»

أجاب الشيخ: «ما يقارب خمسة قرون.»

اتسعت عينا آصف دهشة. «خمسة قرون...»

قال عبد الرحيم: «***وفي تلك القرون تغير وجه القدس مرات كثيرة. جاء إليها قوم، ورحل عنها آخرون. عقدت فيها عهود، ووقعت فيها خصومات، وازدهرت فيها الأسواق، وخبت فيها المصابيح، لكن شيئًا واحدًا لم يتغير.***»

سأل آصف: «وما هو؟»

أجاب الشيخ وهو يضع يده على المجلد الجديد: «أن في كل جيل كان يوجد رجل، أو امرأة أحيانًا، يؤمن أن الحقيقة تستحق أن تحفظ، حتى لو لم يعرف أحد اسمه.» مد يده إلى الرباط الجلدي الذي يحيط بالمجلد.

ثم توقف.

نظر إلى آصف طويلًا، وقال: «ما ستقرأه الآن ليس قصة عمران، ولا قصة كاتب واحد.»

سكت لحظة، ثم أردف: «بل قصة أمانة نجت من خمسة قرون كاملة، حتى وصلت إلى زمن ستتغير فيه القدس مرة أخرى، ويبدأ فصل جديد من تاريخها.»

شعر آصف بأن قلبه يخفق أسرع.

اقترب من المنضدة.

ووضع يديه على غلاف المجلد.

كانت برودته تشبه برودة الحجر القديم، لكن ما يحمله في داخله كان كفيلًا بأن يوقظ قرونًا كاملة من الذاكرة.

نظر إلى عبد الرحيم.

فأومأ الشيخ برأسه في هدوء.

وقال: «**بسم الله... لقد انتهى عهد، وحان أن نبدأ قراءة العهد الذي يليه.**»

الفصل الثالث

المجلد الثاني... قرون الصمت

فتح آصف الصفحة الأولى من المجلد الثاني، فوجد أن الخط قد تغير، وأن الحبر لم يعد يميل إلى السواد كما في المجلد الأول، بل غلبت عليه حمرة خفيفة، وكأن الناسخ استعمل مدادًا صنع في زمن آخر، ومن يد أخرى.

وفي أعلى الصفحة كتب سطر واحد:

«رحم الله عمران بن شالوم، فقد أدى الأمانة كما تسلمها، وها نحن نسير على أثره، لا نزيد حرفًا ولا ننقص حرفًا.»

توقف آصف عند العبارة، ثم رفع بصره إلى عبد الرحيم.

قال الشيخ: «هكذا يبدأ كل مجلد. لا يذكر الأمين نفسه قبل أن يذكر من سبقه، لأن الأمانة لا تبدأ بمن يحملها، بل بمن حفظها لأول مرة.»

عاد آصف إلى القراءة.

"مرت أعوام كثيرة منذ رحيل عمران، وتعاقب على حمل المجلد ثلاثة أمناء، لم يطلب واحد منهم أن يكتب الناس اسمه، وإنما طلبوا أن تبقى السجلات صادقة كما تركها من قبلهم. وفي تلك الأعوام عرفت القدس الرخاء حينًا، والشدة حينًا آخر، لكن دار السجلات بقيت مفتوحة كل صباح، يستقبل أمناؤها الناس، ويسجلون حقوقهم، ويكتبون ما يقع دون زيادة أو نقصان."

ثم انقطع السرد فجأة.

وفي الصفحة التالية كتب الناسخ:

"إن أكثر الأعوام هدوءًا لا يذكرها التاريخ، لأنها تمر دون أن تترك جرحًا. لكن الحارس يكتبها أيضًا، حتى يعلم من يأتي بعده أن السلام يحتاج إلى من يحفظه كما تحتاج الحرب إلى من يرويها."

ابتسم آصف.

وقال: «إنهم يكتبون حتى السنوات التي لا يقع فيها شيء.»

أجاب عبد الرحيم: «لأن غياب الحروب نعمة، والنعمة إذا لم تكتب، نسيها الناس.»

واصل آصف القراءة.

"ومضت أربعة قرون كاملة، تبدلت فيها الوجوه، وتغيرت الأسواق، وكبر الأطفال الذين كنا نسجل أسماءهم، ثم جاءوا يحملون أبناءهم وأحفادهم. أما المجلد، فكان ينتقل كلما اقترب أجل أمين، فيجتمع الأمناء القلائل ليلًا، ويتلون عهد الحافظ، ثم يسلم الكبير المجلد إلى من بعده، ويعود كل واحد منهم إلى عمله قبل أن يطلع الفجر، فلا يعلم الناس أن أمرًا قد تبدل."

أغلق آصف الصفحة لحظة.

قال: «إذن كان اجتماع الأمناء قائمًا منذ عهد عمران.»

قال عبد الرحيم:

«لكنه لم يكن مجلسًا للسلطة، ولا جماعة خفية تتحكم في الناس. كانوا كتبة، وقضاة، وعلماء، ورهبانًا أحيانًا، يجمعهم شيء واحد... أن الحقيقة لا يجوز أن تضيع.»

هز آصف رأسه، ثم عاد إلى المجلد.

"وفي السنة التي بلغت فيها القدس أوج ازدهارها، جاء إلى دار السجلات رجل من بلاد بعيدة، يحمل معه كتبًا بلغات لم يعرفها أكثر الناس. لم يكن تاجرًا، ولا رسولًا، وإنما كان باحثًا عن المعرفة، ينسخ الكتب حيث وجدها، ويهدي منها ما يستطيع إلى المدن التي يمر بها."

"استقبله أمين الذاكرة الرابع، وأذن له بالاطلاع على ما لا يمس حقوق الناس، فمكث أشهرًا يقرأ وينسخ، ثم قال يوم رحيله: إن المدينة التي تحفظ ذاكرتها، لا يستطيع الزمن أن يهزمها."

"وحين غادر، كتب أمين الذاكرة في هامش الصفحة: ليس كل من يدخل القدس يحمل سيفًا، فمنهم من يحمل قلمًا، والقلم قد يبني ما تعجز عنه السيوف."

رفع آصف رأسه مرة أخرى.

وقد بدت عليه علامات التفكير.

قال: «أشعر أن المجلد يهيئ لحدث كبير.»

ابتسم عبد الرحيم، وقال: «لأن الهدوء الطويل يسبق العاصفة في أكثر الأحيان.»

ساد الصمت.

ثم قلب آصف الصفحة التالية.

كانت الصفحة مختلفة.

لم يبدأها الناسخ بحادثة، ولا باسم مدينة، وإنما كتب في وسطها بخط أكبر من المعتاد:

«ومن هنا... بدأ الزمن يتغير.»

تحتها مباشرة وردت العبارة التي لم يسبق أن ظهرت في أي مجلد قبله:

«بلغت الأخبار القدس بأن جيوشًا عظيمة تتحرك من وراء البحر، تحمل رايات الصليب، وتقول إنها جاءت لتحرير الأرض المقدسة.»

توقفت أنفاس آصف.

أما عبد الرحيم، فأغلق عينيه لحظة، ثم قال بصوت امتزج فيه الأسى بالحكمة: «لقد وصلنا إلى بداية العصر الذي سيختبر أمناء الذاكرة كما لم يُختبروا من قبل.»

وانتهت الصفحة عند هذا السطر، كأن الناسخ نفسه أراد أن يمنح قارئه لحظة صمت، قبل أن تبدأ واحدة من أكثر مراحل القدس قسوة، حيث لن يكون السؤال: كيف نحفظ السجلات؟ بل كيف نحفظ الذاكرة نفسها، حين تصبح المدينة كلها مهددة بالنسيان.

مرت السنوات بعد رحيل الكاتب الأكبر كما تمر الفصول على شجرة الزيتون؛ تسقط أوراق، وتنبت أخرى، لكن الجذور تبقى راسخة في الأرض.

أصبح عمران أمين الذاكرة الأول في عصره، ولم يعد الناس يعرفونه بالنحات أو البنّاء، بل بالرجل الذي تحفظ عنده حقوق المدينة. وكلما تقدم به العمر، أدرك أن أعظم ما تركه له شيخه لم يكن المفتاح، ولا المجلد، ولا قلم القصب، وإنما ذلك الميزان الخفي الذي يفرق بين الحقيقة والهوى.

وكان إذا فرغ من أعمال النهار، جلس وحده في الغرفة الداخلية، يفتح ***مجلد الذاكرة***، ويضيف إليه ما يستحق أن يبقى. لم يكن يكتب كل ما يقع، بل كان يسأل نفسه السؤال الذي تعلمه من شيخه:

"هل سيحتاج من يأتي بعد مائة عام إلى معرفة هذا؟"

فإن وجد الجواب نعم، كتب. وإن وجد الجواب لا، أغلق الصفحة، وترك الحادثة تمضي مع أصحابها.

وهكذا بدأت المجلدات تنمو ببطء، لا بكثرة الصفحات، بل بقيمة ما تحمله.

ومرت الأعوام.

ورحل عمران كما رحل من سبقه.

ولم يُدفن معه المجلد.

ففي الليلة السابقة لوفاته، اجتمع ثلاثة رجال في الغرفة الداخلية؛ قاضٍ، وكاتب، ومعلم للصبيان، وكانوا جميعًا ممن عرفوا بالأمانة.

أخرج عمران المجلد من صندوقه الخشبي.

ووضعه بين أيديهم.

ثم قال بصوت أضعفته السنون: «لا تسألوا: لمن نسلم المجلد؟ بل اسألوا: من يستطيع أن يسلمه بعده؟»

ساد الصمت.

ثم وقع الاختيار على شاب يدعى ***يوسف بن عزرا***، كان كاتبًا هادئًا، قليل الكلام، شديد الدقة.

أخذ يوسف المجلد بكلتا يديه.

ولم يقبله، ولم يرفعه فوق رأسه.

بل ضمه إلى صدره، وقال: «أشهد الله أن يبقى كما وصل إلي.»

ابتسم عمران للمرة الأخيرة. وقال: «إذن... لن تنقطع السلسلة.»

وفي فجر اليوم التالي، أسلم روحه إلى بارئها.

ودُفن في مقبرة تطل على القدس، دون أن يعلم أكثر الناس أنه الرجل الذي حفظ ذاكرتهم عشرات السنين.

ومرت القرون.

وتبدلت أسماء الأمناء، لكن العهد لم يتبدل.

كان كل أمين يضيف إلى المجلد صفحات قليلة، ثم يسلمه إلى من بعده.

وكان بعضهم يعيش في زمن رخاء، فلا يكتب إلا أخبار العلم، وبناء المدارس، وإصلاح الطرق، وعدل القضاة.

ويأتي بعده أمين يعيش في زمن قحط أو وباء، فتثقل صفحاته بأخبار الابتلاء، وكيف صبر الناس حتى انكشف عنهم البلاء.

ولم يكن أحد منهم يوقع اسمه إلا في آخر صفحة كتبها، ثم يترك الصفحة التالية بيضاء، انتظارًا لمن سيأتي بعده.

ومع مرور الزمن، امتلأ المجلد بأسماء لم يعرفها التاريخ، لكنها كانت هي التي حفظت التاريخ.

ثم جاء عام تغير فيه كل شيء.

دخل أحد الأمناء الغرفة الداخلية قبل شروق الشمس بقليل، يحمل بين يديه رسالة وصلت من ساحل البحر.

كانت مختومة بخاتم حاكم مدينة صور.

فض الخاتم، وقرأ السطور الأولى.

فتغير لون وجهه.

نهض على الفور، وأخرج ***مجلد الذاكرة*** من موضعه.

ولم يكتب شيئًا.

ظل ينظر إلى الصفحة البيضاء طويلًا.

ثم غمس القلم في الحبر، وكتب جملة واحدة فقط:

"بلغتنا أخبار لم تعرفها هذه البلاد منذ قرون... جيوش عظيمة خرجت من وراء البحر، تحمل الصليب على راياتها، وتتقدم نحو المشرق، وتقول إن القدس غايتها."

توقف القلم.

ولم يزد كلمة.

لأن الخبر لم يكن قد اكتمل بعد.

لكن الأمين أدرك، بحكمته، أن التاريخ قد بدأ ينعطف نحو طريق جديد، وأن الصفحات القادمة لن تشبه شيئًا مما كتب في المجلد منذ عهد عمران.

وفي الدير القديم، أغلق آصف الصفحة ببطء.

لم ينطق.

أما عبد الرحيم، فنظر إلى عينيه، وقال بصوت هادئ:

«من هنا تبدأ المرحلة التي سيصبح فيها حفظ الذاكرة أصعب من حفظ الحياة نفسها.»

وساد الصمت في الغرفة.

كان كلاهما يعلم أن ما سيأتي بعد هذه الصفحة لن يكون قصة مدينة فحسب، بل قصة أمة كاملة تواجه واحدًا من أعظم امتحانات تاريخها.

مرت الشهور، ولم تعد الأخبار القادمة من الساحل مجرد شائعات يتناقلها التجار في الأسواق، بل أصبحت رسائل متتابعة تحملها القوافل والمسافرون. كان كل رسول يصل إلى القدس يروي قصة مختلفة، لكن جميع القصص كانت تنتهي عند الحقيقة نفسها؛ جيوش كبيرة تعبر البحر، ومدن تسقط الواحدة تلو الأخرى، وقرى تخلو من أهلها خوفًا من القادم المجهول.

لم يكن أمين الذاكرة يكتب كل ما يسمع.

كان ينتظر حتى تتكرر الأخبار من أكثر من طريق، ثم يدون ما ثبت لديه، ويترك ما عداه حتى يتبين أمره.

وفي إحدى الليالي، اجتمع القاضي، وإمام المسجد، وأمين الذاكرة في الغرفة الداخلية. لم يكن الاجتماع سريًا، لكنه كان بعيدًا عن ضجيج المدينة، لأن ما سيناقشونه يحتاج إلى هدوء أكثر مما يحتاج إلى كثرة الحاضرين.

بسط أمين الذاكرة الرقاع أمامهم، وقال: «وصلتنا الأخبار نفسها من دمشق، ومن عكا، ومن نابلس.»

أخذ القاضي يقرأها واحدة بعد أخرى، ثم رفع رأسه وقال: «إذن لم يعد الأمر بعيدًا.»

أجاب الإمام: «لم يعد سؤالنا: هل سيأتون؟ بل متى سيصلون؟»

ساد الصمت.

ثم قال أمين الذاكرة: «أما السجلات، فيجب أن نستعد لها من الآن.»

نظر إليه القاضي مستغربًا.

«ولم تقع الحرب بعد.»

ابتسم الأمين ابتسامة هادئة، وقال: «ومن ينتظر الحرب حتى يحفظ ذاكرته، يكون قد تأخر.»

وفي الأيام التالية بدأت الاستعدادات دون أن يشعر أكثر أهل القدس بما يجري. لم تغلق الأسواق، ولم تتوقف حلقات العلم، ولم تنقطع حركة القوافل، لكن داخل دار السجلات كانت الأيدي تعمل بلا انقطاع.

راجع الكتبة الأصول والنسخ.

وجمعت الوثائق التي لا بديل لها.

ونسخت أهم السجلات مرة أخرى، ثم وزعت على ثلاثة مواضع مختلفة، كما أوصى عمران قبل قرون.

أما ***مجلد الذاكرة*** ، فقد بقي في موضعه.

ولما سأل أحد الكتبة أمين الذاكرة: «ألا نخفيه منذ الآن؟»

أجابه: «إذا أخفيناه قبل أوانه، لفتنا الأنظار إليه. لكل شيء وقته.»

مرت أسابيع أخرى، حتى دخل القدس تاجر من مدينة الرها. كان الغبار يغطي ثيابه، وآثار السفر بادية على وجهه. قصد دار السجلات مباشرة، ولم يذهب إلى السوق كما يفعل التجار عادة.

قال وهو يلتقط أنفاسه: «سقطت الرها.»

ساد الصمت في القاعة.

لم يكن الخبر مجرد سقوط مدينة، بل كان أول إنذار حقيقي بأن الخطر يقترب من بلاد الشام كلها.

فتح أمين الذاكرة المجلد.

وكتب:

"اليوم لم نسجل سقوط مدينة فحسب، بل سجلنا بداية زمن سيختبر إيمان الناس وصبرهم وعدلهم. أما نحن، فقد عاهدنا الله أن تبقى الحقيقة حية، ولو احترقت الدور، وسقطت الأسوار."

أغلق المجلد. ثم نهض، واتجه إلى النافذة المطلة على القدس.

كانت المدينة تبدو هادئة كما كانت دائمًا؛ الأطفال يلعبون في الأزقة، والباعة ينادون على بضائعهم، وأجراس الكنائس تتعانق مع نداءات الصلاة، وكأن شيئًا لم يتغير.

لكن أمين الذاكرة كان يعلم أن الهدوء الذي يسبق العاصفة هو أكثر اللحظات خداعًا.

استدار نحو الكتبة، وقال بصوت ثابت: «من هذه الليلة، لا يغادر المجلد دار السجلات وحده، ولا يبقى فيها وحده.»

نظروا إليه جميعًا.

ثم أضاف: «لقد بدأ الامتحان الذي انتظره الأمناء منذ عهد عمران.»

وفي الدير القديم، رفع آصف عينيه عن الصفحة، وشعر أن إيقاع المجلد قد تغير. لم تعد الصفحات تتحدث عن بناء مدينة، أو حفظ وثيقة، بل عن أمة تقف على أعتاب مرحلة ستغير تاريخها.

أما عبد الرحيم، فاكتفى بأن قال: «من الآن... ستصبح كل صفحة أثقل من التي قبلها.»

لم يطل انتظار المدينة.

فمع مرور الأعوام، أخذت القوافل القادمة من الشمال تقل، وأصبحت الأخبار تصل أسرع من التجار أنفسهم. مدينة تستنجد، وأخرى تطلب المؤن، وثالثة ترسل أبناءها إلى المدن الأكثر أمنًا. ولم تعد الحدود البعيدة تفصل القدس عن الخطر، بل صارت الأخبار تختصر المسافات حتى بدا وكأن الحرب تسير في الطرق نفسها التي تسلكها القوافل. ومع ذلك، لم تتوقف الحياة.

كانت الأسواق تفتح أبوابها مع شروق الشمس، ويخرج الفلاحون إلى كرومهم، ويجلس المعلمون إلى طلابهم، ويواصل البناؤون ترميم ما تصدعه الأيام. فقد تعلم أهل القدس عبر القرون أن الخوف لا يبني مدينة، وأن انتظار المصيبة لا يمنع وقوعها.

أما أمين الذاكرة، فقد صار يبدأ كل صباح بجولة داخل دار السجلات.

يفتح الخزائن واحدة بعد أخرى.

يتأكد من سلامة الأختام.

ويعيد ترتيب المجلدات بنفسه.

لم يكن يشك في رجاله، لكنه كان يردد دائمًا: «الأمانة لا يحرسها حسن الظن وحده، بل يحرسها حسن المتابعة.»

وفي إحدى الليالي، بينما كانت الأمطار الخفيفة تضرب نوافذ الدار، طرق الباب رجل مسن عرفه الأمين منذ سنوات. كان يعمل رسولًا بين مدن الشام، ولم يعرف عنه قط أنه بالغ في خبر أو كذب في رواية.

دخل الرجل، ونزع عباءته المبتلة، ثم قال بصوت خافت: «رأيت القرى على الطريق.»

توقف قليلًا، ثم أردف: «الناس يتركون بيوتهم، ويحملون ما خف من متاعهم، ويقولون إن الجيوش لا تبقي وراءها إلا الخراب.»

ساد الصمت في القاعة.

ثم سأل الأمين: «وهل رأيت ذلك بعينك؟»

أجاب الرجل: «رأيت البيوت خالية، والحقول بلا أصحاب، أما ما وراء ذلك، فلا أحدث إلا بما رأيت.»

ابتسم الأمين ابتسامة رضا. وقال: «إذن نقلت الحقيقة كما هي.»

ثم أمر بإعداد الطعام للرجل، وأفسح له مكانًا ليستريح.

ولما خلا المكان، جلس إلى المجلد.

ظل القلم بين أصابعه، لكنه لم يكتب شيئًا.

نظر إليه أحد الكتبة، وسأله: «ألن تدون ما سمعناه؟»

رفع الأمين رأسه، وقال: «ليس بعد.»

تعجب الكاتب. فأضاف الأمين: «الرجل نقل ما رآه، لا ما وقع في القدس. ومجلد الذاكرة لا يكتب الخوف، بل يكتب الحقيقة.»

طوى المجلد من جديد.

وكان ذلك درسًا آخر تعلمه الكتبة؛ أن الحارس لا يسمح للشائعات أن تجد طريقها إلى التاريخ، مهما بدت قريبة من التصديق.

بعد أسابيع، تبدلت الحال.

وصل إلى القدس رسول من دمشق يحمل كتابًا مختومًا من قاضيها. قرأه الأمين ببطء.

ثم أغلقه.

لم يرفع رأسه مباشرة، بل بقي لحظات صامتًا، كأن الكلمات أثقل من أن تنطق.

اقترب القاضي وسأله: «ما الخبر؟»

أجاب الأمين بهدوء: «لم يعد الخطر على الطرق... لقد صار على المدن.»

نظر الحاضرون إلى بعضهم. ولم يحتج أحد إلى مزيد من الشرح.

فتح الأمين ***مجلد الذاكرة***.

وغمس القلم في الحبر.

ثم كتب: "اليوم ثبت لدينا أن الحرب لم تعد نذيرًا بعيدًا، بل أصبحت واقعًا يقترب من بلادنا. وما زلنا نسأل الله أن يجنب القدس البلاء، غير أن الحارس لا يبني أمله على الدعاء وحده، بل يعد للأمانة طريقًا تنجو به إن اشتدت المحنة."

ترك الحبر حتى جف. ثم أغلق المجلد.

ونظر إلى الرجال المجتمعين حوله.

وقال بصوت ثابت: «ابتداءً من هذه الليلة، يبدأ تنفيذ الخطة التي وضعها الأمناء منذ عهد عمران.»

لم يسأله أحد عن الخطة. فقد كانوا يعرفونها جميعًا، وإن لم يسبق لهم العمل بها. كانت خطة لا تتحدث عن السلاح، ولا عن القتال.

بل عن شيء واحد فقط...

كيف تبقى الذاكرة حية، إذا أصبحت المدينة كلها ميدانًا للحرب.

لم تكن الخطة التي وضعها الأمناء تقوم على إخفاء المجلد في مكان واحد، لأنهم تعلموا عبر القرون أن المكان الذي يعرفه اثنان قد يعرفه ثالث، وأن الخزائن مهما بلغت متانتها قد تكسر، أما الحكمة فلا تكمن في قوة الباب، بل في حسن توزيع الأمانة.

اجتمع الأمناء في الليلة نفسها داخل الغرفة الحجرية التي حفظت المجلدات منذ عهد عمران. لم يكن عددهم كبيرًا؛ قاضٍ، وكاتب، وإمام، وراهب من أحد الأديرة القريبة، ورجل عرف بين الناس بإتقانه النسخ وحفظه للوثائق. اختلفت أعمالهم، لكنهم اجتمعوا على عهد واحد، وهو أن تبقى الحقيقة محفوظة مهما تبدلت الأحوال.

أخرج أمين الذاكرة المجلد من صندوقه الخشبي، ووضعه على المنضدة. مرر يده على غلافه برفق، ثم قال: «إذا دخل الخوف إلى قلوبنا، فلن يبقى لهذا المجلد قيمة. أما إذا بقينا أمناء، فلن يستطيع أحد أن يمحو ما كتب فيه.»

أومأ الجميع بالموافقة.

ثم فتح الصندوق الثاني، وأخرج منه رقاعًا جديدة، وأقلامًا، ومحابر، وقال: «من هذه الليلة، لن يبقى المجلد وحده شاهدًا. سنبدأ بإعداد نسخة ثانية، تكتب حرفًا بحرف، وصفحة بصفحة، ولا يعرف مكانها إلا من يحين دوره في حملها.»

استغرق العمل أسابيع طويلة. كان الناس يظنون أن الكتبة ينسخون سجلات الأراضي والمواريث كعادتهم، بينما كانوا، بعد انصراف الجميع، ينسخون صفحات ***مجلد الذاكرة*** في صمت تام. لم يكن أحد يتحدث إلا عند الحاجة، وكان كل سطر يراجع مرتين قبل الانتقال إلى السطر الذي يليه.

وفي أثناء ذلك، استمرت الأخبار تتوالى من مدن الشام. بعضها يقاوم، وبعضها يطلب النجدة، وبعضها يغلق أبوابه استعدادًا للحصار. أما القدس، فقد بقيت هادئة، لكن الهدوء لم يعد يطمئن أحدًا.

وفي صباح أحد الأيام، دخل إلى دار السجلات رجل في العقد الخامس من عمره. كانت ملامحه تدل على طول السفر، وقد بدا الإرهاق واضحًا على وجهه. تقدم إلى أمين الذاكرة، وقال: «أنا من أنطاكية.»

رحب به الأمين، وأجلسه إلى جواره، ثم سأله عن أحوال الناس.

تنهد الرجل طويلًا، وقال: «تعلمت في هذه الرحلة أن المدينة لا تسقط يوم يدخلها العدو، بل يوم يفقد أهلها الثقة في الغد.»

بقيت الجملة تتردد في القاعة، حتى إن الكتبة توقفوا عن الكتابة لحظات.

ثم تابع الرجل: «رأيت رجالًا أحرقوا وثائقهم بأيديهم خوفًا من أن تقع في يد الغزاة، فلما انتهت الحرب لم يجدوا ما يثبت حقوقهم.»

خفض أمين الذاكرة رأسه، وأدرك أن هذا هو الدرس الذي كان يخشاه منذ بدأت الأخبار تصل من الشمال.

قال للرجل: «لقد حفظت لنا خبرًا أثمن من كثير من الأخبار.»

وفي تلك الليلة، أضاف إلى المجلد سطورًا جديدة:

"إذا اشتدت المحن، لا يكن أول ما يضيع هو ذاكرة الناس. فالبيت يمكن أن يعاد بناؤه، والأرض قد تعود إلى أصحابها، أما الوثيقة إذا احترقت، فقد يضيع معها حق لا يعرفه أحد بعد ذلك."

ثم أغلق المجلد، ووضعه في صندوقه، وأطفأ المصباح.

وعندما خرج إلى ساحة الدار، رفع بصره إلى أسوار القدس. كانت شامخة كما عرفها منذ صغره، لكن قلبه كان يخبره أن الأيام المقبلة ستختبر تلك الأسوار، كما ستختبر الرجال الذين يقفون خلفها.

وفي الدير، واصل آصف القراءة دون أن يرفع رأسه. كان يشعر أن إيقاع المجلد قد تغير؛ فلم تعد الصفحات تروي أحداثًا مضت، بل أخذت تنقل إليه شعور أناس كانوا يرون الخطر يقترب خطوة بعد خطوة، ولا يملكون إلا أن يثبتوا على عهد قطعوه قبل قرون.

أما عبد الرحيم، فقد ظل صامتًا حتى انتهى آصف من الصفحة، ثم قال بهدوء: «الحرب لا تبدأ عندما ترتفع السيوف، بل تبدأ عندما يقرر الإنسان أن الحقيقة لم تعد تستحق أن تُحفظ. ولهذا كان أمناء الذاكرة يستعدون لها قبل أن يسمعوا صوت أول معركة.»

وأعاد آصف بصره إلى المجلد، وقلب الصفحة التالية ببطء، وهو يعلم أن ما سيقرؤه بعد الآن لن يكون مجرد أخبار عن مدن بعيدة، بل بداية الأحداث التي ستصل إلى أبواب القدس نفسها.

بدأت ملامح الخطر تقترب من القدس عامًا بعد عام. لم تعد الرسائل تتحدث عن مدن بعيدة، بل عن قرى لا يفصلها عن المدينة سوى أيام قليلة من السير. كانت القوافل تصل محملة بالناس أكثر مما تحمل من البضائع، وازدادت الوجوه الغريبة في الأسواق، فمنهم من جاء يبحث عن مأوى، ومنهم من جاء يسأل عن قريب انقطعت أخباره، ومنهم من لم يحمل معه سوى ثوبه وما استطاع إنقاذه من بيته.

وكان أمين الذاكرة يخرج كل صباح إلى ساحة المدينة قبل أن يدخل دار السجلات. يقف بين الناس، يستمع إلى أحاديثهم، ويلاحظ ما تبدل في حياتهم. فقد تعلم من الأمناء الذين سبقوه أن الحقيقة لا توجد في الوثائق وحدها، بل في وجوه الناس أيضًا. وكان يعود كل مرة وقد حمل في قلبه ما يكفي من الأسئلة، لكنه لم يكن يكتب منها إلا ما ثبت بالدليل، لأن المجلد لم يكن مكانًا للتوقعات، وإنما سجلًا لما وقع بالفعل.

وفي أحد الأيام، وصلت إلى القدس أسرة من الشمال، تتكون من شيخ طاعن في السن، وابنه، وحفيدته الصغيرة. لم يكن معهم متاع يذكر، سوى صندوق خشبي صغير حمله الشيخ بنفسه طوال الطريق، ورفض أن يدعه في يد أحد.

استوقفه أمين الذاكرة وسأله برفق: «أتحمل فيه مالًا؟»

ابتسم الشيخ ابتسامة متعبة، وقال: «لو كان مالًا لتركته في الطريق.»

ثم فتح الصندوق أمامه.

لم يكن فيه ذهب ولا فضة، بل لفائف من الرق، ورسائل، وعقود بيع، وسجل صغير كتبت فيه أسماء أفراد أسرته منذ أجيال.

قال الشيخ وهو يمرر يده على الأوراق: «حين سقطت قريتنا، قال الناس: احملوا الطعام. وقال آخرون: احملوا المال. أما أنا، فحملت ما يثبت من نحن.»

ظل أمين الذاكرة ينظر إلى الصندوق طويلًا، ثم نهض وأدخل الأسرة إلى دار السجلات.

أمر بإعداد نسخة من كل وثيقة، وختمها بختم الدار، ثم أعاد الأصول إلى الشيخ.

تعجب الابن، وقال: «لماذا لم تحتفظوا بها عندكم؟ ستكون أكثر أمانًا.»

ابتسم الأمين وقال: «الوثيقة التي تنفصل عن أهلها تصبح مجرد ورق، أما إذا بقي الأصل مع أصحابه، وبقيت نسخة تحفظها المدينة، فإن الحقيقة تملك شاهدين بدل شاهد واحد.»

خرج الشيخ من الدار وقد تبدل شيء في قلبه. لم يعد يشعر أنه لاجئ فقد كل شيء، بل رجل ما زال يحمل تاريخه معه، ولم تسمح له الأيام أن يفقده.

وفي تلك الليلة، كتب أمين الذاكرة في المجلد:

"رأيت اليوم رجلًا حمل نسب أسرته قبل أن يحمل متاعه، فعلمت أن الإنسان قد يعيش فقيرًا إذا فقد ماله، لكنه يضيع إذا فقد ذاكرته."

ترك الحبر حتى جف، ثم أغلق المجلد.

ومع مرور الشهور، بدأت القدس تستعد لما هو أكثر من استقبال النازحين. أمر الوالي بتقوية بعض الأسوار، وأعيد إصلاح الأبراج التي أهملتها السنوات، وخزن القمح والزيت في المخازن العامة، وازدادت الحراسة على أبواب المدينة. ولم يكن أحد يتحدث عن الحرب صراحة، لكن الجميع كانوا يعملون وكأنها قد تبدأ في أي يوم.

أما دار السجلات، فقد تغير نظامها هي الأخرى. لم تعد الأبواب تفتح إلا بعد شروق الشمس، وأصبحت السجلات تعاد إلى خزائنها قبل غروب الشمس، وألغيت عادة بقاء أي وثيقة على المناضد حتى اليوم التالي. كان أمين الذاكرة يراجع بنفسه كل خزانة قبل أن يغادر، ثم يقف لحظة في وسط القاعة، يتأمل الرفوف الممتدة أمامه.

وفي إحدى الأمسيات، دخل عليه القاضي، فوجده واقفًا على حاله.

قال مبتسمًا: «كأنك تودع المكان كل ليلة.»

أجاب الأمين دون أن يلتفت: «بل أتعلم أن أغادره دون أن أترك فيه نقصًا، فقد يأتي يوم لا أعود فيه.»

اقترب القاضي ووضع يده على كتفه.

وقال: «أسأل الله ألا يأتي ذلك اليوم.»

أجابه الأمين بهدوء: «وأنا أيضًا. لكن الحارس لا يبني عمله على ما يرجوه، بل على ما قد يقع.»

ساد الصمت بين الرجلين.

وفي الخارج، كانت أجراس المساء تمتزج بأذان المغرب، بينما أخذت الشمس تختفي خلف تلال القدس، كأنها تخفي معها آخر يوم من أيام الطمأنينة التي عرفتها المدينة طويلًا.

وفي الدير، أغلق آصف الصفحة وأخذ نفسًا عميقًا. شعر أن المجلد لم يعد يسرد تاريخًا بعيدًا، بل يصنع توترًا يزداد مع كل صفحة. نظر إلى عبد الرحيم وقال: «أشعر أن المدينة تعرف ما ينتظرها، لكنها ترفض أن تستسلم للخوف.»

ابتسم الشيخ، ثم قال: «وهذا ما جعل القدس تبقى مدينة حية عبر القرون. لم تكن تنكر الخطر، لكنها لم تسمح له أن يسلبها قدرتها على مواصلة الحياة.»

ثم أشار إلى الصفحة التالية، وقال: «اقرأ... فمن هنا تبدأ الأيام التي سيكتب عنها المؤرخون، أما أمناء الذاكرة، فسيروون ما لم يره أحد غيرهم.»

لم يشعر أهل القدس بما جرى تلك الليلة. فقد أغلقت الأسواق أبوابها في موعدها، وأطفئت المصابيح واحدًا بعد آخر، وغرقت المدينة في سكونها المعتاد. أما في الأزقة الضيقة، فقد تحرك ثلاثة رجال في صمت، يحمل كل واحد منهم جرابًا جلديًا لا يختلف عن الجراب الذي يحمله أي كاتب في طريق عودته إلى بيته.

لكن أحد تلك الجرابات كان يضم بين صفحاته ذاكرة قرون كاملة.

ساروا عبر طرق متفرقة، حتى لا يلفتوا انتباه أحد، ثم التقوا عند باب صغير في أحد الأديرة القريبة من أسوار المدينة. فتح لهم شيخ الدير الباب دون أن ينطق بكلمة، وقادهم إلى قبو حجري جاف، بني في الصخر منذ زمن بعيد.

وضع أمين الذاكرة المجلد على منضدة خشبية، ثم نظر إلى الشيخ وقال: «لن يبقى هنا طويلًا.»

أجابه الشيخ: «يكفي أن يبقى حتى تمر العاصفة.»

أخرج الأمين قطعة قماش كتانية، ولف بها المجلد، ثم وضعه داخل صندوق من خشب السرو، وأغلقه بإحكام. لم يكن الصندوق مزينًا أو مختلفًا عن غيره، بل تعمد أن يبدو كأي صندوق يحفظ فيه الرهبان مخطوطاتهم القديمة.

وقبل أن يغادر، فتح المجلد مرة أخيرة، وكتب في أسفل الصفحة:

"إذا قرأ أحد هذه السطور بعدنا، فليعلم أننا لم نخفِ المجلد خوفًا على الورق، بل خوفًا على الحقيقة التي يحملها. فالكتاب يمكن أن ينسخ، أما إذا ضاع الصدق، فلن تعيده كثرة الكتب."

ترك الحبر يجف، ثم أغلق المجلد للمرة الأخيرة.

ومرت الأيام، ثم الأسابيع.

كانت الأخبار القادمة من الشمال تزداد قسوة، لكن القدس بقيت صامدة، تستقبل القادمين، وتفتح أبوابها للفارين من المدن التي سقطت. امتلأت الخانات بالعائلات، وأصبحت الساحات مأوى للمسافرين، حتى إن كثيرًا من بيوت المدينة فتحت أبوابها للغرباء دون أن تسألهم من أين جاؤوا.

وفي كل مساء، كان أمين الذاكرة يجلس مع القاضي وقائد الحرس يتبادلون ما وصلهم من أخبار، ثم ينصرف كل منهم إلى عمله. لم يكن أحد يملك أن يغير مجرى الأحداث، لكنهم كانوا مصممين على ألا يفقدوا النظام الذي قامت عليه المدينة.

وذات صباح، وصل رسول من مدينة نابلس.

لم يكن يحمل رسالة.

كان يحمل راية بيضاء صغيرة، وقد عقدها حول رمحه.

نظر إليه قائد الحرس، ثم قال: «هذه ليست راية استسلام.»

أجاب الرسول بصوت خافت: «إنها علامة حداد.»

ساد الصمت.

ثم أضاف: «لقد أصبحت الحرب أقرب مما كنا نظن.»

لم يحتج إلى شرح أكثر.

كان الجميع يدرك معنى كلماته.

عاد أمين الذاكرة إلى دار السجلات، وجمع الكتبة.

نظر إلى وجوههم واحدًا واحدًا، ثم قال:

«قد يأتي يوم لا نستطيع فيه أن نجلس حول هذه المناضد كما نفعل الآن. فإذا حدث ذلك، فلا يحمل كل واحد منكم ما يستطيع حمله من المتاع، بل يحمل ما يستطيع حمله من الحقيقة.»

نظر بعضهم إلى بعض في صمت.

ثم سأل أحد الكتبة الشباب: «وإذا افترقنا؟»

ابتسم الأمين ابتسامة هادئة.

وقال: «تذكروا ما فعله عمران قبل قرون. الأمانة لا يقيدها مكان، بل يحملها الإنسان حيثما ذهب.»

خرج الرجال من القاعة، وكل واحد منهم يدرك أن الأيام المقبلة لن تشبه ما مضى.

أما الأمين، فبقي وحده.

جلس إلى المنضدة التي جلس إليها الأمناء قبله مئات المرات.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم فتح سجلًا جديدًا غير ***مجلد الذاكرة***.

كتب على غلافه: "سجل المفقودات."

ولم يكتب فيه أسماء أموال أو بضائع.

بل بدأ يسجل أسماء القرى التي انقطعت أخبارها، وأسماء العلماء الذين لم يعرف أحد إلى أين انتهى بهم الطريق، وأسماء المكتبات التي قيل إنها أحرقت، حتى إذا عاد أحد منهم يومًا، أو عثر على خبر صحيح عنهم، أضيف إلى السجل ما يرد إليهم مكانهم في الذاكرة.

ثم أغلق السجل، وقال في نفسه: «قد تضيع الطرق... لكن الأسماء لا ينبغي أن تضيع.»

وفي تلك اللحظة، دوى جرس الإنذار من أعلى السور.

نهض أمين الذاكرة مسرعًا، واتجه نحو الباب.

ولأول مرة منذ بدأ حمل هذه الأمانة، لم يكن خارجًا لاستقبال رسول يحمل خبرًا...

بل ليرى بعينيه بداية الحدث الذي سيغير تاريخ القدس لقرون طويلة.

خرج أمين الذاكرة مسرعًا من دار السجلات، وكانت خطواته تتردد في الأزقة الحجرية التي بدأت تمتلئ بالناس. لم يكن جرس الإنذار يدق إلا في الأحوال الاستثنائية، ولذلك ترك التجار حوانيتهم، وأطل الناس من نوافذ بيوتهم، واتجهت الأنظار كلها نحو الأسوار.

صعد الأمين الدرج الحجري المؤدي إلى البرج الشرقي، حيث كان قائد الحرس يقف وقد ثبت بصره في الأفق.

قال الأمين وهو يلتقط أنفاسه: «ما الذي حدث؟»

أشار القائد بيده إلى الطريق الممتد شمالًا.

في البداية لم ير الأمين سوى غبار كثيف يرتفع فوق التلال، ثم بدأت تتضح ملامح القافلة. لم تكن جيشًا، ولم تكن قافلة تجارة، بل مئات الرجال والنساء والأطفال يسيرون في جماعات متفرقة، يحملون

ما استطاعوا حمله، بينما يقود بعضهم شيوخًا أعياهم السير، ويحمل آخرون أطفالًا لم يقووا على متابعة الطريق.

قال قائد الحرس: «إنهم من القرى المجاورة.»

ولم تمض ساعة حتى وصلت طلائعهم إلى أبواب القدس.

فتح الحراس الأبواب، ودخل الناس في صمت. لم تكن على وجوههم علامات الهزيمة بقدر ما كانت آثار الإرهاق الطويل. وكان أكثر ما لفت انتباه أمين الذاكرة أن كثيرًا منهم لم يحملوا إلا ما يكفيهم ليوم أو يومين، وكأنهم خرجوا على أمل أن يعودوا سريعًا إلى بيوتهم.

اقترب شيخ من بين الوافدين، وسأله الأمين: «هل أجبرتم على الرحيل؟»

أجاب الشيخ بصوت متعب: «لم تدخل الجيوش قريتنا بعد، لكن القرى التي سبقتنا لم يبق منها إلا الدخان.»

خفض الأمين رأسه.

لقد أصبح الخطر أقرب من أي وقت مضى.

طوال ذلك اليوم، انشغلت المدينة باستقبال القادمين. فتحت المساجد والأديرة أبوابها لإيوائهم، وتقاسم أهل القدس معهم الطعام والماء والفرش. ولم يكن أحد يسألهم عن أصولهم أو قبائلهم، فقد كان الجميع يدرك أن المصيبة إذا نزلت ببلدة، فإنها تمس سائر البلاد.

ومع حلول المساء، عاد الأمين إلى دار السجلات.

وجد الكتبة ينتظرونه في القاعة الكبرى.

قال أحدهم: «لقد تضاعف عدد من يطلبون إثبات ملكياتهم ووثائقهم.»

أجابه الأمين: «ابدؤوا بهم قبل غيرهم.»

تعجب الكاتب، وقال: «أليس الأولى أن ننشغل بما يقترب منا؟»

ابتسم الأمين ابتسامة هادئة، ثم قال: «بل هذا هو ما يقترب منا. حين يخاف الإنسان، يبحث أولًا عما يثبت حقه، لا عما يثبت قوته.»

جلس الكتبة إلى مناضدهم، واستمروا في العمل حتى ساعة متأخرة من الليل. كانوا ينسخون العقود، ويثبتون الأنساب، ويحررون الشهادات لمن فقد وثائقه في الطريق، حتى لا يبدأ حياة جديدة بلا شاهد على ماضيه.

وفي أثناء ذلك، دخل رسول من برج المراقبة.

كان يحمل رقعة صغيرة مختومة بختم قائد الحرس.

قرأها الأمين في صمت.

ثم طواها، ووضعها داخل ثوبه. لاحظ أحد الكتبة تغير ملامحه، فسأله: «هل جاء خبر جديد؟»

رفع الأمين بصره، وقال بهدوء: «نعم... لقد شوهدت طلائع الجيش على مسيرة أيام قليلة من القدس.»

ساد الصمت في القاعة.

لم يترك الأمين لذلك الصمت أن يطول.

قال بصوت ثابت: «أكملوا عملكم.»

نظر إليه الكتبة في دهشة.

فأضاف: «إذا توقفنا اليوم عن أداء الأمانة خوفًا مما قد يقع غدًا، فإننا نكون قد هزمنا أنفسنا قبل أن يصل إلينا أحد.»

عاد كل واحد إلى مكانه.

وأخذت الأقلام تتحرك فوق الرقوق من جديد.

امتزج صوتها الخافت بصوت الريح القادمة من خلف الأسوار، حتى بدا وكأن المدينة كلها تكتب شهادتها الأخيرة قبل أن تدخل أيامًا لن تشبه ما عرفته من قبل.

أما أمين الذاكرة، ففتح المجلد، ولم يكتب إلا سطرًا واحدًا:

"في هذه الليلة، لم يكن أثمن ما في القدس ذهبها ولا حجارتها، بل الرجال الذين واصلوا أداء واجبهم، وهم يعلمون أن الغد قد يحمل إليهم ما لم يحملوه من قبل."

ثم أغلق المجلد برفق، وأطفأ المصباح، بينما كانت أبراج المدينة تواصل مراقبة الأفق في انتظار أول خيط من نور الصباح، وأول مواجهة مع زمن جديد.

لم تمض إلا أيام قليلة حتى ظهرت الرايات على التلال المحيطة بالقدس.

وقف أهل المدينة فوق الأسوار، يتابعون في صمت حركة الجيوش وهي تقترب شيئًا فشيئًا، حتى أحاطت بالمدينة من جهاتها كلها. عندها أدرك الجميع أن زمن الانتظار قد انتهى، وأن زمن الحصار قد بدأ.

أغلقت الأبواب، ووزعت المؤن، وأخذ الحراس أماكنهم على الأبراج، بينما تحولت دور العبادة إلى أماكن لإيواء المرضى والنساء والأطفال.

أما دار السجلات، فلم تغلق أبوابها.

قال أحد الكتبة لأمين الذاكرة: «ألن نتوقف عن العمل؟»

فأجابه وهو يضع آخر سجل في خزانته: «إذا توقفت الحقيقة عن الكتابة في وقت الشدة، فلن تجد من يرويها بعد انتهاء المحنة.»

مرت الأيام ثقيلة.

كانت الحجارة تتساقط على الأسوار، والسهام تمطر المدينة، بينما أخذ عدد الجرحى يزداد مع كل هجوم. ومع ذلك، ظل الأمناء يثبتون أسماء القتلى، ويسجلون الوصايا، ويحررون ما يستطيعون من وثائق لمن خشي ألا يدركه الصباح.

وفي إحدى الليالي، دخل قائد الحرس إلى دار السجلات، وعلى وجهه غبار المعركة.

قال بصوت خافت: «الجدار الشمالي لن يصمد طويلًا.»

ساد الصمت. ثم نظر إلى أمين الذاكرة، وأضاف: «استعدوا.»

لم يسأل الأمين كم بقي من الوقت.

كان يعرف أن تلك الكلمة وحدها تكفي.

عاد إلى الغرفة الداخلية، وأخرج الصندوق الذي يضم ***مجلد الذاكرة*** والنسخة الثانية التي أعدها الأمناء خلال الأشهر الماضية.

وقف أمام الرجال الأربعة الذين بقوا معه.

وقال: «من هذه اللحظة، لا تعود مهمتنا حفظ الدار... بل حفظ الذاكرة.»

قسم ما في الصندوق.

أخذ النسخة الأصلية، وسلم النسخة الثانية إلى الراهب الذي طالما شاركهم حفظ المخطوطات.

وقال له: «إن افترقنا، فلا تحاول البحث عنا. اخرج من المدينة، واحملها إلى المكان الذي تعرفه.»

هز الراهب رأسه، وأخفى النسخة تحت ثيابه.

ثم افترقوا.

وقبل طلوع الفجر، دوى صوت عظيم هز أرجاء القدس.

انهار جزء من السور الشمالي.

ودخلت صيحات القتال إلى قلب المدينة.

امتلأت الأزقة بالناس، واختلطت أصوات الأجراس بالتكبير، وصار كل شارع يشهد معركة من أجل البقاء.

أما أمين الذاكرة، فلم يتجه إلى ساحة القتال.

بل سلك الأزقة الضيقة، يضم المجلد إلى صدره، ويبحث عن الطريق الذي رسمه الأمناء قبل سنوات، تحسبًا لهذا اليوم.

كان يسمع وقع الأقدام يقترب خلفه.

لكنه لم يلتفت.

كل ما كان يفكر فيه أن تصل الأمانة إلى اليد التالية، ولو لم يصل هو.

وعندما بلغ الباب الخلفي للدير، كان الراهب ينتظره.

نظر كل منهما إلى الآخر لحظة واحدة.

لم يكن هناك وقت للكلام.

ناول الأمين المجلد إلى الراهب، وقال: «اليوم... أصبحت الذاكرة أمانتك.»

أخذ الراهب المجلد بكلتا يديه.

ثم اختفى في الممر الحجري المؤدي إلى خارج المدينة.

أما أمين الذاكرة، فأغلق الباب خلفه.

واستدار نحو القدس. كان يعلم أنه لن يخرج منها.

لكنه كان يعلم أيضًا أن المجلد خرج حيًا.

ابتسم ابتسامة هادئة، ثم سار عائدًا نحو المدينة، حيث كانت أصوات المعركة تزداد قربًا، بينما واصلت الذاكرة رحلتها، بعيدًا عن السيوف والنار، لتشهد يومًا على ما وقع حقًا، لا على ما سيرويه المنتصرون.

استمرت المعركة أيامًا قليلة، لكنها بدت في ذاكرة من عاشها كأنها عمر كامل. امتلأت الأزقة بالدخان، وسقطت بيوت طالما عرفت الهدوء، واختلطت أصوات الاستغاثة بأصوات السلاح، حتى لم يعد أحد يميز بين بداية النهار ونهايته.

قاتل أمين الذاكرة مع أهل المدينة، لا لأنه كان فارسًا، بل لأنه كان واحدًا منهم. كان يساعد الجرحى، ويقود الأطفال والنساء إلى الأماكن الأكثر أمنًا، وكلما مر بدار أو مسجد أو مدرسة، التفت إليها نظرة أخيرة، كأنه يودع جزءًا من حياته.

وعند غروب أحد الأيام، أصيب بسهم في كتفه، فسقط إلى الأرض. حاول النهوض مرة، ثم أخرى، حتى أسنده رجل من أهل القدس.

قال له الرجل: «تعال... ما زال بإمكاننا الخروج.»

ابتسم الأمين، وهز رأسه. ثم قال بصوت متعب: «لقد خرج ما يجب أن يخرج.»

لم يفهم الرجل قصده، لكنه لم يجد وقتًا للسؤال، فقد عاد القتال يقترب من الموضع الذي يقفان فيه.

رفع الأمين بصره نحو سماء القدس، وتمتم: «اللهم اشهد... لقد سلمنا الأمانة.»

ثم أسند ظهره إلى جدار حجري، وأغمض عينيه في هدوء، بينما كانت المدينة تدخل واحدة من أكثر صفحات تاريخها ألمًا.

وفي تلك الليلة، كان الراهب يسير عبر ممرات جبلية لا يعرفها إلا قلة من الناس. لم يحمل معه سوى جراب صغير، بدا لكل من رآه أنه يضم بعض الكتب القديمة.

لم يلتفت خلفه إلا مرة واحدة.

كانت أضواء الحرائق ترتفع من جهة القدس، فتضيء السماء بلون أحمر حزين.

رسم إشارة الدعاء، ثم واصل السير.

كان يعلم أن المدينة قد تسقط، لكن الذاكرة لم تسقط.

مضت أسابيع قبل أن تهدأ الطرق، وعندها وصل الراهب إلى دير صغير بين الجبال، حيث كان ينتظره رجل مسن عرفه الأمناء منذ سنوات.

وضع الجراب على المنضدة، وفتحه ببطء.

أخرج ***مجلد الذاكرة***.

ظل الرجل العجوز ينظر إليه طويلًا، ثم قال: «كم بقي منهم؟»

أطرق الراهب رأسه. وقال: «لا أعلم... لكنني أعلم أن آخرهم أوصل الأمانة.»

ساد الصمت.

ثم فتح الرجل المجلد عند آخر صفحة. وغمس القلم في الحبر.

وكتب:

"في سنة سقوط القدس، مات رجال كثيرون، وضاعت بيوت كثيرة، واحترقت كتب كثيرة، لكن الله حفظ هذا المجلد بأيدٍ آمنت أن الحقيقة ميراث للأجيال، لا غنيمة للحروب."

ترك الحبر حتى جف.

ثم أغلق المجلد برفق، ووضعه في صندوق جديد صنع خصيصًا له.

وقال: «ستعود الأيام، وسيعود رجال يحملون هذه الأمانة من جديد.»

في الدير القديم، أغلق آصف المجلد الثاني وقد غلبه الصمت.

لم يكن أكثر ما أثر فيه سقوط المدينة، بل ذلك الإصرار الذي جعل الأمناء يفضلون بقاء الحقيقة على بقائهم هم.

نظر إلى عبد الرحيم، وقال:

«لم ينتصروا في المعركة... لكنهم لم يسمحوا للهزيمة أن تمحو ذاكرتهم.»

ابتسم الشيخ، وأجاب: «ولهذا بقيت القدس حية في ضمير أبنائها. فالمدينة لا يحفظها الحجر وحده، بل يحفظها من يرفض أن يكذب على التاريخ.»

أعاد عبد الرحيم المجلد إلى مكانه، ثم مد يده إلى المجلد الذي يليه.

كان غلافه أقل اهتراءً، وكأن أصحابه حملوه في زمن كثرت فيه الأسفار، وقل فيه الاستقرار.

قال وهو يضعه أمام آصف: «بعد كل ليل طويل... يهيئ الله فجرًا جديدًا.»

نظر آصف إلى عنوان الصفحة الأولى، فقرأ: «في أيام القائد الذي جمع القلوب قبل أن يجمع الجيوش.»

ابتسم عبد الرحيم، وقال: «ومن هنا... تبدأ حكاية عهد جديد، وحارس جديد، ورجل سيعيد القدس إلى أهلها، لا بقوة السيف وحدها، بل بعدلٍ أعاد للناس ثقتهم بأنفسهم.»

الفصل الرابع

فجر بعد ليل طويل

فتح آصف المجلد الثالث، فإذا بالخط يختلف مرة أخرى. كان أكثر قوة وثباتًا، كأن اليد التي كتبته لم تكن تنقل أحداثًا فحسب، بل تستعيد الأمل بعد زمن طويل من الانكسار.

وجاء في أول سطر:

"ثمانية وثمانون عامًا مرت منذ سقوط القدس، ولم تنقطع خلالها الأمانة، وإن تبدلت الوجوه وتغيرت البلاد."

قلب آصف الصفحة.

"تعاقب على حمل المجلد أمناء لم يعرف التاريخ أسماءهم، عاش بعضهم في الأديرة، وبعضهم في المدارس، وآخرون بين التجار والمسافرين. لم يكن همهم مقاومة الجيوش، بل مقاومة النسيان. كانوا ينسخون ما بقي من الوثائق، ويجمعون شهادات من شهدوا سقوط المدينة، حتى لا يكتب المنتصر وحده تاريخ تلك الأيام."

رفع آصف رأسه وقال: «إذن لم يتوقفوا بعد سقوط القدس.»

ابتسم عبد الرحيم.

«لو توقفوا يوم الهزيمة، لما بقي بين يديك هذا المجلد.»

عاد آصف إلى القراءة.

"كبر أطفال ولدوا تحت الاحتلال، ورحل شيوخ كانوا يذكرون يوم دخول المدينة. ومع مرور السنين، بدأ الناس يظنون أن القدس لن تعود كما كانت، حتى ظهر في بلاد المسلمين رجل لم يكن يشبه أكثر القادة."

توقف السرد لحظة.

ثم جاءت العبارة التالية بخط أكبر قليلًا: ***"لم يبدأ بجمع السيوف... بل بدأ بجمع القلوب."***

ساد الصمت في الغرفة.

قال عبد الرحيم: «هنا يبدأ اسم سيغير مجرى الأحداث.»

قرأ آصف الاسم الذي دوّنه أمين الذاكرة بعناية: ***صلاح الدين يوسف بن أيوب***.

ولم يصفه المجلد بأنه بطل أو فاتح، بل كتب:

"سمعنا عنه أول مرة حين تناقل الناس أخبار عدله، قبل أن يتناقلوا أخبار انتصاراته."

ثم أضاف:

"وكان الأمناء يعلمون أن المدينة لا تستعيدها الجيوش وحدها، بل يستعيدها العدل الذي يجعل الناس يؤمنون بأن التضحية لها معنى."

في تلك الأيام، كان أمين الذاكرة يعيش في دمشق، بعد أن اضطر الأمناء إلى نقل المجلد بعيدًا عن القدس. ومع ذلك، لم يمر يوم واحد دون أن يكتب خبرًا عن المدينة؛ من بقي فيها، ومن رحل عنها، وما الذي تغير في أسواقها ومدارسها ودور عبادتها.

وذات مساء، دخل رسول يحمل رسالة مختومة. قرأها الأمين مرة، ثم نهض واقفًا.

سأله أحد الكتبة: «ما الخبر؟»

أجاب وعيناه لا تفارقان الرقعة: «بدأت المدن تتوحد بعد سنوات طويلة من الفرقة.»

ثم جلس إلى المجلد، وكتب:

"إذا اجتمعت الكلمة، اقترب الفرج. وإذا تفرقت، طال الليل ولو كثرت الجيوش."

أغلق المجلد برفق.

ثم نظر إلى الرجال من حوله وقال: «أشعر أن الله يهيئ لهذه الأمة يومًا ستفتح فيه صفحة جديدة.»

وفي الدير، ابتسم عبد الرحيم وهو يرى آصف يواصل القراءة بشغف.

وقال: «من هذه اللحظة، ستتسارع الأحداث. فالسنوات التي احتاجت عشرات الصفحات سنختصرها، لأن التاريخ وصل إلى منعطفه الكبير.»

أومأ آصف، وقلب الصفحة التالية، وقد أدرك أن زمن الانتظار الطويل أوشك أن ينتهي، وأن المجلد سيبدأ في رواية الأيام التي ستقود إلى استعادة القدس، وإحياء الأمل الذي ظل الأمناء يحرسونه جيلاً بعد جيل.

مضت الأعوام، وأخذ اسم صلاح الدين ينتشر بين الناس قبل أن تصل جيوشه إلى أكثر المدن. كان المسافرون يتحدثون عن قائد يقضي بين الناس بالعدل، ويمنع جنوده من ظلم الأهالي، ويعيد تنظيم المدن التي تدخل تحت حكمه قبل أن يفكر في التوسع نحو غيرها.

ولم يكن أمين الذاكرة يكتب كل ما يسمعه، بل كان ينتظر حتى تثبت الأخبار من أكثر من مصدر، ثم يدونها في المجلد.

كتب في إحدى الصفحات: "لا يبنى النصر على الشجاعة وحدها، بل على العدل الذي يجعل الناس يدافعون عن أوطانهم بإرادتهم، لا خوفًا من سلطان."

وفي تلك السنوات، بدأت القرى التي أنهكتها الحروب تستعيد شيئًا من حياتها. عاد الفلاحون إلى حقولهم، وفتحت المدارس أبوابها، وتحركت القوافل بين المدن بعد أن انقطعت طويلًا

أما المجلد، فلم يبرح مكانه الآمن.

كان أمين الذاكرة يفتحه كل شهر، يتأكد من سلامة صفحاته، ثم يعيده إلى صندوقه، وكأنه يطمئن على رفيق رحلة امتدت عشرات السنين.

وذات مساء، دخل رسول مسرعًا، وعلى وجهه ملامح لم يستطع إخفاءها.

قال وهو يلهث: «اجتمعت الجيوش.»

نهض الأمين من مكانه.

وسأله: «أين؟»

أجاب: «قرب بحيرة طبريا.»

ساد الصمت.

لم يحتج أحد إلى مزيد من التفسير.

فقد أدرك الجميع أن الأيام القادمة ستحدد مصير القدس.

جلس الأمين إلى المجلد، وكتب:

"اليوم لم تعد المعركة احتمالًا، بل موعدًا ينتظره الناس جميعًا. نسأل الله أن يكون النصر بابًا للعدل، لا بابًا للانتقام."

لم تمض أيام حتى وصلت الأخبار التي انتظرها الناس طويلًا. دخل الرسول نفسه، لكن خطواته هذه المرة كانت مختلفة.

لم يكن يركض.

كان يمشي بثبات، وعلى وجهه ابتسامة لم يرها الأمناء منذ سنوات.

وقف في وسط القاعة، وقال بصوت ارتجف من شدة التأثر: «انتصر المسلمون... وانكسرت الجيوش الصليبية في حطين.»

وقف الرجال جميعًا. لم ترتفع الهتافات.

ولم ينس أحد من فقدهم في السنوات الماضية.

بل ساد المكان صمت عميق، قطعه أمين الذاكرة بقوله: «الحمد لله.»

ثم فتح المجلد، وكتب: "في يوم حطين تبدل وجه التاريخ. لم يكن النصر نهاية حرب فحسب، بل بداية أمل عاشت عليه أجيال كاملة، حتى كادت تظنه حلمًا لا يتحقق."

أغلق الصفحة.

ثم التفت إلى من حوله.

وقال: «استعدوا... لقد اقترب موعد العودة إلى القدس.»

بعد أسابيع، أخذت الأخبار تتوالى بسرعة.

المدن تفتح أبوابها واحدة بعد أخرى

والحصون تستسلم.

والطرق التي أغلقتها الحرب سنوات طويلة عادت تستقبل المسافرين من جديد.

وأخيرًا، جاء الخبر الذي انتظره الأمناء منذ ثمانية وثمانين عامًا.

دخل رسول القدس، يحمل كتابًا مختومًا.

قرأه أمين الذاكرة، ثم أغمض عينيه لحظة.

ولما فتحهما، كانت الدموع تملأهما.

رفع رأسه، وقال بصوت خافت: «عادت القدس.»

لم يزد كلمة.

لم يكن في القاعة رجل استطاع أن يخفي تأثره.

أما أمين الذاكرة، فأخرج ***مجلد الذاكرة*** من صندوقه، وضمه إلى صدره، وقال: «لقد حان وقت عودته إلى بيته.»

وفي الدير، أغلق آصف الصفحة وهو يشعر أن الرواية نفسها استعادت أنفاسها بعد زمن طويل من الحزن.

ابتسم عبد الرحيم، وقال: «الفتح الحقيقي لم يكن دخول المدينة... بل أن يعود إليها العدل، وتعود معها الذاكرة التي غادرتها يوم سقطت.»

ثم أشار إلى الصفحة التالية، وقال: «اقرأ... ففيها اليوم الذي عاد فيه المجلد إلى القدس، بعد غياب دام ثمانية وثمانين عامًا.»

كانت الطريق إلى القدس مختلفة هذه المرة.

قبل ثمانية وثمانين عامًا، خرج أمين الذاكرة من المدينة يحمل المجلد هاربًا بين الدخان والنار. أما اليوم، فقد كان الأمين الجديد يسير في الطريق نفسها، لكن خطواته كانت هادئة، وقلبه ممتلئًا بشكرٍ طال انتظاره.

ولم يكن وحده.

كانت القوافل تعود من كل اتجاه، يحمل بعضها التجار، ويحمل بعضها العلماء، ويحمل بعضها عائلات لم ترَ القدس منذ سنوات طويلة. كان كل واحد منهم يعود وفي ذاكرته قصة فقد، وفي قلبه رجاء أن تبدأ صفحة جديدة.

وعندما ظهرت أسوار القدس في الأفق، توقف أمين الذاكرة.

أنزل الصندوق الذي يحمله، وفتحه ببطء.

أخرج ***مجلد الذاكرة*** ، ونفض عنه غبار السفر، ثم قال بصوت خافت: «عدنا... كما وعد من سبقونا.»

أغلق الصندوق، وأكمل الطريق.

دخل صلاح الدين القدس بعد أن منح أهلها الأمان، وأمر بحماية دور العبادة، ومنع جنوده من التعرض للمدنيين أو لممتلكاتهم. كان يريد أن يكون الفتح بداية استقرار، لا بداية انتقام.

كتب أمين الذاكرة في المجلد:

"عرفنا اليوم أن القوة تبلغ تمامها حين يرافقها العدل. فمن دخل المدينة بالسيف، ثم كف يده عن الظلم، حفظ النصر أكثر مما تحفظه الأسوار."

وبعد أيام قليلة، توجه الأمين إلى دار السجلات القديمة.

كان المبنى قد تغير، وأكل الزمن أجزاءً من جدرانه، لكن أساساته بقيت كما كانت.

وقف أمام الباب طويلًا.

ثم أدخل المفتاح الذي تناقله الأمناء جيلًا بعد جيل.

دار القفل بصعوبة.

وانفتح الباب.

دخل المكان ببطء.

كان الغبار يغطي الرفوف، وبعض الأخشاب قد تهالكت، لكن القاعة بقيت واقفة، كأنها كانت تنتظر عودة أصحابها.

اقترب الأمين من المنضدة الحجرية التي كتب عليها عمران أولى صفحات المجلد.

مرر يده فوقها.

ثم وضع المجلد في الموضع نفسه الذي غادره منه قبل ثمانية وثمانين عامًا.

لم يقل أحد كلمة.

لكن الدموع التي امتلأت بها أعين الرجال كانت أبلغ من كل الخطب.

بدأت دار السجلات تستعيد حياتها شيئًا فشيئًا.

أعيد إصلاح الرفوف.

ونسخت الوثائق التي نجت من الحرب.

وجمعت شهادات من بقي حيًا، حتى تسجل سنوات الاحتلال كما عاشها أهلها، لا كما كتبها المنتصرون أو المهزومون.

وكان أمين الذاكرة يردد دائمًا: «إذا كتبنا أيام النصر، وتركنا أيام الألم، فلن نكون أمناء على التاريخ.»

لذلك خصص صفحات كاملة لأسماء من فقدوا بيوتهم، وللعلماء الذين هاجروا، وللكتب التي احترقت، وللأطفال الذين ولدوا في سنوات الحرب ولم يعرفوا مدينة غير المدينة المحتلة.

ثم ختم تلك الصفحات بعبارة واحدة: ***"التاريخ لا يكتمل بما انتصر، بل بما صبر."***

ومرت أعوام أخرى في هدوء.

عاد العلم إلى حلقاته، وامتلأت الأسواق بالحركة، وأصبحت دار السجلات مقصدًا لكل من أراد إثبات حق أو حفظ عهد.

أما المجلد، فقد عاد إلى مكانه الطبيعي، يزداد صفحة بعد صفحة، وينتقل بين الأمناء كما انتقل منذ عهد عمران.

وفي آخر صفحة من هذا المجلد، كتب الأمين: "لقد تعلمنا أن المدينة قد تسقط، ثم تنهض. وأن الجيوش قد تنتصر، ثم ترحل. أما الذاكرة، فإذا وجدت من يحرسها، فإنها تبقى أقوى من الزمن."

أغلق آصف المجلد ببطء، وقد شعر أن رحلة طويلة انتهت، لكن عبد الرحيم لم يترك له وقتًا طويلًا للتأمل.

أعاد المجلد إلى الرف، ثم قال:

«بعد صلاح الدين، عرفت القدس قرونًا من الاستقرار، ثم جاءت عليها أيام أخرى تغير فيها وجه العالم. وما بقي من الرواية... يقودنا بسرعة إلى الزمن الذي سيقترب فيه أمناء الذاكرة من عصرنا.»

ومد يده نحو المجلد الأخير، الذي كان أقلها سمكًا، لكنه بدا أكثرها استعمالًا، وكأن أصحابه فتحوه مرات لا تحصى، لأنهم كانوا يعيشون زمنًا تتسارع فيه الأحداث، ويصبح فيه حفظ الحقيقة أصعب من أي زمن مضى.

الفصل الخامس

المجلد الأخير

رفع عبد الرحيم المجلد الأخير من الرف بحذر، ثم وضعه أمام آصف.

لم يكن غلافه قديمًا كالمجلدات السابقة، لكنه حمل آثار كثرة الاستعمال. كانت زواياه قد بهت لونها، وكثرت بين صفحاته الرقاع الصغيرة، وكأن كل جيل أضاف إليه شاهدًا جديدًا.

فتح آصف الصفحة الأولى.

وكان أول ما قرأه:

"بعد تحرير القدس، تعاقبت عليها دول وسلاطين، وازدهرت فيها أعوام، واشتدت عليها أعوام أخرى، لكن أمناء الذاكرة بقوا على عهدهم. تغيرت الأسماء، وتبدلت الألسنة، أما القلم، فلم يغير وظيفته."

ثم تتابعت الصفحات بسرعة.

لم يعد الناسخ يروي تفاصيل كل عصر، بل كان يقف عند اللحظات التي غيرت وجه المدينة.

كتب عن المدارس التي ازدهرت في العهدين الأيوبي والمملوكي، وعن العلماء الذين حملوا الكتب إلى القدس، وعن النساخ الذين أمضوا أعمارهم يحفظون الوثائق، ثم انتقل إلى العهد العثماني، حيث اتسعت المدينة، ورممت أسوارها، وعادت القوافل تملأ طرقها.

وتحت كل مرحلة، كانت تتكرر عبارة واحدة: "سُلِّم المجلد إلى أمين جديد، وبقي العهد كما هو."

أغلق آصف عدة صفحات دفعة واحدة.

وقال: «كأن القرون أصبحت تمضي أسرع.»

ابتسم عبد الرحيم.

وقال: «لأن التاريخ هدأ، ولم يعد يحتاج إلى أن يروي كل يوم. الحارس لا يطيل الحديث إلا عندما تهتز الذاكرة.»

قلب آصف الصفحة التالية.

توقف عند تاريخ جديد.

1917م.

وبجانبه كتب الناسخ:

"دخلت جيوش جديدة القدس، وانتهى عهد، وبدأ عهد آخر."

ثم جاءت صفحات قصيرة، لكنها ثقيلة.

تحدثت عن تبدل الإدارة، وعن تغير القوانين، وعن خوف الناس على أراضيهم ووثائقهم.

وكتب أمين الذاكرة في ذلك الزمن: "كلما تغير الحاكم، عاد الناس إلى السجلات. فالسلطة قد تتبدل، أما الحق فلا يجوز أن يتبدل."

ثم جاءت صفحة أخرى.

وفي أعلاها تاريخ واحد: ***1948م.***

ساد الصمت في الغرفة.

قرأ آصف ببطء:

"خرجت عائلات من بيوتها وهي تظن أنها ستعود بعد أيام، فأغلقت الأبواب خلفها، ولم تعلم أن مفاتيحها ستبقى معها عمرًا كاملًا."

"حمل بعضهم المال، وحمل آخرون الطعام، أما أمناء الذاكرة، فحملوا الوثائق التي تثبت أسماء الناس وأرضهم، لأنهم علموا أن العودة تبدأ من الحقيقة قبل أن تبدأ من الطريق."

توقفت يد آصف.

شعر أن الكلمات أصبحت أقرب إلى زمن يعرفه.

ثم قلب الصفحة التالية.

1967م.

"دخلت المدينة مرحلة جديدة، وأصبح حفظ الوثائق أصعب من أي وقت مضى. لم يعد الخطر يأتي من الحرب وحدها، بل من محاولات تغيير الرواية، ومحو الأسماء، وإبدال الحقيقة بحكاية أخرى."

أغلق آصف المجلد لحظة.

ثم رفع رأسه.

وقال: «إذن... لهذا بقي المجلد سرًا حتى اليوم.»

أومأ عبد الرحيم.

وقال: «***في الأزمنة القديمة، كانوا يخفونه من النار. أما في عصرنا، فيخفونه من النسيان.***»

ساد الصمت.

ثم أعاد آصف فتح المجلد. كانت الصفحات الأخيرة مكتوبة بخط يعرفه.

تجمدت عيناه.

قال بدهشة: «هذا... خطك.»

ابتسم عبد الرحيم ابتسامة امتزج فيها التعب بالسكينة.

وأجاب: «نعم... فمنذ أربعين عامًا، أصبحت أنا أمين الذاكرة.

توقف آصف عن القراءة.

ولأول مرة منذ فتح المجلد الأول، لم يعد يشعر أنه يقرأ تاريخ رجال رحلوا، بل تاريخ الرجل الجالس أمامه.

قال بصوت خافت: «إذن... لم تكن تقرأ لي الماضي فقط.»

نظر إليه عبد الرحيم طويلًا.

ثم قال: «بل كنت أهيئك للمستقبل.

وساد صمت عميق في الغرفة.

خارج الدير، كانت رياح المساء تهب بين أشجار الزيتون، كما كانت تهب يوم حمل عمران المجلد لأول مرة.

أما في الداخل، فقد أدرك آصف أن رحلة القراءة أوشكت على نهايتها...

وأن رحلة حمل الأمانة، ربما كانت على وشك أن تبدأ.

ساد الصمت في الغرفة طويلًا.

لم يكن آصف ينظر إلى المجلد، بل إلى عبد الرحيم. كان يحاول أن يجمع بين الرجل الهادئ الجالس أمامه، وبين الأمناء الذين قرأ عنهم في المجلدات الثلاثة. فجأة لم يعد التاريخ بالنسبة إليه أسماءً بعيدة، بل أصبح شخصًا حيًا يجلس على بعد خطوات منه.

قال آصف بصوت خافت: «ولماذا أنا؟»

لم يجب عبد الرحيم مباشرة.

نهض ببطء، واتجه نحو النافذة المطلة على سفوح الجبال. كانت الشمس تميل إلى الغروب، وأشعتها الذهبية تلامس أشجار الزيتون التي أحاطت بالدير منذ مئات السنين.

قال وهو ينظر إلى الأفق: «هذا السؤال طرحه عمران على معلمه، وطرحه كل أمين على من سبقه. ولم يكن الجواب يومًا متعلقًا بالعلم وحده، ولا بالشجاعة وحدها.»

التفت إلى آصف، ثم تابع:

«الأمانة لا تبحث عن أكثر الناس معرفة، بل عن أكثرهم صدقًا حين يختلف الناس على الحقيقة.»

خفض آصف رأسه.

وتذكر كل ما مر به منذ دخوله الدير؛ الأسئلة التي لم يجد لها جوابًا، والمجلدات التي فتحت أمامه بابًا لم يكن يتخيل وجوده.

قال بعد لحظة: «لكنني لم أطلب هذه المهمة.»

ابتسم عبد الرحيم ابتسامة هادئة.

وقال: «ولا واحد ممن حملوا المجلد طلبها لنفسه. لو كانت طريقًا إلى المجد، لتزاحم عليها الناس. لكنها طريق مليئة بالوحدة والصبر، ولهذا لم يحملها إلا من أدرك أن خدمة الحقيقة أعظم من خدمة اسمه.»

اقترب من المنضدة، ووضع يده على المجلد الأخير.

وقال: «اقرأ الصفحة الأخيرة.»

فتح آصف المجلد بحذر.

كانت الصفحات الأخيرة أحدث من غيرها، وبعضها كتب بالحبر الأزرق بدل الأسود، وفي هوامشها تواريخ لم يمض عليها سوى سنوات قليلة.

قرأ:

"لم يعد الخطر في عصرنا أن تضيع الوثائق، فقد أصبحت الصور تحفظ، والكتب تنسخ، والمعلومات تنتقل في لحظات. لكن الخطر الحقيقي أصبح في كثرة الروايات، حتى اختلط الصدق بالكذب، وصار الناس يصدقون ما يوافق أهواءهم أكثر مما يصدقون ما تثبته الأدلة."

وتحتها كتب عبد الرحيم بخطه الواضح: "لهذا بقيت مهمة أمين الذاكرة كما كانت منذ عهد عمران؛ لا أن يختار ما يحب، بل أن يثبت ما وقع، وأن يترك للأجيال حق الحكم."

توقف آصف عن القراءة.

ثم سأل: «وهل بقي غيري يعرف هذا المكان؟»

أجاب عبد الرحيم: «قلة قليلة. بعضهم رحل، وبعضهم شاخ، ولم يبق ممن يستطيع حمل الأمانة إلا نفر يعدون على أصابع اليد.»

ثم فتح درجًا صغيرًا في المنضدة.

أخرج منه مفتاحًا نحاسيًا قديمًا.

كان هو المفتاح نفسه الذي وصفته المجلدات، والذي انتقل من أمين إلى آخر عبر قرون طويلة.

وضعه أمام آصف.

لم يمده إليه بعد.

بل قال: «هذا المفتاح لم يفتح بابًا واحدًا فقط، بل فتح تاريخًا كاملًا. حمله عمران، ثم يوسف، ثم عشرات الأمناء الذين لم يذكرهم المؤرخون، لأنهم لم يبحثوا عن الشهرة.»

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أكمل: «وأخشى أن يكون دوري قد اقترب من نهايته.»

ساد الصمت مرة أخرى.

لكن هذه المرة لم يكن صمتًا يملؤه الغموض، بل صمت القرار الذي يقترب.

نظر آصف إلى المفتاح، ثم إلى المجلدات المصطفة على الرفوف.

أدرك أن ما بين يديه ليس إرث رجل واحد، ولا تاريخ مدينة واحدة، بل شهادة أجيال كاملة آمنت بأن الحقيقة تستحق أن تحفظ مهما تغيرت الأزمنة.

رفع بصره إلى عبد الرحيم، وقال بثبات: «لن أعدك اليوم بأنني سأحمل الأمانة، لأن الوعد مسؤولية عظيمة. لكنني أعدك بشيء واحد... سأظل وفيًا للحقيقة، حيثما قادتني.»

ابتسم عبد الرحيم، وكانت تلك أول ابتسامة ارتسمت على وجهه منذ بدأ آصف قراءة المجلدات.

وقال بهدوء: «هذا هو الجواب الذي انتظرته.»

ثم أغلق المجلد الأخير برفق، وكأن صوت الغلاف وهو يطبق على صفحاته كان إعلانًا بانتهاء رحلة امتدت قرونًا، وبداية رحلة جديدة لن يكتبها هذه المرة أمناء الماضي، بل رجال الحاضر الذين سيقررون إن كانت الذاكرة ستبقى حية، أم ستترك للنسيان.

ظل عبد الرحيم واقفًا أمام الرفوف لحظات، ثم أعاد المفتاح إلى الدرج وأغلقه بهدوء.

استغرب آصف، وقال: «ألن تسلمني الأمانة؟»

ابتسم الشيخ، وجلس على المقعد الخشبي الذي جلس عليه أول مرة التقيا فيها.

وقال: «الأمانة لا تسلم في لحظة تأثر، ولا بعد قراءة المجلدات مباشرة. لقد قرأت الماضي، لكن بقي أن ترى الحاضر بعينيك.»

نظر إليه آصف في دهشة.

فسأله: «وما الذي يجب أن أراه؟»

أجابه عبد الرحيم: «أن الحقيقة ليست حبيسة هذه الصفحات. إنها تعيش في الناس، وفي المدن، وفي الوثائق التي ما زالت تنتظر من يحفظها.»

نهض الشيخ مرة أخرى، واتجه نحو باب الدير.

فتح الباب، فاندفع هواء المساء البارد إلى الداخل.

امتدت أمامهما التلال التي تحيط بالقدس، وكانت المدينة تلمع في الأفق تحت آخر خيوط الشمس.

قال عبد الرحيم وهو يشير إليها: «انظر إليها.»

ظل آصف صامتًا.

فأكمل الشيخ: «كم مرة قرأت في هذه المجلدات أنها سقطت؟»

قال آصف: «مرات كثيرة.»

«وكم مرة عادت؟»

«كل مرة وجد فيها من يتمسك بالحق.»

هز عبد الرحيم رأسه راضيًا.

وقال: «لهذا لم تكن الرواية عن الحروب، ولا عن الملوك، ولا عن المنتصرين. كانت عن أولئك الذين ظلوا يحملون الحقيقة عندما انشغل الجميع بحمل السلاح.»

ساد بينهما صمت قصير.

ثم أخرج الشيخ من جيبه ورقة مطوية.

ناولها إلى آصف.

فتحها ببطء.

كانت قائمة قصيرة تضم أسماء مكتبات، وأرشيفات، وأديرة، ومساجد، ومراكز حفظ مخطوطات في القدس ومدن أخرى.

وفي أسفلها كتب بخط عبد الرحيم: "ما بقي من الذاكرة ليس في هذا الدير وحده، بل في كل مكان ما زال يحفظ أثرًا صادقًا من الماضي."

رفع آصف رأسه.

وقال: «إذن... الرحلة لم تنته.»

ابتسم عبد الرحيم. «بل بدأت الآن.»

وفي تلك اللحظة، دوى أذان المغرب من القدس، وتعاقبت بعده أجراس الكنائس، كما تعاقبت عبر القرون التي رواها المجلد.

أغلق آصف الورقة، ووضعها في جيبه.

ثم التفت إلى الشيخ وقال: «أفهم الآن لماذا لم ترد مني أن أصدق كل ما قرأت، بل أردتني أن أتحقق منه.»

أجاب عبد الرحيم: «لأن أمين الذاكرة لا يكرر الروايات... بل يبحث عن الدليل.»

ومع اختفاء آخر قرص للشمس خلف التلال، أغلق الشيخ باب الدير.

لم يعد هناك ما يقال.

فالمجلدات الثلاثة عادت إلى أماكنها، والأمانة لم تعد سرًا غامضًا، بل مسؤولية تنتظر صاحبها.

وفي صباح اليوم التالي، غادر آصف الدير بخطوات مختلفة عن تلك التي جاء بها.

لم يحمل معه المجلد، ولم يحمل المفتاح، لكنه حمل ما هو أثقل منهما جميعًا؛ اقتناعًا راسخًا بأن الأمم لا تفقد وجودها يوم تخسر معركة، بل يوم تسمح لغيرها أن يكتب تاريخها نيابة عنها.

أما عبد الرحيم، فبقي واقفًا عند باب الدير يتابع آصف حتى غاب عن ناظريه.

عندها عاد إلى الغرفة الحجرية، ووضع يده على المجلد الأخير، وقال بصوت يكاد لا يسمع: «لقد اقترب الوقت... وستجد الذاكرة أمينها من جديد.»

ثم أطفأ المصباح، وأغلق الباب، بينما بقيت المجلدات في صمتها العتيق، شاهدة على رحلة امتدت من عهد سليمان إلى زمننا، تؤكد أن الحقيقة قد تُحاصر، وقد تُخفى، لكنها لا تموت ما دام هناك من يؤمن بأن حفظها أمانة لا تنتهي.

مضت أشهر بعد مغادرة آصف للدير.

عاد إلى حياته، لكنه لم يعد الرجل نفسه. صار يقضي أيامًا طويلة بين المكتبات، ويزور دور الوثائق، ويقابل كبار السن الذين يحملون في ذاكرتهم ما لم تدونه الكتب. كان يستمع أكثر مما يتكلم، ويكتب أكثر مما ينشر، ويقارن كل رواية بما يثبتها من وثيقة أو شاهد.

وذات مساء، عاد إلى الدير.

كان المطر يتساقط بهدوء، تمامًا كما كان يوم دخله لأول مرة.

طرق الباب.

لكن أحدًا لم يجبه.

انتظر قليلًا، ثم دفع الباب برفق، فوجده مفتوحًا.

دخل القاعة الحجرية، فوجدها كما تركها؛ المنضدة في مكانها، والرفوف عامرة بالمجلدات، والمصباح النحاسي فوق الطاولة، إلا أن المقعد الذي كان يجلس عليه عبد الرحيم كان خاليًا.

تقدم بخطوات مترددة.

فوجد على المنضدة رسالة مختومة باسمه.

فض الختم، وبدأ يقرأ.

"يا آصف...

إذا كنت تقرأ هذه الرسالة، فهذا يعني أنني رحلت كما رحل من سبقني. لا تحزن، فالأمانة لا تقف عند رجل، ولا تنتهي بوفاته. لقد تعلمت من المجلدات أن العمر يقاس بما يحفظه الإنسان من حق، لا بعدد السنين التي يعيشها.

إياك أن تجعل هذا المكان مزارًا للأساطير، أو أن تحول المجلدات إلى كنز يخفى عن الناس. قيمتها ليست في الورق الذي كتبت عليه، بل في الصدق الذي حفظته. فإذا وجدت وثيقة أصح مما فيها، فاكتبها، وإذا ثبت لك خطأ، فصححه، فإن أعظم خيانة للذاكرة أن نجعلها معصومة من المراجعة.

تذكر دائمًا أن الحقيقة لا تخاف البحث، وأن التاريخ لا يكتبه الأمناء لأنفسهم، بل لمن سيأتي بعدهم.

فإن وجدت يومًا من هو أصدق منك، وأكثر أمانة، فسلمه المفتاح دون تردد، كما فعل من سبقونا جميعًا.

عبد الرحيم."

طوى آصف الرسالة ببطء.

لم تسقط منه دمعة.

لكنه شعر أن الكلمات التي قرأها أثقل من كل المجلدات التي حملها بيديه.

رفع بصره نحو الرفوف.

ثم اقترب من الدرج الصغير.

فتحه.

كان المفتاح النحاسي في مكانه.

تناوله بكلتا يديه، ثم أغلق عينيه لحظة.

لم يشعر أنه أصبح مالكًا لشيء، بل خادمًا لرسالة بدأت قبل آلاف السنين، وستستمر بعده.

تقدم نحو الخزانة الحجرية.

أخرج المجلد الأخير.

فتح الصفحة البيضاء التي تركها عبد الرحيم دون كتابة.

غمس القلم في الحبر.

وبقي لحظات لا يكتب شيئًا.

ثم خط أول سطر في عهد جديد:

"ليس أشرف ما في التاريخ أنه يروي ما مضى، بل أنه يعلم الأحياء كيف لا يكررون أخطاء من سبقهم."

ترك الحبر يجف.

وأغلق المجلد برفق.

وفي الخارج، كانت القدس تستقبل صباحًا جديدًا.

ازدحمت شوارعها بالناس، وتعاقبت فيها الوجوه كما تعاقبت عبر القرون. لم يكن أكثرهم يعلم أن في ذلك الدير الصغير مذكرات أجيال كاملة، ولا أن رجالًا مجهولين أفنوا أعمارهم ليبقى الحق محفوظًا لكن ذلك لم يكن مهمًا.

فقد أدرك آصف، كما أدرك عمران، وعبد الرحيم، وكل من سبقهما، أن أعظم الأعمال هي تلك التي تبقى آثارها، وإن غابت أسماء أصحابها.

أغلق باب الدير خلفه، ونزل في الطريق المؤدي إلى المدينة.

كانت الشمس ترتفع ببطء فوق القدس، تنثر نورها على القباب والأسوار والحجارة العتيقة.

ابتسم آصف، ومضى في طريقه.

أما المجلدات، فقد بقيت في مكانها، لا تنتظر بطلًا جديدًا، ولا معركة جديدة، بل تنتظر رجلًا أو امرأة يؤمنان، كما آمن من سبقهم، بأن الحقيقة أمانة، وأن الذاكرة إذا حفظت بصدق، بقيت أقوى من السيف، وأطول عمرًا من الملوك، وأبقى من كل ما يتركه الزمن وراءه.

تمت.

خاتمة

تنتهي الحروب، وتتغير الدول، وتسقط المدن ثم تنهض من جديد، لكن الحقيقة وحدها هي التي تظل تبحث عمن يحملها بأمانة.

ليست هذه الرواية محاولة لإعادة سرد تاريخ القدس فحسب، بل هي دعوة للتأمل في قيمة الذاكرة، وفي أولئك الذين عملوا في صمت، بعيدًا عن الأضواء، ليحفظوا للأجيال ما كاد الزمن أن يمحوه. فكم من اسمٍ خلدته الكتب، وكم من رجلٍ عظيمٍ لم يذكره التاريخ، رغم أنه كان سببًا في بقائه.

لقد كانت القدس، عبر العصور، أكثر من مدينة؛ كانت شاهدًا على تعاقب الحضارات، وعلى صراع الإنسان بين القوة والعدل، وبين النسيان والذاكرة. وفي كل مرحلة، بقيت الحقيقة بحاجة إلى من يحرسها، لا بالسيف، بل بالقلم، ولا بالشهرة، بل بالإخلاص.

إن شخصيات هذه الرواية، وإن كانت تنتمي إلى عالم الأدب، فإنها تستلهم روحًا إنسانية تؤمن بأن التاريخ أمانة، وأن الكلمة الصادقة قد تبقى أثرًا لا يقل قيمة عن أعظم الانتصارات.

وإذا أغلق القارئ هذه الصفحات وهو يؤمن بأن الحقيقة تستحق أن تُبحث، وأن تُوثق، وأن تُصان من التحريف، فإن ***حراس الذاكرة*** تكون قد حققت رسالتها.

إلى كل من آمن أن حفظ الحقيقة مسؤولية، وإلى كل من يكتب بصدق، ويبحث بإنصاف، ويقرأ بعقلٍ منفتح...

هذه الرواية مهداة إليكم.

"عادل بنعيسي"

مجلدات لا تموت... وأمانة لا تنتهي

منذ عهد النبي سليمان، ومدينة القدس شاهدة على تعاقب الحضارات، وصراع الأمم، وتغير العصور...

لكن في زواياها، كان هناك رجال لا تكتب أسماؤهم في الكتب، ولا تُقام لهم المثائيل، ومع ذلك حملوا أثمن أمانة: حفظ الذاكرة من الضياع، وحماية الحقيقة من التزوير.

عبر قرون طويلة، تناقل أمناء الذاكرة مجلداً سَرِيًّا، ذوّنوا فيه كل ما يهدد أن يُنسى: من بناء الهيكل إلى الفتوحات، ومن محن الاحتلال إلى لحَظات النصر، ومن صراعات السلطان إلى صمود الناس البسطاء.

هذه الرواية ليست مجرد سرد تاريخي، بل رحلة إنسانية تأخذك من أورشليم الملك إلى القدس المعاصرة، حيث تتداخل الأحداث التاريخية مع مصائر الأفراد، وتتكشف الحقيقة شيئاً فشيئاً بين صفحات مكتوبة بالحبر... ودموع لم تجف بعد.

ذاكرة أمة لا تموت ما دام هناك من يكتبها...
وتاريخ لا يُضيَع ما دام هناك من يحرسه.

ISBN 978-9920-123-45-7
9 789920 123457

دار المتون
للنشر والتوزيع

adil.benaissi